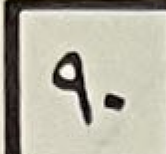



الكتاب العربي السعودي




الدكتور عصام خوقير

# زوجتي وأنا

قصة طويلة

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية



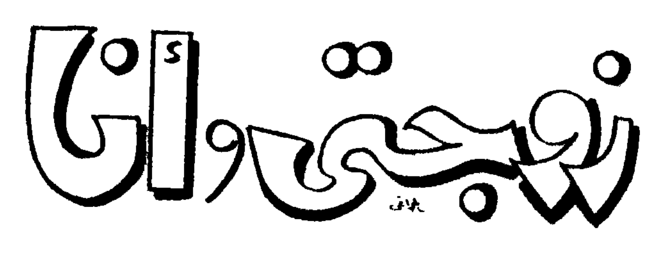

الكتاب العربي السعودي







الدكتور عصام خوقير




قصة طويلة

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

النَاشر
تهامة
جـدة ـ المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ . هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

# زوجتي وأنا

# الشخصيات

● **السيد ناصر :**

رجل أعمال ناجح فى منتصف العقد الرابع من عمره ، لبق لطيف المعشر .

● **السيدة شادية :**

زوجة السيد ناصر ، سيدة تجمع بين الطيبة والسذاجة ، الى حد بعيد ، باذخة الجمال والأنوثة .

● **السيد قاسم ( أبو ناصر ) :**

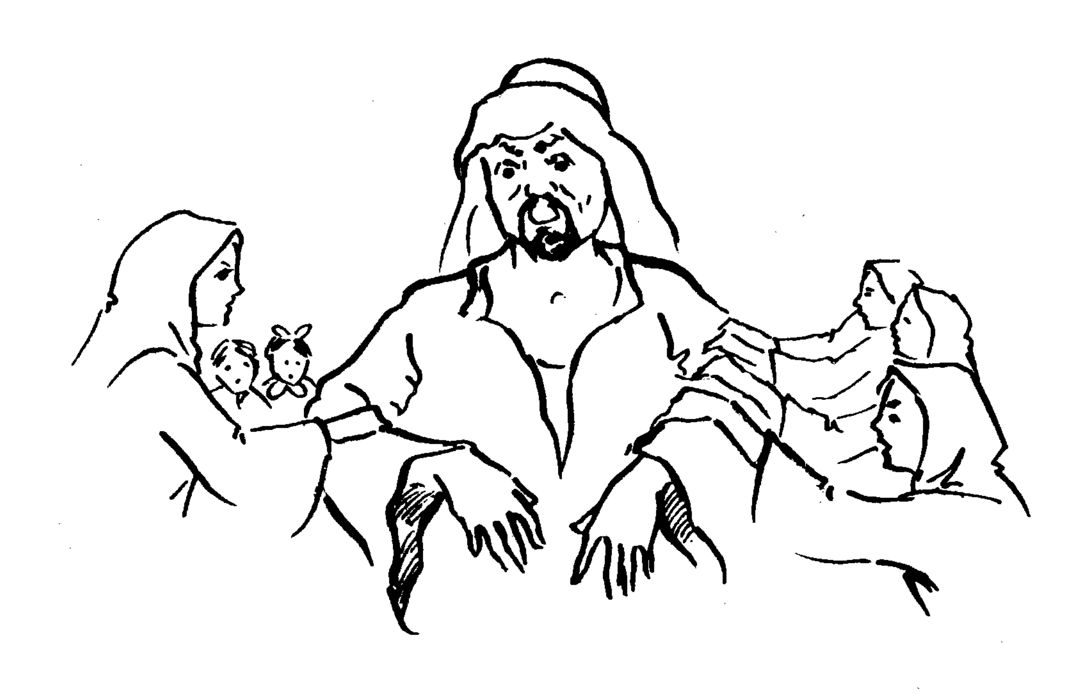
والد ناصر ، من الجيل الأسبق ، يؤمن بالمثاليات ومازالت تحكمه أخلاق الماضى بكل مافيها من نبل وطهر ونخوة ، فى السبعين من عمره ، بادى المهابة .

● **السيدة ( أم ناصر ) :**

فى منتصف العقد السادس ، ماتزال محتفظة ببقايا جمال ورواء ، بالغة الطيبة ، مفرطة فى التفانى فى خدمة الأسرة ، تمثل الجيل السابق لا تبدو عليها السنون . نحيلة الجسم .

● **محيسن وهالة :**

إبنا ناصر وشادية .



١

– انت رايح تخوفنى من حكاية الزواج ياعمى والا إيه ؟

قال ذلك الفتى ابن صديقى الشاب مصطفى شعبان الذى كان يهيىء نفسه للزواج حالماً بعش الزوجية الهادىء ، وكان ذلك ردَّ فعلٍ لسخريتى من الحديث المنمق عن العش الهادىء ، وأن الحياة الزوجية هى سكن وسكينة ، وحب متبادل ، وحنان ورقة ونعومة من العروس ، وأجبته قائلا :

– تخاف من إيه يا مصطفى . ما هى البشرية كلها عائشة نفس التجربة . قبل الزواج ، بين فترة الخطوبة وفترة عقد القران . كل واحد من الطرفين يعايش أحلامه الحسية ، ويعايش أوهاماً ألقاها فى خياله الكتاب والأدباء اللى بيحكوا عن العش الهادىء ، وفى الشهور الأولى من الزواج يعايش الطرفان حالة الانبهار الحسى والرى والاشباع ، وتمضى الأيام والشهور ويظهر للطرفين مالم يكونا يحتسبان .

– يالطيف ؟؟ أنت على كده خوفتنى أكثر !! إنما ياترى هل الحال داهوّ حال كل الزواج ؟؟ كيف تفسر إذن حالة الاستمرارية اللى عليها المتزوجين أمثالك ، وأمثال والدى ، وبقية البشر يعنى ؟ .

وضحكت من قلبى ، وابندرنى والده – صديقى الأخ شعبان ، وكان حاضرا النقاش – قائلا :

– جاوبه يا فيلسوف زمانك صحيح كيف تبرر حكاية الاستمرارية ؟

وضحكت هذه المرة من كل قلبى : الحكاية وما فيها إننا معشر الرجال أو معشر المتزوجين نُصاب بحالة تبلد ، يمكن البعض ، وخاصة الزوجات يسمونها استسلام الزوج ، لكن أبدا ، فعلا هى حالة تبلد .

– شوف يامصطفى ياولدى – قالها السيد شعبان لابنه – شوف واسمع مضبوط من عمك ناصر ، لأنه رجل مجرب بمعنى الكلمة ، مر بأربع تجارب .

- « أربع تجارب ؟- قالها مصطفى باستغراب - يعنى إنك اتزوجت أربع مرات ؟؟ إذن فين حالة التبلد اللى بتقول عليها » ؟

ومرة أخرى ضحكت من كل قلبى :« وتنتظر أية تبلد أكثر من كده ؟؟ وجلجلت ضحكاتنا جميعا ، وانفض سامرنا على أمل لقاء آخر .

وعدت الى البيت وفى النفس حاجات كثيرة من الحديث الذى ذكرت ، ومرت بى حياتى السابقة مع الأخريات السابقات كشريط مرئي . لعلى أستعيد تفاصيله .

ودلفت الى مسكنى الفاخر الأنيق الذى يقع فى أرقى أحياء المدينة ، وقد أحاطت به حديقة غناء فسيحة فسحة مبالغا فيها ، وأجلت النظر فيما أعيشه من نعيم وبذخ وترف . وكادت النفس أن تلومنى فعاجلتها بأننى لم أبذل فى كل ذلك - ماديا - ما يستحق اللوم ، وسعدت بمظاهر الترف من أثاث ورياش ، وما علق على الحائط من تابلوهات وروائع الفن العالمى .

ومرة أخرى تعزيت بأن ذلك لم يكلفنى - ماديا - كثيرا أو قليلا ، وبدت ربة الدار فى أوج جمالها دونما مساحيق أو مساعدات الجمال . فهى بحق - وأحمد الله على ذلك - جمعت كل صفات الحسن ومقاييس الجمال ، فهى تضيىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل كما قال امرؤ القيس .

وهى هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة ، وهى تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل ، وهى بعيدة مهوى القرط ، وهى عصا خيزرانة إذا لمسوها بالأكف تلين .

هى كل ذلك ، وهى فوق ذلك عريب ، ودود ، ولكن أنى للجمال أن يكتمل ، فهى محدودة التعليم وذلك كثيرًا ما أراحنى ، وهى محدودة الثقافة ، محدودة التجربة بدرجة تتدنى الى المحل وذلك أيضا قليلا ما نغصنى وكثيرا ما أراحنى .

واستقبلتنى ببسمة راضية ، وأمسكت بيدى ودلفنا إلى الشرفة المطلة على الحديقة ، ثم خرجت لتعود بإبريق الشاى وآنية الشرب وكنت قد استغرقت فى صراع داخلى إثر حديثى مع ابن صديقى الشاب مصطفى شعبان ، ولعلها لاحظت على حالة الشرود فسألتنى .

- إنت مالك كده مبلّم ؟؟

ولم انزعج لقولها « مبلم » فذلك مبلغها من العلم . لا تحسن اختيار الكلمات لقلة حصيلتها وما كان لى أن ألومها وقد اخترتها على علم منى بذلك ، ورفعت رأسى

من مستندها فوق يدى وتطلعت إليها فإذا هى جميلة كما أراد الله أن تكون الأنثى ، وتطلعت إلى عينيها فإذا هما بحيرتان تكتنزان الهدوء داخلهما . وبادرتنى قائلة :

– ممكن أسألك يا حبيبى .

– بكل سرور يا روحى . اتفضلى إسألى يا نور العين . يا راحة النفس .

– أنت سعيد معايا يا حبيبى ؟

وعجبت للسؤال فأنا فعلا سعيد معها وسعيد بها ورأيت أن أمارس لحظات من الصدق فأجبتها :

– فعلا أنا سعيد ، وسعيد جدا .

– طيب وليه إنت سعيد ؟؟

قالتها بلهجة عادية وساذجة . ووجدتها فرصة أن أكرر إعلان جمالها وإعجابى بمقاييس جمالها الذى منحنى الله إياه . فقلت لها : « أنا سعيد جدا . لأنك زوجة مخلصة ، وتهتمى بالمنزل وبراحتى وما تتدخلى فى أعمالى » .

– « طيب بالمناسبة .. إيه أعمالك يا حبيبى » . واقتربت منى لدرجت الإثارة : ممكن أعرف عملك إيه ؟؟ علشان ما أتدخل فيه ؟؟.

ولعلى انتابتنى نوبة من لحظات الصدق فقلت لها :

– حرامى ، أنا باشتغل حرامى ، لص يعنى !

– قول كلام غير دا ياروحى ، إنت بتشتغل حرامى . مش معقول ؟ .

– ليه ؟؟ إيه غير المعقول فى إنى أشتغل حرامى ؟؟؟ طبيعة عملى حرامى ؟؟

– أبدا ، بس أصلى شايفتك طول الليل معانا فى البيت لا بتخرج أو تسهر

– « أبدا ، بس أصلى شايفتك طول الليل معانا فى البيت لا بتخرج أو تسهر بره ، أو ترجع على وجه الصبح ، دا حتى كتير ويمكن كل صاحباتى بيحسدونى على كده ، والحرامى ما يشتغل إلا فى الليل .. دا اللى عارفينه .

وضحكت ملء قلبى ، واستطردت أمارس لحظات الصدق قائلا :

– لأه ، هو إنت فاكرانى حرامى كلاسيكى ؟؟ أبداً ياروحى أنا حرامى مودرن ، حرامى انطباعى ، والنوع دا مابيشتغل إلا فى النهار يعنى – وزى ما إنت تعرفينى – أحب اشتغل على نور ، تقدرى تسمينى حرامى انفتاحى ، نسبة الى عصر الانفتاح .

– انت بتضحك على عقلى علشان ما نى متعلمة وتهزأ بى .

- اسمعى ياروحى ، أنا لو اضحك أو أسخر من الدنيا كلها ما أسخر منك ومن عقلك ، وأرجوكى ، أرجوكى أبداً ماتفكرى فى حكاية التعليم وإنك غير متعلمة لأنى أنا اخترتكِ وعارف وضعك الثقافى قبل الزواج ، فإن إفتكرتى إنى باسخر من دا ، معناه إنى أسخر من تصرفى أنا .

وارتمت على صدرى حناناً ، وقبلت رأسى عرفانا ، ثم ارتدت ممسكة بيدى قائلة : « يعنى الكلام اللى بتقوله صحيح » ؟؟

- صدقينى عمرى ماكدبت عليكى حتى الآن .

وقلت حتى الآن من باب الاحتياط ، من يدرى ما يأتى به الغد .

- يعنى صحيح اللى بتقوله إن صنعتك حرامى ؟؟

وشعرت أن لابد من مفارقة لحظات الصدق هذه خشية أن تتطور الأمور معها ، خاصة وانها على درجة رفيعة من السذاجة ، فخشيت أن تتباهى بين صويحباتها بذلك فيقلن قالتها ، وأنا أعرف بالنساء وحب القالة عندهن وسرعة نشرها ، فلعلها لو نقلت ذلك لهن سذاجة لتتطورت القالة لأجد نفسى أحد كبار قادة المافيا ، وأردت تبسيط الأمور فوجدتنى أردد القول للشاعر :

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها      فان لكل خافقة سكون

فإذا بها تفاجئنى قائلة :« أقوم أعمل لك كباية نعناع ياروحى ؟؟؟ والا أقول لك ، عن إذنك دقيقة ؟؟ »

وتركتنى الى الداخل لتعود بعد قليل وفى معيتها كأس من الماء وفى يسراها حفنة من مسحوق الكمون والملح .

- خذ ، خذ ، ياحبيبى سف هادى واشرب الموية .

وأخذت منها ما قدمت وأنا فى حالة ذهول واستغراب قائلا :

- إيه دا ؟؟ أعمل بيهم إيه ؟؟؟ وأشربهم ليه ؟؟

- علشان الرياح ، وداحين أسويلك النعناع ، دا طيب كثير للرياح .

- رياح إيه يا بنت الناس الطيبين ؟؟

ونظرت الى مشدوهة :

- انت ما قلت إذا هبت رياحك فهمت - ومن غير ما تقول لى كده بنفسى ونباهتى - والكمون مع الملح سيد من يفك الرياح .

وأمسكت – بحنان – يدها وأجلستها على حجرى قائلا :

– لا يا روحى ، انت فهمتينى غلط ، إذا هبت رياحك فاغتنمها ، دا شعر والشاعر بيشبه الحياة بأنها سفينة شراعية فى البحر ، فإذا هبت الرياح يعنى الهواء . يعنى الفرص ، صاحب السفينة الشاطر ينشر الأشرعة علشان الرياح تدفعها وتسير المركب .. يعنى ينتهز الفرصة . فهمتنى .

– إيوه فهمت ، وأشارت بيدها الى رأسها : لكن عجيبة ، صحيح اللى يعيش يا ما يشوف !

– إيه العجيبة يا روحى ، فقد ظننت أنها أصيبت بنوبة ذكاء مفاجىء .

– العجيبة فعلاً أن الرياح فى البحر غير الرياح فى البر . الرياح فى البر تسوى مغص ، لكن فى البحر تخلى الواحد دايخ وبيقلب ويراجع . على فكرة أنا علشان كده ما أحب أسافر بالبحر ، وفى الإجازة ، شوف بلاش حكاية الرحلة دى اللى بتقول عليها ، لا ياسيدنا بالطيارة أحسن .

واطمأنت ، وربت على خدها الأسيل : من عيونى ياروحى .. الأجازة حول العالم بالطيارة ، وبلاش البحر والرياح إياها .

وحتى أرضيها تناولت الماء وابتلعت حفنة الكمون الممزوجة بالملح .

– لكن قل لى ياحبيبى إنت ....

ولم أدعها تكمل ، وقلت لها :

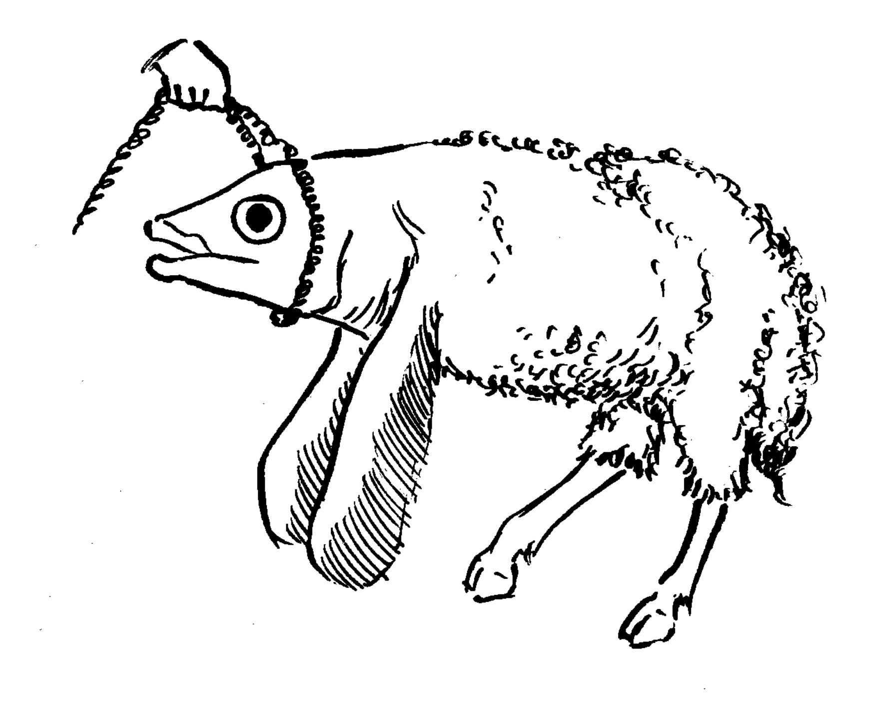
– أنا أقول يا روحى : يا الله بنا ننام وخلى شوية لبكرة ، أحسن الرياح عاملة عمايلها .

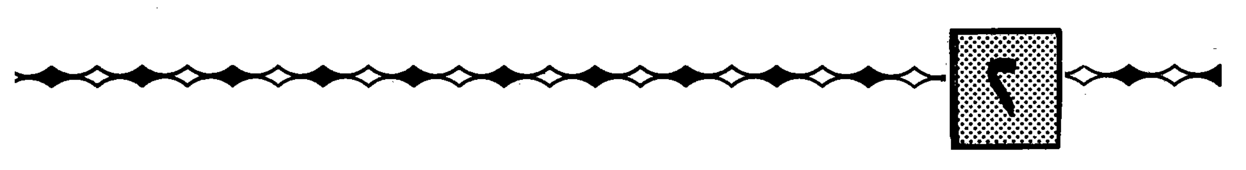
– حاضر ياروحى ، بس لازم تشرب كاسة النعناع قبل النوم برضة علشان الرياحات .

– حاضر ياروحى ، هاتيها وأنا أشربها ، ولسه ياما أشرب من إيدك .

وتركتها لتحضر كوب النعناع فليس من ذلك بد ، وسبقتها الى غرفة النوم مفكرا فى حكايتى غدا معها ، لا شك أنى أحبها بكل مميزاتها هذه ، وحبى هذا لا يمنعنى من أن أفكر فيما تأتينى به غدا من مفاجآت .







اليوم هو يوم آخر من أيام الاسترخاء الاقتصادى ، فلم يعد عندى ما أعمله فى المكتب ، وقد مضى على هذا الوضع بضعة أيام ونحن – أعنى نفسى وأمثالى ممن يطلق عليهم رجال الأعمال – نعلنى حكاية هذا الإسترخاء فى انتظار ما يُسفر عنه فى القريب المنظور من خير منتظر دأبت الصحافة على نسبة عائد الخير على المواطنين ، وأنا – شخصيا – ولا أظننى أختلف كثيرا عن آخرين أمثالى – ننتظر هذه المناسبة لنسعى بوسائلنا الخاصة فى إمتصاص هذا العائد على المواطنين ، ووسائلنا هذه ، تزعم الصحافة أنها غير شريفة وأننا نسرق المواطنين هبات الخير .

ولكن نظرة خاصة تبين أننا لا نقوم بعملية سلب أو سطو بالمعنى المفهوم ولكننا نجعلهم مضطرين للتسليم ، ولكن بطريقة مقنعة ، ولو أننى كنت أمارس لحظات الصدق أحيانا لتسميتها عملية سرقة ولكن بطريقة قانونية تماما كما يمارس الأكثرون الجهل ولكن بطريقة علمية .

ولكم أخذت نفسى تلومنى على كثير من تصرفات وممارسات لا أجدها قبيحة ، ربما لكثرة ممارستى لها أو ربما لتقبل المجتمع لها ، وربما لأنها أصبحت قاعدة من قواعد السلوك الاجتماعى القائم ، وأجد ملجأ فى هذا السلوك القائم فآوى إليه لأشعر نفسى بالسكينة ، وأنَّى لها ، ذلك .. إننى أحمل بين جنبىَّ نفسا غير راضية عن مسلكى ، ولذا أجدنى ونفسى دائما فى صراع مرير ، ولولا أن فى البيت شريكة الحياة التى أحبها – على علاتها – إذاً لكنت أصبت بحالة إكتئاب نفسى رهيب ، ولكن أحمد الله أن جعل لى فيها سكناً وجعل فيها تركيبة فذة من بين – أو من دون – جميع بنات حواء ، فهي تمتص توتر أعصابى ببرود أعصابها ، أو إن أردت الصدق ، بصدق طبيعتها وإنها تتصرف على ما فُطِرَتْ عليه – كأنثى –.

وشعرت – وأنا فى مكتبى أمارس هذه الأفكار – براحة وسعادة ، وكدت أمسك بالهاتف لأحدثها أو لتحدثنى .. ذلك أنها صاحبة طبيعة نادرة فى هذه الأيام التى أصبحت المادية فيها تغلف كل تصرفات البشر . وهذه الخلة فيها تجذبنى إليها وتجعلنى متمسكا بها رغم الفارق الثقافى والعقلانى الكبير بيننا ، ولكن من كان فى مثل أخلاق المادية والتجارية المحضة يكون فعلا فى حاجة إلى مثل زوجتى هذه .

ومددت راحتى لأمسك بالهاتف ، فإذا رنين الهاتف يسبقنى ، وإذا صوتها الحبيب ، وضحكتها التى عهدت ، ولولا أننى على علم بها لقلت إنها ضحكة خليعة ، ولكنها كانت ضحكة أنثى عاشقة خلصت من الخبث ، وخلصت من شوائب المدنية وتَلَوُّثِهَا فكانت صافية صفاءَ نفسٍ كما فطرها الله .

وأتبعت ضحكتها قائلة :

– فاكر أمى كانت بتقول إيه ؟؟ البضاعة تقول نينى نينى ، لحد ما يجى إسمه إيه ويشترينى .

فأجبتها ضاحكا :

– إسمه إيه ، يبقى اسمه لحد ما يجى أعمى القلب يشترينى .

– هـــه ؟؟

وصدرت منها هذه النغمة دلالة على انزعاجها :

– يقطعنى ويقطع لسانى ، والله مو قصدى ، سلامتك وسلامة قلبك ، والله ما أنت أعمى القلب ، إن شاء الله ينقطع لسانى قبل ما أقولها .

– إيه الحكاية بس فهمينى ؟

– أبداً ، بس السمك اللى إنت أرسلته علشان أطبخه ...

ولم أدعها تكمل الحديث فقد خشيت أن يكون فاسداً وخشيت أن يكون البائع الذى تعودت التعامل معه أساء إلى ثقتى به فى التعامل – كما أسأت الى ثقة الآخرين الذين تعاملت معهم بحكم العادة إثر طول الممارسة فى التعامل فى بورصة الذمم – !

ووجدتنى أصرخ :

– إيه ؟؟ ماله السمك ؟؟ مسموم ؟؟ فاسد ؟؟ منتن ؟؟

– أبدا أبداً ، ولا حاجة من دى ، بس يا حبيبى السمك ميت اللى أرسلته ، ميت فعلا .

ميت ؟؟

هكذا وجدتنى أصرخ فى التليفون

– ميت ؟؟ سمك ميت ؟؟ يعنى كان لازم أجيبه حي بيلعب فى الموية ؟؟

– لأ يا حبيبى ما أقصد تجيبه حي وأنا أدبحه ، إنت عارف إنى ما أعرف أدبح ولا حاجة ، ولا أطيق أشوف صورة الدم ولا ريحته .

– السمك تدبحينه ؟؟ هو السمك بيندبح يا حبيبتى ؟؟

جاءنى صوتها كله عذوبة وفطرية : وأنا إيش عرفنى يا حبيبى ، بس السمك اللى جبته ما هو مدبوح ، ورقبته ماسكة فى جسمه ، لأ ، واللى أفظع من كده كان ، إنه كله ، كله مطعون فى بطنه ، وفاتحين بطنه ومغَسِّلِينه علشان لا تطلع له ريحة ، تصور الغش وصل لحد فين ؟؟ السمك بدل ما يدبحوه زى المسلمين وزى ما يدبحو البقر والغنم والدجاج ، يقومو علشان ما يبان إنه ميت يفتحوا بطنه ويغَسِّلُوهَا ، طيب لو فالحين كان زي ما فتحو بطنها بس يدارو غباوتهم ويقطعو رقبتها ، والا إيه يا حبيبى ؟!

ووجدتنى أجيبها :

– فى الحقيقة مو السمك اللى يبغاله قطع رقبته .

– أجل مين يا روحى ؟؟

سؤال ساذج من نفس طيبة ، وجاءنى صوتها :

– عن اذنك يا حبيبى ، الباب بيدق ، أكلمك بعدين .

أعدت الهاتف وأنا أفكر !! هل يحق لى أن أثور ؟؟ السمك يدبحوه ؟؟ إنى أتصور سذاجة فى كل شيىء إلا فى تدبير المنزل ، إن ذلك أمر يرهق الاعصاب ، وأثار أعصابى أكثر أننى كنت أمنىِّ النفس بغذاء السمك . وهاأنذا أجد الأمنية تضيع .

وأجابنى هاجس من داخلى ، وعرفت أنها نفسى تحدثنى : هذه أمنية رخيصة ضاعت عليك بحسن نية ، وها أنت تثور فى داخلك وتساورك أفكار سوداء .

هل تصورت شعور الآخرين الذين أضعت عليهم فرصة الكسب الحلال والأمانى العذاب ، بسوء نية منك ؟؟ فارضاً نفوذك فى بورصة الذمم ؟؟ ووجدتنى أنهض أريد أن أغادر نفسي ، ولكن كيف السبيل ، إننى ونفسى فى شقاق بعيد ، وأبْعَدَ الهواجس عنى دخول مدير مكتبى متهللا يحمل ملف أحدث مشروع تدخل فيه شركتنا ضد العديد من الشركات ، وهمس فى أذنى أن بالخارج مندوب شركة منافسة يعرض خمسة وعشرين فى المائة من قيمة المشروع مقابل التنازل لهم عن العرض ، وأن المندوب يطلب نسبة متواضعة له . وأوصى بقبول هذا العرض ، وغمزته قائلا :

– وكم نصيبك أنت فى الوساطة ؟؟

– أستغفر الله العظيم ، أنا فى نعمة واسعة من فضلك ونعمك أقوم آخذ حاجة لنفسى ؟؟ طيب إنت منغنغنى ... الله يسامحك يا عمى .

ووجدتنى أطيل النظر فى وجهه . فخيل الى أنه يتخذ صورة سمكة صغيرة تلوك طُعما بين شدقيها ، ووجدتنى أوحى إليه بأن يضع الملف أمامى طالبا منه أن يبعث لى بالمندوب الذى ينتظر خارجا ، ولعلى استطردت فى الرؤيا فقلت له :

– لا بأس ، أرسل لى السمكة الثانية .

– نعم ؟؟

أجاب مدير المكتب مندهشا أرسل لك السمك ؟؟ سمك إيه ؟؟ ياعمى أنا باقول مندوب الشركة المنا .....

– فاهم فاهم ، خليه يدخل .

أجبته باقتصاب فخرج ليدخل من بعده ممثل الشركة صاحبة العرض الأخير ، فتصورته كأنه سمك قرش متواضع . وبعد مجاملات ممجوجة . وكلانا يلعن الآخر بين شدقيه ، أنهينا الصفقة بربح – دونما جهد – يتعدى ملايين متواضعة ، وتبادلنا التهانى والتبريك ، وشعرت أن نفسى تبصق فى داخلى ، فتركت لها حرية أن تبصق أو تلقى ما فيها كله ، ووجدتنى أسأل المنافس : إيه رأيك فى السمك ؟؟ هل تحبه ؟؟ .

– بكل تأكيد ، ما تتصور سعادتك أنا أحب السمك قد إيه ؟؟

– حتى لو كان ميت ؟؟

سألته ببلاهة فأكد لي :

– يا سيدى ، ميت ولا حى ، المهم إنه يتّاكل ، والا لأ ؟؟

وهززت يده مصافحا :

– على رأيك ... المهم إنه يتّاكل .

ووجدتنى أردد ذلك القول مرارا بعد أن ترك ، ثم تذكرت الأكل وطعام الغذاء . وأردت أن أطمئن على ( السمك الميت ) عند ربة الدار ، وعلى الهاتف جاءنى صوتها :

– لأ ، إطمئن الخالة جات ورايحة تتغذى عندنا ، وعلى فكرة ، شبعتنى تريقة وضحكت علي لما قلت لها على السمك الميت ، أتاريهم الناس لما يصيدوا السمك ويخرج من المية يموت ، تصور الحكاية دى ؟؟

– اتصورت يا روحى ، بس المهم الخالة اتصورت خيبتك والا خيبة أملها وظننت أنى أُقرِّعُهَا بالكلام فاذا بها وكأننى أتحدث عن شخص آخر :

– خيبة أملها فى مين يا روحى ؟ ما علينا خلينى أكمل لك ، المهم .. هى شمرت وأخذت تغسل السمك بالملح والدقيق ، تصور يا حبيبى ، الناس يتغَسَّلوا ويستحموا بالمية والصابون ، والسمك بالملح والدقيق ، سبحانه على هذا الملكوت .

– والله انت اللى ملكوت لوحده !

واعتبرت ذلك منى مدحاً أو تقريظاً ، واستطردت قائلة :

– شكرا يا روحى ، المهم أنا زي ما قالت قشّرت الثوم ودقيته ، وعملنا الخلطة ، وقليناه ، ومنتظرينك تجى تاكل أكلة ، وتاكل أصابيعك وراها .

وكانت أكلة دسمة ولم أنس الاشارة الى حنكة زوجتى فى أمور السمك الميت وضحكت الخالة واعتذرت واعدةً مزيدا من المساعدة والتوجيه والتعليم .

وأويت للقيلولة ، وكذلك فعلت الخالة ، وانصرفت ربة الدار لتساعد الخادمة فى غسل الأوانى ، ثم أوت الى جوارى . ولم تكد تفعل حتى عادت ناهضة :

– يوه ، ريحة إيدى كلها ثوم وبصل حتى بعد الغسيل ، خلينى أقوم أحط شوية ريحة تبعد ريحة الثوم .

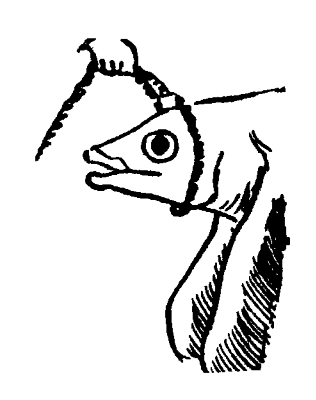
ورأيت أن أجاملها ، فأمسكت بها قائلا :

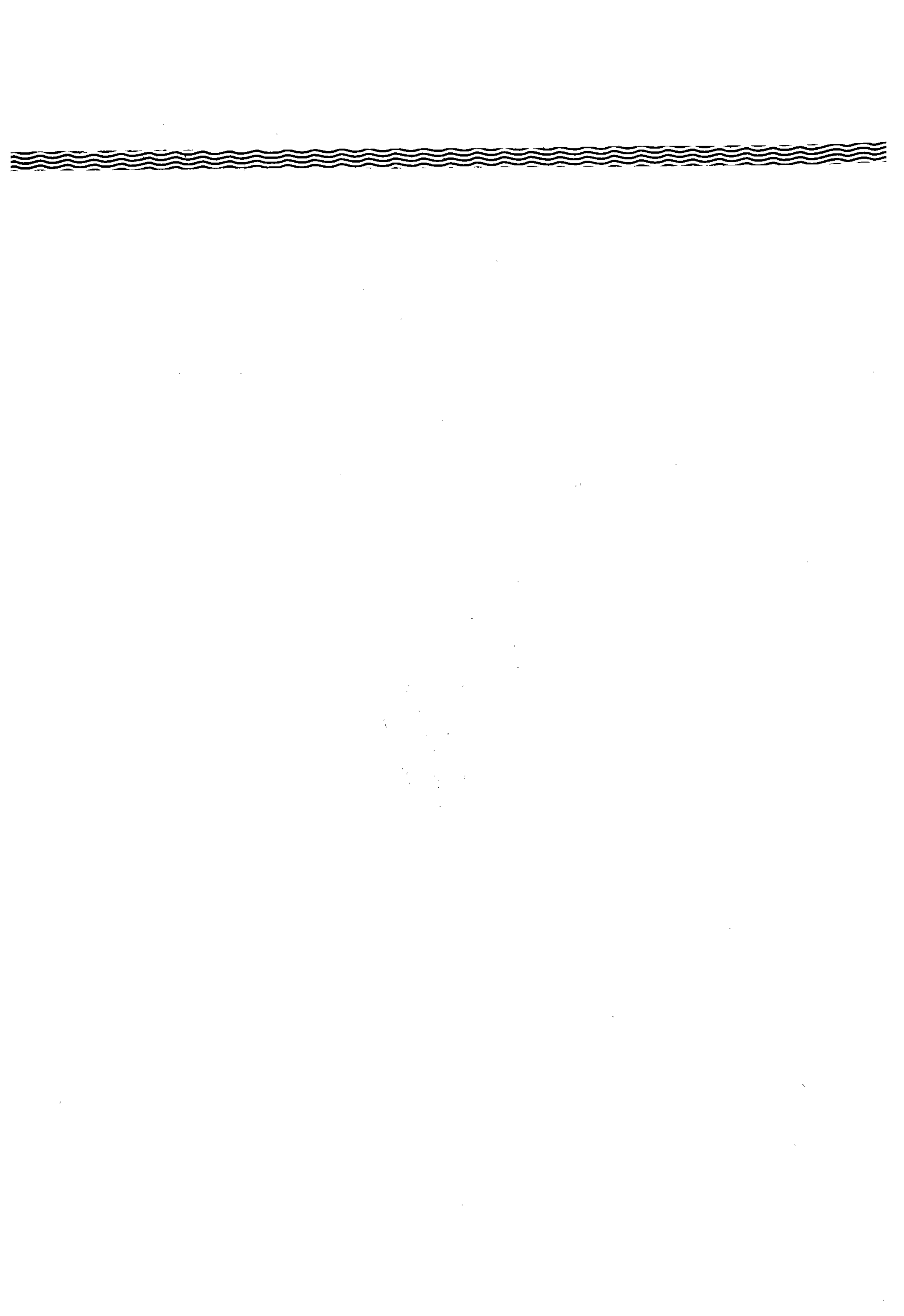
– بالعكس ، خليكى .. صدقينى الواحد فينا يسعد ويرتاح لما يلاقى مراته عملت طعامه بإيدها . دى ريحة الحاجات دى عندى أحلى من أجعص ريحة أو كولونيا .

وسعدت بكلماتى هذه ، ومالت قائلة :

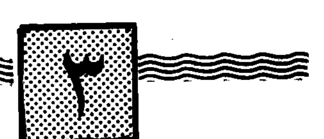
– كده ياروحى ، ولا يهمك ، كل يوم من دا إن شاء الله .

وليتنى لم أقل ذلك فقد كان مساء وكانت ليلة .






بارفان
ثوم
فلفل اسود



كنت قد أويت الى فراشي للقيلولة بعد أكلة السمك ( الميت ) على زعم زوجتى ، وكانت فترة القيلولة هذه عندى مقدسة لا أفرط فيها ، للراحة أولاً وأخيرا ، ولتجديد النشاط كما كان يؤكد ذلك لى والدى ، وكان جدى رحمه الله يقول لي : إن مع الطعام ثلاث حالات للجسم ، فمع الافطار يقول المثل « أفطر وأندر » ، ومع العشاء « إتعشى وإتمشى » أما مع الغذاء فـ « إتغد وإتمد » ، وله أحيانا قالة من الرجز هي « تغد ونم ولو على قرن غنم !»

ولعل هذه المعلومات كان لها أثرها فى الحرص من جانبى على النوم بعد الظهر ، أما عمى شقيق والدى وكانت له حلقة درس فى المسجد فقد كان يقول ويردد أثرا حفظه عن أساتذته مجمله : « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل » وترسب فى نفسى أن من لا يقيل فهو شيطان ، أو على الاقل فيه نزعة شيطانية .

ولعلى حرصت ألّا أكون شيطانًا ، أو فى القليل لا تكون عندى نزعة شيطانية فكنت أصر على أن أقيل ، ولعل هذا الاصرار من جانبى كان حجة عندى ضد نفسى التى تحاجُنى دائما فيما أنا فيه من المعاملة مع البشر فى سوق الذمم وحَرَاجِها ، أو لعله صورة من صور التعويض عن النقص إن صدق علماء علم النفس الحديث .

ولكن ، ماذا أعمل ، والفرص تطاردنى وتجرى خلفى ، فما إن أويت للقيلولة حتى إرتفع صرير الهاتف .. وعلى الطرف الآخر كان مدير الفرع يحرضنى على الحضور عاجلا إذ أنه تمكن من تليين قناة كانت متصلبة ضد مشاركتنا فى بازار الذمم ، وأن ذلك كلفه مبلغا متواضعا فى حدود المائة ألف ريال ، وحرص على الحضور قبيل مساء اليوم نفسه قبل أن تتسرب رائحة الصفقة .

ونسيت كل ما عُلِّمته من ضرورة القيلولة ، وأمسكت بالهاتف لأحجز على أول رحلة مغادرة ، وكانت بعد ساعة ، فشمرت عن ساعد النشاط ، فلقد غلبت

نفسى حُمَّى اللعب فى بورصة الذم وانتصرت النزعة الشيطانية . فأخرجت لسانها لنفسى التى طالبت بحقها فى الراحة مذكرة بالقول الكريم : « إن لنفسك عليك حقا » ووجدتنى أجيبها: « يا ستى إعتبرى هذا الحق برضه ضائع من جملة الحقوق الضائعة ، أو من جملة الحقوق التى يصعب الحصول عليها » ، وشعرت كأنها تبصق فى داخلى قرفا واحتقارا ، ولم أرد عليها فعلة الاحتقار هذه ، أولا ، لأنها خفية لم تظهر لأحد سواي ، وثانيا ربما لأننى أصبحت ميكيافيلليًا أكثر من ميكيافيللى نفسه .

وتركت الى المطار فى عجلة من أمرى ، فما كان لى أن أترك الفرصة وحمى الكسب - أيا كانت سبله - تنهش فى داخلى ، وفى تمام الخامسة والنصف كانت الطائرة تحط فى المطار ، ووجدت مدير الفرع فى انتظارى بسيارته الفارهة ، وقد ذللت الكثير من مراحل الخروج ، وكان محل رعاية خاصة لا تخفى على أحد ، الكل يحبه ، والكل يتسابق لخدمته كأنه ذو حيثية خطيرة ، ولعله أحس بالسؤال يدور فى نفسى ، أو وجده على صفحة وجهى فكان جوابه قول الشاعر :

أحســن الــى النـاس تستعبد قلــوبهم فطالما استعبد الانســان إحســان

« تـــرى هل استعبد قلــوبهم الى هذا المستوى ؟؟

كان سؤالى واضحاً ، وكان جوابه أكثر وضوحاً إذ قال :

- بطريق غير مباشر يعنى ، أقصد وصلت للقلوب عن طريق الجيوب .

- وضحكت قائلا :

- زي ما المثل بيقول أقرب طريق الى قلب الرجل بطنه ،»

فقال وبكل الوضوح الذى يصفه - الذين لا يعلمون - بأنه وقاحة قائلا :

- المثل اللى قلته سعادتك ينطبق على الزوجات فقط ، هم اللى يصلون الى القلب عن طريق البطن ، لكن رجال الأعمال اللى زي حالاتى يصلون عن طريق الجيب !

وأدركت أننى واياه تجمعنا أكثر من خلة .. ذلك أننا نلعب نفس اللعبة .

وفى المساء كان هناك حفل عشاء هو ما يسمى « عشاء عمل » ، وكانت البضاعة نفسها محل التكريم والعناية بل والرعاية الخاصة وما أكثر ما رددنا وكررنا عبارات النزاهة ، والكرامة ، والمثل العليا والأخلاقيات ، وسمعت ضحكة تجلجل فى داخلى ، عرفت أنها نفسى تسخر منى سخرية واحتقارا .. إذ أنها فى الداخل مطلعة

على ما أبطن فاذا هي تسخر مما تظهر ، ولعل السخرية كانت من القوة بحيث أنها نقلتني – للحظات – الى لحظة صدق ، فأخذت أنظر الى البضاعة التى نكرمها وكأننا نخاسون فى سوق النخاسة ، والبضاعة كأنها أمة أو جارية .

قضيت السهرة ، وبيعت البضاعة وأخذ السعاة سعيهم ، ولم أنس أن أضع مبلغا محترما تحت تصرف مدير الفرع فى بند المصاريف غير المنظورة لما قدم من خدمات وتشجيعا لخدمات منتظرة أو مألوفة !

وعرض صديقى مدير الفرع قضاء الليل هناك ، ولكنى أمنى النفس بالعودة ، فأخذت طائرة منتصف الليل ، وكانت الساعة منتصف الثالثة حين وصلت الدار مُمَنِّياً النفس بنوم عميق هادىء بعد يوم مجهد من العمل المتواصل والسفر المرهق .

لم أكد ألبس المنامة وألقى بجسدى المرهق على الفراش الوثير ، وما هى إلا ثوان حتى أخذتنى نوبة عنيفة من العطاس المتواصل مما أيقظ ربة البيت التى أسرعت لتطوقنى بذراعيها .. الأمر الذى أدى الى تضاعف الحالة ومضاعفتها ، فأسرعت تبحث عن زجاجة الكولونيا لتسكب منها فوق منديل ورقى لاستنشقه عسى أن يذهب ذلك بما أشكو منه . وهدأت نوبة العطاس نسبيا فلما عادت أم البنين واقتربت منى بعد إحضار زجاجة الكولونيا عاودتنى نوبة العطاس المتواصل ، وظننت أن لعل من الخير استدعاء جارنا الطبيب ، ولكن الله سلم ، أعنى سلمه ، وأسلمت جسمى لفراش وثير ووجه منير وخير وفير ، وتهيأت للنوم ، وتهيأت الصاحب بالجنب ، فعاودتنى حالة العطاس والغثيان ووجدتنى صائحا :

– إيه دا يا حبيبتى ؟؟ أحد يعمل كدا يا روحى ؟؟ طيب أنام كيف الليلة ، والليل راح والصبح قرّب ؟؟

وارتفع صوت الداعى يرفع الأذان الأول للفجر فتوقفنا عن المناقشة حتى إنقضى رفع النداء ، اقتربت منى كقطيطة تبحث عن الدفء .

– أعمل إيه يا روحى ؟؟ أنا متأسفة ، بس موأنت اللى قلت ؟؟ وأنا صدقت وعملت بما قلت ؟؟ عيبى أنى ما أقدر ما أصدقك يا حبيبى ؟؟

وانهارت مقاومتى كلها أمام جملتها الأخيرة ، فمددت يدا عاشقة غلفها الحب بحنان ، وجذبتها ، فاذا النوبة تعاودنى من عطاس :

– إيه الحكاية يا روحى ، إيه اللى أنا قلته وصدقتيه ؟ فهمينى إنت عملت كده

ليه ؟ أحد يتمرح ، ويرح جسمه كله بالثوم والفلفل الأسود ؟؟ لازم هادى وصفة خالتك ( أم جواهر ) كان !

- لا ، لا تظلم الناس ؟؟ وخصوصا خالتك جواهر هادى أولا ، خالتى جواهر مالها دخل ولا هى اللى قالت كده ، ثانيا هادا ما هو تمريخ بالثوم والفلفل الأسود ، دا ريحة ، بارفان ، وثالثا - وهو المهم - أن اللى قال لي على هادى الوصفة أنت يا روحى ؟؟

وهنا انهارت أعصابى أمام جملتها الأخيرة وما سبقها فصرخت فى داخلى ، وبهدوء اقتربت منها قائلا :

- **أفهم دى !! لازم أفهمها ، كيف ومتى وأين قلت لك اعملى برفان التوم !**

فتضاحكت فى دلال وإثارة غطت على مفعول التوم قائلة :

- انت ما قلت لى فى الظهر ، لما قمت علشان أحط ريحة وأغير ريحة إيدى من التوم ، **ما قلت لى ، وبعضمة لسانك هادى - وأخذت تقلد صوتى** « لا ياروحى ، دى ريحة إيدك والتوم فيها وريحة الاكل ، ألذ وأحسن عندى من أجعص وأغلى بارفان دى فرحة الراجل فينا لما يأكل من إيد مراته ، وتبقى ريحة إيدها عنده أجمل ريحة ».

وضحكت ، لست أدرى ، إشفاقا على نفسى وما أجنى ، أم على حسن نية هذه الانسانة البريئة الحلوة . وسبحت، فى دوامة من التصورات ، ماذا عساها فعلت ، وجاءنى صوتها العذب يدغدغ مسمعى ومراكز السمع والحس فى داخلى :

- بس وعنّها ، إنت سافرت من هنا ، جاتنى الفكرة الهايلة . مادام انت بتحب كده ، أنا لازم أحب كده وأكثر ، رحت فى المكينة عملت عصير التوم والبصل وشوية ، يعنى كده درة فلفل أسود وخففتها بالليمون المعصور ، وعنها رحت فضيت واحدة من قوارير الريحة البخاخ ، ومليتها بيها ، ولما قرّب ميعاد حبيبى وقلت أقابله رحت بخيت منها كم بخة فى الأوضة ، وحطيت منها كان على جسمى !

وأردت أن أصرخ ، ولكن الحمد لله ارتفع صوت الداعى لصلاة الفجر ، فحسم الخلاف ، فهذا يوم جديد ، تعودنا دائما أن نبدأه ببسمة ، وحب ، وماكان لنا أن نغير هذه العادة أو هذه النغمة ، وبعد أداء المكتوبة ، قبل أحدنا الآخر وأوينا لنوم عميق .

وفى الثامنة أيقظتنى كي أدرك العمل ، وبعد إحضار الافطار ، نظرت بحنان وهى تسكب الحليب فى كأسى ، قائلة - بعد أن سبقت بضحكة :

- تعرف أنا حلمت حلم مضحك شويه .. حلمت إننا بنفطر فتة مقادم .

ولم أنتظر أن تكمل حلمها خشية استطراد مسألة بارفان التوم والكل يعلم ما يصاحب فتة المقادم ، فقفزت بعد ازدراد آخر لقمة فى فمى قائلا :

- إلى لقاء يا روحى وخليكى مع الفتة !!







# ٤

شعور جميل أحس به الليلة ولم أكن أظن أن نفسى تستطيع ممارسة هذا النوع من المشاعر الجميلة والاحساس بالسعادة ، فلقد عهدتها – نفسى – قد طلقت الشعور والإحساس بالسعادة ، منذ أخذت اسلك بها طريق السباق الجنونى الى حد السعار فى مواكب الانغماس المادى .

وعجبت لنفسى وما تشعر به ، فلقد عهدتها نفرت منى ، ولما وجدت أنها لا تستطيع – أو لا تملك – الا أن تتعايش مع الواقع الجديد الذى قسرتها على سلوكه ، أصبحت بين اونة وأخرى تقذف بمشاعر القرف والاحتقار لشخصى ، أجده وألمسه فى تجاويفى الداخلية وكنت قد ركبت رأسى وسلكت مسالك العناد معها ، وفى سبيل التغلب على سيل القرف والاحتقار الداخلى كنت أبتاع السعادة ، وأبتاع الأحاسيس الجميلة ، كنت ابتاعها فى صور كثيرة ، وأشكال مختلفة .

فلقد كنت أبتاعها فى صورة كلمات تدغدغ مشاعرى تسكبها فى مسامعى بطانتى المحيطة بى .. يتغنون بعبقريتى ، ويثنون على لباقتى ويُجَسِّدُونَ لى حسن تصرفى وكانت كلماتهم هذه ترضينى وتدغدغ مشاعرى رغم علمى أن ما صوروه لى من لباقة أو عبقرية ، أو تصرف حسن ، إنما هو فى واقع الامر ثناء وتبريك لسوء أعمال وقبيح تصرفاتٍ لو وزنت الأمور بموازين الشرف والخلق ، ولكن هذه الأخيرة لم تعد تعطى مردوداً ذا قيمة فى حلبة السباق التى نعيشها .

ولست أدرى هل تشعر بطانتى هذه بما أشعر ... بل فى القليل ، هل يشعرون نحوى بمثل ماأشعر به نحوهم ؟؟

فى بعض ساعات الصحو الوجدانى عندى – على قلة ذلك وندرته – أشعر أنهم إنما يقضون مآربهم وحاجاتهم عندى وأغراضهم ، مقدمين ثمن ذلك بضاعة لاتكلفهم شيئا ، هى النفاق ، فهم ينافقون عندى ويحسّنون لى السيىء من الفعال ،

ويرضينى ذلك فأنساق واستمرىء ماأنا فيه ، فإذا وصلت الى هذه الحقيقة ، أجدنى أفيض عليهم - مما أفاضت على نفسى - من الاحتقار والشعور بالقرف وأقاسمهم وأشاطرهم الاحتقار ، ولاأُبْدِيهِ لهم خشية أن ينفضوا من حولى ولاأملك الاستغناء عنهم ، فلقد أدمنت السوء ، ويرهقنى ما تفيض به نفسى من الاحتقار ، فأجد عندهم الترياق !

لعلى أستطردت كثيرا ، ولكننى اليوم فعلا ألمس مشاعر جمالية .. وأحاسيس بالسعادة تغمرنى ، وان شئت فإننى أدعوها شعوراً بالرضى ، ولكن لماذا .. وكيف حدث ذلك ؟؟

حسنا لنبدأ القصة من أولها :

على مائدة الطعام ونحن نتناول طعام الغداء قالت الحبيبة :

-يا بومحيسن ، ما تشوف إن الوقت طال ، واحنا مازرنا الوالد والوالدة ، إيش رأيك لو أجازة نصف السنة هذى نسافر فيها عند أهلك ؟؟ ترى العيال اشتاقوا لجدهم .. وبينى وبينك ، الوالد ياكُثر ماسأل عن الأولاد ، وصوته والله يمكن يتهدج ويتهيأ لى انه يبكى . ترى عندنا مثل يقول : ماأعز من الولد إلا ولد الولد .

كان هذا الحديث قبل أسبوع مضى ، وماأن حلت الاجازة . حتى كنا وصغيرانا ( محيسن وهالة ) نأخذ الطائرة فى طريقنا لقضاء الاجازة مع والدى ووالدتى .

ولقد لقيت من العتاب أشده وأمرَّهَ من والدتى لإهمالى زيارتهم ، أو فى القليل التحدث اليهم تلفونيا ، ولقد أمعنت الوالدة فى عتابها :

- ياولدى ، طيب على الأقل أرسل العيال وامهم ولو كل شهر أو شهرين مرة ، انت عارف أبوك ما هو حِمْلِ السفر ، وانت أخذتك الدنيا وتجارتك وعملك عن أمك وأبوك . والله لولا بنت الناس بتسأل علينا بالتلفون كان ...

- لا ياخالتى أنا بنتكم إنتم ، إنت عارفة أنا مقطوعة من شجرة . أبويا وأمى الله يرحمهم من زمان ، وأنا وحيدتهم ، ما عاد لى فى الدنيا الا أولادى وأبوهم ، وانتى وعمى أمى وأبويا ، بس أبو محيسن مدووش والشغل آخذه ، وآهه .

وحسم النقاش صوت الوالد يدعونا للعشاء وقد تعلقت برقبته حفيدته هالة ، وأخذ بيده حفيده محيسن .

وقبيل انقضاء السهرة عند منتصف الليل أخذت أم البنين تتلوى من ألم مفاجىء ومغص صحبه إسهال متوال ، وفرغت جعبة الوالد من العلاج العشبى الذى لم يأت بفائدة مرجوة ، وهنا شَمَّرَتْ الوالدة عن ساعد الجد وأسرعت تشعل الفحم فى منقلة القهوة ، والموضوعة بصحن الدار ، ولم أفهم – بادىء الأمر – ما تُبَيِّتُهُ الوالدة حتى إذا اتقد الفحم وأصبح نارا ، أحضرت سكينا طويلة غمستها فى النار .

وعلمت أنها عزمت على الكى ، وما كان لى أن أوافق على ذلك لعدة أسباب ، أولها : أنى أرفض هذه الممارسة البدائية ، وقد أعطينا العلم والطب يمارسه أطباء دارسون ومتخرجون من جامعات معترف بها ولها ، وما كان لى أن احتمل مجرد فكرة أن تمس النار جسد الحبيبة ، أم البنين ، ذلك أن حبى لها يعطينى القدرة على أن أتحمل عنها كل ما يسوء ، ذلك أن حبى لها .. هذا الحب العظيم له ما يبرره .

وحلت دون والدتى وما أزمعت على تنفيذه ، وأقنعتها بأن الطب الحديث كفيل بمساعدتنا ، ولم تقتنع إلا بعد لأى وبعد أن أعطيتها موثقا أنه اذا فشل الطبيب لجأنا لعلاجها مستعينين بالقول المأثور « آخر الدواء الكى » وعند هذا رضيت ، وسألت الوالد عن اسم طبيب فى الحى مجاور ، وتذكرت صديقا لى فأمسكت بالهاتف أطلبه وعرفت أنه ترك – مع أهله – لقضاء إجازة نصف السنة مع أهل زوجته كما تقضيها زوجتى مع أهل زوجها .

وذكر أحد الجيرة اسم طبيب أثنى عليه الجميع وكان الثناء كله منصبا على خلقه وتديُّنِهِ وحيائه وغض بصره ، ولم يذكر أحد علمه أو طبه بخير ، وتطوع أحدهم بإحضاره فى عربته وجلست بجوار زوجتى الحبيبة وهى تكاتم ألمها خشية أن يؤلمنى ما تشكو منه .

وانتظرنا غير بعيد ، ثم حضر الطبيب ، بادى الوقار كث اللحية ، حليق الشارب تفوح رائحة الطيب منه ممسكا بحقيبة الإسعاف ، ألقى علينا السلام والرحمة والتبريك ، ثم أردف مستفسرا ثم مصليا على النبى ، وفى لغة عربية فصحى سأل :

– اين المريضـــة شفاها الله ؟ فلما قدمتها له بدأ بسم الله ثم مال على أذنى هامسا – بصوت مسموع للكل – : لو أمكن أن تستروا شعرها ورأسها بغطاء فما يكون لى ولا لغير محرم أن يرى منها ذلك .

وسرت همهمة بين الحضور من كبار السن فى العائلة عرفت أنها همهمة إعجاب وتقدير . ووقع فى نفسى منه نفور أو توجس ، ولكن لم يكن هناك مجال للأخذ

والرد ، فالمريضة تتلوى ألما ، ووالدتى فى الطرف القصى تخرج لسانها وتشير بيدها علامة عدم القناعة كأنها تقول : « خرطى » !

وأخذت أشرح للطبيب مرضها المفاجىء وأعطيه تفاصيل ما تناولت من طعام وشراب وهو يصغى أو هكذا خيل الى ، وسمعت صوتا فى داخلى ، هو صوت نفسى يقول : هذا ، ندٌّ لك ، أو هو على شاكلتك » ورفضت أن أوافق نفسى أننى وإياه على شاكلة واحدة حتى يتبين الأمر .

والتفت الطبيب قبل أن يبدأ الكشف ، وقد جهز جهاز الضغط وقياسه ، وأخرج السماعة ودلاها على صدره معلقا طرفيها فوق رقبته ، ونادى على والدتى لتحضر ملاءة بيضاء كبيرة ليستر المريضة ويغطيها من إخمص قدميها حتى عنقها وقد سبق أن ستر رأسها وشعرها .

وسرت همهمة الإعجاب والتقدير بين الحاضرين ولكن الصوت فى داخلى قال : « لا تعجب فلكل فى سوقه وسائله وأسلحته ، عش رجبا ترى عجبا » :

فلما اطمأن إلى أن المريضة غدت مستورة تماما على الذى أحسن ، أمسك بوسائله العلمية للكشف عليها ، ثم استدار موجها الحديث لمن اطمأن الى سهولة التأثير عليهم تحت تأثير مطلق العقيدة فى الله وقدراته والاطمئنان للتوجه اليه عند المُلِمَّات ، وأشاح – أو ابتعد بوجهه عنى – قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وقبل أن أباشر الكشف دعونا نتوجه الى الله ليساعدنى ويرشدنى الى التشخيص الصحيح » ورفعت الأكف للدعاء إلا يدى ووالدتى ، ولم يلتفت الطبيب لسلبيتى تجاهه .

وأخرج جهاز قياس الضغط ولف حول ذراعها – والملاءة تحول دون لمس الذراع – طرف الجهاز الخاص بذلك ثم وضع سماعته فى أذنيه ومجسها على الذراع من فوق الملاءة البيضاء .

وتأكدت أننى أمام متاجرة بأخلاقيات البسطاء ، وأننى أمام مشعوذ محترف ولكن بمؤهل جامعى ، أى اننى أمام مشعوذ يباشر الدجل بطريقة علمية .

وجال فى نفسى سـؤال متخابث ، ووجدتنى أسأل الطبيب :

– هل أنت متوضىء يادكتور ؟؟

ولعله فوجىء بسؤالى ولكن فى جعبة الحاوى أكثر من سهم ، فقال – بعد أن نظر الى مليا :

- نعم والحمد لله ، أصل الوضوء سـلاح المؤمن ، لكن بتسألنى ليه ؟؟
فأجبته :

- أصلى شايف الوضع يستدعى أن تكون متوضئا أو على طهارة على الأقل ، حسبما أنا شايف من حرصك الإيمانى ، وتصرفاتك اللى كلها تديّن وحفاظ على كل صغيرة وكبيرة .

فضحك ضحكة صفراء بلحيته الكثة قائلا :

- أصلى حينما جاء الشيخ صويلح يطلبني للاسعاف ، أنا كنت باستعد لصلاة الوتر ، وطبعا أجلتها لأن الواجب الإنسانى يأتى قبل النافلة .

وعلمت اننى أمام ممارس فى الدجل العقائدى ، لا يُشَقُّ له غبار ، والتفتُّ للوالدة كأنما أسألها الرأى ، فوجدتها تفيض قرفا وهمست فى أذنى قائلة :

- أتركنى عليه أغمس السكين الحامية من النار فى لسانه ها لكذاب .

وعجبت للموقفين المتناقضين بين موقف أبى مؤيدا وسعيدا بما يرى ، ووالدتى وموقفها الواضح فى رغبتها غمس السكين فى رقبة الطبيب .

وواصل الطبيب الكشف بالسماعة على القلب والصَّدر وكل ذلك من فوق الملاءة ، وواصلت المريضة تألمها ، ولم تستطع كبح حركة أمعائها فأسهلت مليئا ، والقت ما فى معدتها عن طريق فمها ، وكان لوجه الطبيب النصيب الأكبر من محتويات القيء وجاء صوت والدتى فرحا .

- زيديه مما عندك يابنت الأجواد .

واستبقت الباب خلف زوجتى إلى الحمام ، ونهض المشعوذ متأففا لم يخف ضيقه وتأففه ، وأخذت بيده الى الحجرة المجاورة ، وطلبت منه أن يخلع قميصه وما اتسخ من ملابسه لتنظيفها عاجلا وألبسته ثوبا حتى تنجز المهمة ، وقدته الى الحمام لينظف ما علق بوجهه ويديه وأطرافه .

ورأيت أن أخفف عنه ، فسلكت معه مسلكه ، وسقت له من نفسى الروْىِ والقافية ، فقلت له :

- أحمد الله على ماأصابك ، وما أعطاك . أظن الله أعطاك ماتستحق .

وهنا قطع غسيل وجهه ويديه والتفت الى فى حنق قائلا :

– ايه حكايتك يا أخ ، انت بتعاملنى كده ليه ، أنا عملت فيك حاجة .. ثم انت مين حضرتك بالنسبة للجماعة دول . أنا أعرفهم وطبيبهم من زمان ؟؟

– فأجبته :

– تعرف تلعب باصرة ؟ أهى الحالة دى باصرة .

– مانى فاهم حاجة .

قالها بلهجة حادة . وبكل هدوء الأعصاب وجدتنى أقول له :

– الورق اللى عندى هو عندك ، يعنى احنا بنلعب بنفس الورق ، ولعلم حضرتك أنا زوج المريضة اللى أتحفتك ،تقدر تقول لى سيادتك ليه عملت كده؟؟

– عملت ايه انا غلط ؟؟ حضرتك شايف إنى غلط فى حاجة ؟

وأخذت لهجته تأخذ نبرة الباحث عن مصالحة أو مساومة .

– شوف ياحضرة .. أنا أول مرة فى حياتى أشوف طبيب يكشف على مريض من وراء حجاب ، أنا أعرف السماعة لازم مجسها يكون على اللحم مباشرة ، كده ويالله السلامة علشان تقدر تسمع دقات القلب ، صحيح والا أنا غلطان ؟؟

وعاودته روح المكابرة فأجاب بسؤال :

– لامؤاخذة ، انت حضرتك بتفهم فى الطب ؟؟

ولعله اراد أن يغمز من قناتى ، أو يلمزنى فى التروة .. اذ استطرد قائلا :

– والا الفلوس ممكن تخلى الواحد يتكلم فى الطب كمان ، الفلوس ياحضرة ممكن تشترى بها أى حاجة إلا العلم ،وإلا الطب ..

ولم أتركه يستطرد ، وفاجأته بغير الحق ، ولكن بين النصابين ، كل شيء – غير الصدق – مباح ، فقلت له :

– لعلم حضرتك أنا طبيب باطنى ، ومتخرج من نفس الجامعة ونفس الكلية ونفس البلد اللى سعادتك قادم منها وواخد منها مؤهلك العلمى .. بس لما لقيت إن مهنة الطب ماتقدر تشبع تطلعاتى ، ولا تروى ظمأى وطموحاتى – أو بصراحة طمعى – تركت المهنة ونزلت السوق برأسمال غير رأسمال مهنة الطب ، علشان مهنة الطب رأس مالها الشرف والطهارة فى كلى شيء ، وميدان السباق المادى اللى احنا فيه ، يبغى رأسمال حر ، قصدى حر التصرف ، مرن ، يعنى من غير معوقات ، ولا يخفى عليك – وانت من العارفين – أن الاخلاقيات ، والمثاليات ، كلها دى

تعتبر من المعوقات فى حركة السباق ، علشان كده ، أنا شخصيا لما اخترت المجال دا لحياتى ، اخترت أنى أترك المعوقات دى جانبا ولا أجعل لها مكانًا فى تعاملى . فاهمنى ياحضرة الدكتور ؟؟ صدقنى انت أخطأت الطريق ، أو أخطأت الوسيلة !

ولعله فوجىء بهجومى هذا ، ولعله أراد المكابرة والاستمرارية حين قال :

– أنا مانى فاهم حاجة ، ايه سبب ثورتك دى ، ثم ما تقدر تنكر أن الدين المعاملة ، وأنا ما عملت غير كدة .

ووجدتنى ، أكاد افترسه أو أمزقه حين صرخت فيه قائلا :

– يادكتور ، إنت حضرتك اتخذت من الدين وسيلة تتوسل بها لتكوين اسم وتكوين ثروة ، يعنى بصراحة كده ، الدين ماهو غاية عندك ، انما وسيلة ، ودى المصيبة الكبرى ، انك لبست ملابس الدين ، واكتسيت بمظاهر الديـن والتديـن علشان تحقق هوى فى نفسك ، يعنى جعلت من الدين قميص عثمان ، ولبسته ، الناس الطيبين انخدعوا فى مظهرك ، يعنى انت كسبت ثقتهم باستخدامك اسم الله ودين الله ، ودى آخر حقارة ، وآخر نذالة .

أنا صحيح منحرف ، وسلكت فى أعمالى مسالك منحرفة ، ومشبوهة ، لكن عمرى ما دنست الدين والعقيدة وعمرى ما أخذت حاجة مستغلا اسم الله ودين الله .. بالعكس ، كل اللى أخذته أنا كنت باستغل ضعف نفوس البشرية أمام حوافز الغنى ، أمام حوافز الغواية ، صحيح كنت أخدم الفلوس ، وأخدم النفوس كمان حتى أصل ، لكن أنى اتخذ اسم الله ودين الله وسيلة ، زى ما إنت عامل لا .

– اسمع ، خذها نصيحة منى ، أبداً لا تجعل الدين مطيتك للدنيا ، تبغى دنيا ، اسلك طريقنا وربك غفور وكلها حقوق بين عباده ، انما تستخدم الدين وتضحك على الناس باسم الدين ومظاهره ، يعنى كأنك سخرت اسم ربك فى أعمال وسخة ، ودى آخرتها أسوأ آخرة ، إسألنى أنا ، شيىء شايفينه ، وشيىء مجربينه و ...

وهنا ارتفع صوت زوجتى فى صرخة ألم رهيب ، فتركت لص الدين فى الحجرة وهرعت لأستبين الأمر ، فوجدت والدتى فى نشوة انتصارها ممسكة بالسكين المحماة بعد أن أطفأت حرارتها فى كعب قدم أم البنين التى كانت تقفز ممسكة بكعبها وقد انحنت مقربة فمها منه لتطفىء ما تجد من حر الكى .

وأسلمت الطبيب ملابسه بعد تنظيفها ، ولكنه كان يسأل عن أسباب الصرحة الرهيبة ، فأجبته أنها صرخة الشفاء ، فقد عوفيت زوجتى مذكرا إياه بأننا أخذنا الأمور بالحزم وأن والدتى حسمت الأمز وأن آخر الدواء الكى .

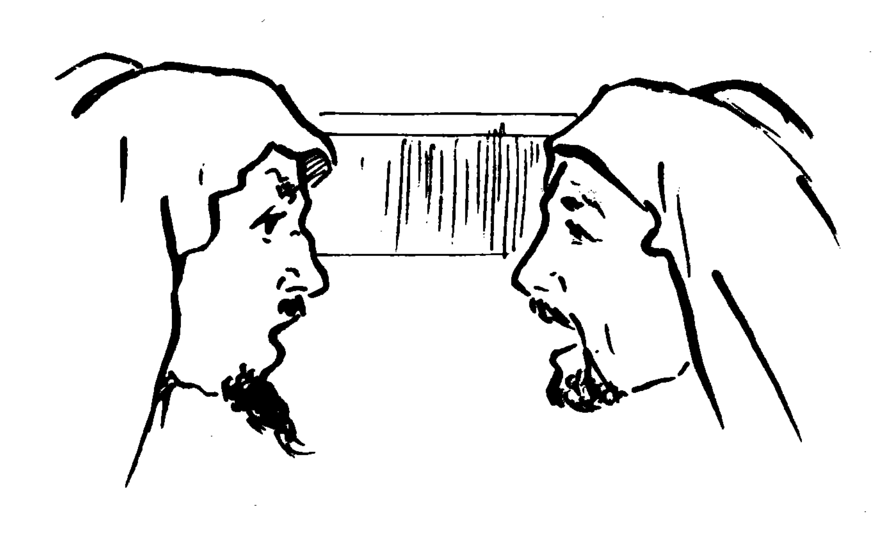
وانصرف لص الدين الطبيب لحاله ، وفارق المرض أم العيال ، واطمأنت نفسى .

وهكذا شعرت – لأول مرة منذ زمن بعيد – بهذا الشعور بالسعادة والمشاعر الجميلة والأحاسيس ، ذلك أننى وجدت من هو أسوأ منى وأكثر حقارة ، وساورنى شعور بالرضى عما أفعل ، ذلك أن ما فعله إنما هو استغلال لنوازع بشرية وغرائز بشرية رضى أصحابها باستغلالها أو هم عرضوها فى سوق النخاسة فأنا خير من لص الدين هذا ورهطه .

ألا يكفى ذلك مبررا لشعورى بالسعادة والأحاسيس الجميلة ؟؟ قليل جدا من يدرك ما أقول ، وكثيرون جدا يوافقوننى على ما أقول .









مازال أبى غير راض عن تصرفى البارحة مع الطبيب ، ويظن والدى أننى أسأت الى الطبيب وأن ذلك لايتفق والخلق السليم ، خاصة وأن الرجل داخل البيت .

وحاولت أن أشرح لوالدى أن الرجل أخطأ ، وما كدت ألفظ هذه الكلمة حتى وقف ثائرا .

– هو أخطأ ؟ كيف ؟ أبدا ما أخطأ أنت اللى أخطيت عليه وهمزته وغمزته ، هو اجتهد ، وماطلع بإيده .

ووجدت من الصعب على أن أقنع الوالد بوجهة نظرى ، وأنا أعلم أنه لا يزال متمسكا بايجابيات خلق القرية ، والتى تزعم أن من دخل دارك فهو فى حرم وهو آمن حتى ولو كان قاتل أبيك .

ولم أجد بداً من أن أصمت على مضض ، رغم عدم قناعتى – فى هذا الموقف بالذات – بحكمة الصمت ، واستطرد والدى قائلا :

– يا ولدى ، لا تنس إن هذا دكتور ، طبيب ، والطبيب إنسان أمين على المحارم ، ولا تنس الشاعر يوم يقول :

ان المعلم والطبيب كلاهما    لا يخلصان إذا هما لم يُكْرَمَا

وأردت أن أمتص غضب الوالد فقلت له :

– يُبا ترى هذا الشاعر اللى قال هذا البيت من الشعر كان مدرس ، وأخوه كان طبيب ، علشان كده قال هذا الشعر علشان اللى يفهمونه يعملون به .

– ويش قصدك يعنى ؟

قالها والدى ولعله أدرك ما أعنى ، أو هكذا خيل إلى . واستطرد :

– ويش قصدك ، وضح من فضلك ، ثم من علمك أن قايل الشعر هذا يدرس ؟

وضحكت ، وأقبلت والدتى على صوت والدى الذى ارتفع فى حدة النقاش ، وقلت له :

– المسألة ما تحتاج الى من يقول لى ، المقدمات تدل على النتائج ، من المؤكد أن قايل البيت مدرس ، لأنه ربط الإخلاص بالإكرام ، والإكرام زى ما أنا عارف يعنى قرابصه .

– الله يلعن القرابصه وماجابت .

قالها والدى وهو يضرب كفا بكف حسرة وأسفا :

– انت ياولدى خلاص مخك أصبح ملتاث ، لاثته القروش وأصبحت توزن كل الأمور بميزان القروش ، ياحسافة عليك كم تغيرت ، نسيت كل القيم ، ونسيت مانشأنا عليه من احترام الدار وحقوقها ومن دخل فيها .

وأدركت أنه يشير مرة أخرى الى موضوع الطبيب ، وشعرت أن لا بد من حسم الأمر ، وتوضيح موقفى الآن ، وإلا فإن أخلاقياتى ستكون محل شك عند والدى ووجدتنى أقترب منه قائلا :

– يبا ، عسى الله يحييك ، المسألة ما هى كما تصورتها طال عمرك ، المسألة إن الطبيب هذا ياطويل العمر استغل العاطفة الدينية عندنا ، يعنى أن المسألة الدينية ما هى الهدف ، إنما اتخذها وسيلة .

– ويش قصدك يعنى ؟ وضح .

قالها والدى بحدة وهو يعبث بشعيرات لحيته وقد بدا وكأنه يقبل منى القول ، أو كأن الرؤيا أخذت تتضح أمامه ، ورأيت أن أستغل الفرصة فاستطردت قائلا :

– يعنى قصدى أقول إن الرجل جعل من المسألة العقائدية وسيلة استخدمها ليصل بها إلى هدفه ، والهدف هو أن يكسب ثقة الناس البسطاء .

وأظننى أخطأت هنا خطأ جسيما بقولى الناس البسطاء .. إذ شعرت أن هذه الكلمة جرحت أبى ، فما كان له أن يكون من البسطاء – فى رأيه – لاحظت ذلك من صفحة وجه أبى فاستطردت قائلا :

– وحضرته أصبحت الحكاية دى عنده عادة ، فأصبح يطبقها حتى مع الناس المفتحين ، وهذا اللى عمله البارحة ، يعنى هو كان فاكر نفسه إنه يمكن يمشى طريقته دى عليك وعليا ..؟

– لكن ممكن تقول لى هو إيش عمل وكيف غلط ؟ ترى أنا ما أخذت بالى .

قال ذلك والدى وهو يعبث فى شعر لحيته دلالة على إنهماكه فى التفكير ، ورغبت أن أستغل هذه نقطة لصالحى :

– شـــوف ياطويل العمر .

وكان والدى يسعده جدا أن ادْعوه كذلك بكلمة ياطويل العمر ، ومال بوجهه ناحيتى دلالة على التركيز ، وكنت أنتظر أى مفاجأة أو تدخل من أحد ليضع حدا لهذا النقاش بين أبى وبينى .. وكنت أعلم ان حجتى – مهما قويت – فهى عند أبى داحضة لأنه ينظر الى نظرته إلى وليده الذى لا يزال صغيرا .

واستطردت قائلا :

– انت تعرف طال عمرك إن الله سبحانه وتعالى نهى عن استعمال اسمه فى الحصول على منافع دنيوية خاصة ، صح والا لا ؟

– صح بلا شك .

كان جوابه ، وقد انطلق من أعماقه دلالة على عمق تركيزه ، فرأيت أن أضرب على هذه النغمة قائلا :

– ونهى سبحانه وتعالى عن الغش عموما وخاصة غش المسلمين صح والا لا ؟

– صح ، بس ويش تريد توصل له قل لى ياولدى ؟

– هالحين ياأبى أنت ترضى تأخذ الحين الحليب مغشوش وانت عالم انه مغشوش ؟؟

– لاأبداً ماأرضى ، ولاأتعامل مع الغاش .

– زين .. ولو فرض إنك أخذته مغشوش ، هل تقدر تفصل الماء عن اللبن بعد ماغشه ؟

– طبعا لا . أقول ..

وصرخ أبى فى وجهى مستطردا :

– تراك دوشتنى فضها كلمة ، خلاص قلت لك الحليب إذا خلطته بالماء مايمكن ولاأحد إنه يفصله عاد ، وايش عندك ؟؟

وهنا أمسكت بالقضية قائلا :

– هذا اللى أنا أخافه ، ياطويل العمر الرجل استخدم الدين وسيلة ليصل إلى غاية ، مع أن الدين هو ذات نفسه غاية .. يعنى جعل من الدين قميص عثمان ولبس هذا القميص ليأخذ ماليس له . يعنى إنه خلط الدين بغاية دنيوية ، ومصدر غضبى هو خوفى أنه لو استمرت الأمور على هذا الوضع ، وكل يصل الى مآربه متخذاً الدين وسيلة ، بكره يختلط الأمر على البشر ويصبحون مايدرون عن منهج الدين إلا كونه وسيلة ويصبحون تماما مثل شـارى الحليب ما يدرى انه مغشـوش .

وهنا انتهت قدراتى على المناقشة وعلى محاولاتى فى تبرير موقفى ، وبدا على والدى أنه أوشك أن يقتنع أو كادِ ، وأن لا بد من المزيد من المنطق ولا أجد عندى مزيدا . وأنقذنى أن والدتى صبرها قد نفد وهى تسمع لى ولأبى فترة طويلة فارتفع صوتها عاليا :

– فُضُّوها سيرة ياهو ، المريضة والحمد لله شافاها الله ، وأنا اللى طَبَّبْتَهَا وكويتها ، ودكتوركم أخذ نصيبه والمقسوم له على وجهه وعلى حوايجه ، يالله فضوها سيرة .

– خلاص يا أمى خلاص .

وكنت قد قفزت أكاد أقبل فاها إذ أنقذتنى من مرير عتاب والدى :

– بس أنا كنت أحاول أبرر لوالدى موقفى .

– قلت خلاص يعنى خلاص ، ثم إنت ايش سويت ، قسما عظما إن الراجل ماهو دكتور ولايعرف فى الطب ، ولو كان واثق من نفسه كان قدم البسملة والاستعاذة ، لكن كده يطول الشرح ، لا ، لا ، هذا نصاب باسم الدين . المهم خلاص ، يالله انتو نسيتو والا ايه ؟

– نسينا ايه ؟

تساءل والدى .

– لاه ، انت خرفت وقربت تدخل الديوان .

أجابت والدتى والدى بلهجتها الحجازيةالتى مازالت محتفظة بها رغم مرور ثلث قرن عليها قرينة لوالدى قضت منها سبعا بالحجاز حين كان والدى يعمل موظفا حكوميا حيث أَعْرَسَ وبنى بها ثم رافقته رحلة العمر ترتحل معه الى حائل ، ثم القصيم حتى استقر بها المقام فى خريف العمر ، وكثيرا ما كنت أغمز من قناتها مداعبا حين تحاول أن تدخل فى مناقشة مع أبى ، فهى قد أجادت الحديث بلهجة المنطقة الوسطى

الى حد بعيد ، ولكن تخونها لهجتها إذا ما احتد النقاش فتصبح خليطا بين هذه وتلك .

وضحك أبى لقالتها وامتدت ذراعه لتربت فى حنان وحب على كتفها الأيسر وقد جذبها إليه فبدت قصيرة بجانب طوله الفارع .. ثم انحنى كثيرا حتى لقد حسبته يوشك أن يقبل رأسها وقال :

– أنا دخلت الديوان ؟؟ والله مادخله غيرك ، انت دخلت الديوان والقاعة بعد ، ها ويش عندك ، ويش السالفة ؟

– ولا سالفة ولا خالفة .

قالتها والدتى ، وقد مالت برأسها على صدر أبى ، وبراحة يسراها ربتت على صدره فى حنان مجسد حتى لقد حسدتهما على هذه المشاعر ، وقفز إلى ذهنى سؤال تحيرت فى الإجابة عليه : ترى ما السر فيما أرى ؟؟ وهل تخفق القلوب بالحب فى خريف العمر وخاصة بين زوجين ؟؟ هذا السؤال أفرز أسئلة عديدة عن الحب الزوجى وأسرار عمارته لدى من سبقونا ، بعكس ما نعيشه نحن الجيل الصاعد فى زعمنا .

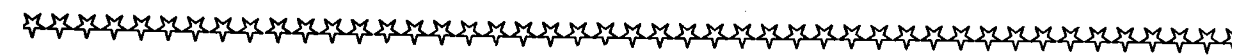
استطردت كثيرا ، أو سرحت كثيرا ، حتى لقد كدت أنسى قالة أمى لأبى :

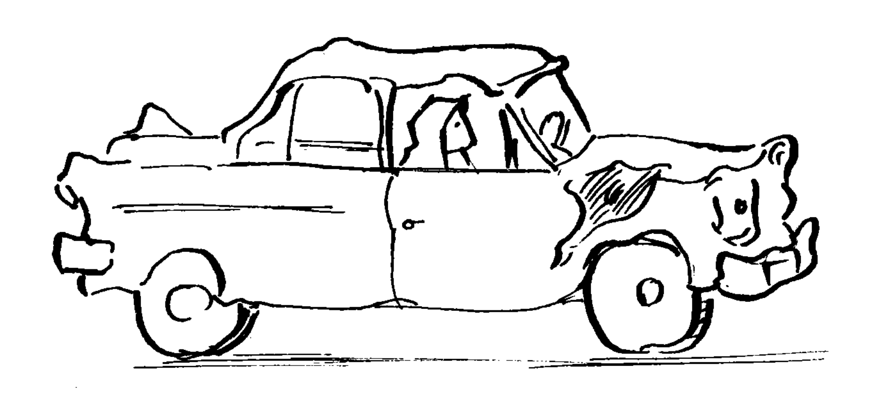
– إنتو نسيتو إننا معزومين عند أخوك ( أبو سحيم ) فى المزرعة نقضى يومين هناك ، وهو محترينا اليوم على الغداء .

تطلع أبى الى ساعته وقد أخرجها من جيب صديريته ثم قال : على الغداء اليوم ؟؟ ليش ما قلتى من بدرى علشان نزهب حالنا ؟؟

– كل شىء والم واهب .. قالتها أمى بلهجة الواثق متطلعة إلى أبى واستطردت : بس انتم حضروا السيارة وبسم الله .







# ٦

فى أقل من نصف ساعة كنا متوجهين الى مزرعة عمى شقيق والدى ، حيث لديه مزرعة كبيرة للدواجن ، وأكبر منها لمنتجات الألبان من البقر ولتهجين سلالات جديدة ، فقد استورد من أوربا ألف رأس من البقر الحلوب .

كان والدى يقود سيارته وبجواره حفيداه والوالدة فى الداخل وأم محيسن بجوارى فى سيارتى ، وكانت سيارة الوالد تتقدمنا ، ونحن سعداء بقضاء يومين فى المزرعة .

والتفتُّ لصاحبتى أتفحصها فى نوبة شوق مفاجىء .. ربما أنشأه الجو الربيعى الساحر لأرض نجد ، فوجدتها مستغرقة – أو هكذا ظننت أو خيل إلى – فى تفكير عميق ، وأقلقنى ذلك ، فلم أتعود منها – طيلة حياتنا – التفكير ، مجرد التفكير ، فضلا عن أن يكون عميقا ، وعجبت ، أى أمر يشغلها لدرجة تحملها على أن تتعاطى عملية التفكير ، ورأيت أن أداعبها قائلا :

– إيه ، نص الألف خمسمية .

وهو التعبير يستعمله مواطنو المنطقة الغربية لانتشال الآخرين من عمق تفكيرهم ، فأبعدت سبابتها عن ثناياها التى كانت تعض بها عليها ، وتنهدت آهة حرى ثم قالت :

– تعرف أن الجميع هذا لازم غنى كثير ، وصاحب ملايين غير معدودة .

ودهشت للمفاجأة ، ولم أدر من تقصد أو ماذا ، وأردت ان استدرجها قائلا :

– سبحان العاطى ، المثل بيقول العاطى باق والرزاق كريم . وحسبت أننى أخطأت السمع اذ اتجه الخاطر لشخص بذاته من أباطرة المال .

– هل تعــرفه ؟؟ أعنى لا بد أن هناك علاقة معه باعتباركم من أصحاب المال .

قالت ذلك فى عفوية عجيبة ، والعجب أنها لأول مرة تضعنى فى مصاف أصحاب المال .. لعله حسن ظن منها،أو لعلى وجدت ذلك مؤشرا جديدا فى حديثها فأردت إجهاض مايحتمل أن ترمى إليه بهذا المؤشر فقلت لها :

– وين كابل ووين بغداد ، أنا فين وهو فين ، يابنت الناس أنا صحيح مليونير ، بس يعنى مليونير فقير ، لاتفتكرى إنى من المليونيرية اياهم .

ونظرت اليها ، فإذا حدقتاها قد اتسعتا ، وهبط فكها الأسفل فى حالة اندهاش عظيم وظلت عيناها متعلقتين بشفتىَّ وتمشطان صفحات وجهى ، وعجبت ، بل انزعجت فساءلتها :

– خير ؟؟ ويش فيه ؟؟ ويش حصل ؟؟ عسى ما خلاف ؟؟ .

فأطلقت ضحكة مجلجلة ثم قالت :

– عندى حق أعجب واندهش والا لا .. إنت ماقلت عن نفسك انك مليونير فقير ؟؟ هنا العجب ، أنا أول مرة أعرف عنك إنك مليونير .. وأول مرة أعرف كمان إنك فقير .. كيف تكون مليونير وكيف فى الوقت نفسه تكون فقير ؟؟ كيف يجتمع النقيضين ؟؟ أجل بقية مخاليق الله اللى ماعندهم الملايين وعلى باب الله ، ويش تعتبرونهم ؟؟ شحاتين ؟؟ طبقة الموظفين ، والطبقة الكادحة إيش تسمونهم ؟؟

وخرجت راحتا يديها مرات متتاليات تعبيرا عن استغراب أو مقت ، ثم أردفت قائلة :

– ياسبحان الله على الفلوس وما تفعل بالفلوس ، حتى اللغة العربية طوعتوها لمفاهيم المال وغيرتم مفاهيمها ، صدق الله العظيم « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

– ويش تقولين ياأم محيسن ؟؟ أنا طغيت ؟؟ شايفة إننى طاغية ؟؟ بس ، بس ، اسكتى عاد واتركينا من اللجاج ، ما عاد إلا إنت تقولين عنى هذا .

ونظرت اليها من طرف خفى فإذا الإحباط متجسد على صفحة وجهها ، وإذا هى توشك أن تبكى .. وازدادت سرعة تنفسها حيث تسارعت حركات صدرها علوا وانخفاضا ، ولعلى أردت أن أستطرد فى حالة استعراض للرجولة والقوامة وبقية القائمة الطويلة التى حفظها الرجل واخترعها ليبسط سيطرته على النصف الثانى .. سيطرة تكاد تصل إلى حد السيطرة على الفكر والعاطفة والنوازع الإنسانية .

ولكن فى داخلى عاد صوت النفس يضحك مجلجلا ساخرا فأسمعها تقول : « وأى طغيان أكثر من هذا ؟؟ ألم يأن لك أن ترعوى ؟؟ ترى هل أنت فى طريقك إلى نقطة اللاعودة ؟؟ أولى بك أن تحمد الله أن أعطاك زوجة صالحة .. وآية

صلاحها أنها تذكرك بكلام ربك ؟؟ هل تراها وصفتك أنت بالطغيان ؟؟ إنها إنما ذكرت قالة خالق الإنسان عن بعض أحوال الإنسان ؟ ارجع عن غيك ولا تكن كمن إذا ذكّر بآيات ربه ولّى مستكبرا ، عد واستغفر واعتذر لها » .

مرة أخرى وثانية وثالثة وأكثر من ألف مرة أجد نفسى تقول الحقيقة وتغلبنى وأطلقت « أف » عميقة ردا على نفسى ، فاذا أم محيسن تلتفت الى قائلة :

– إنت زعلت منى ؟؟ ياسيدى أنا متأسفة واعتذر .

كان صوتها خفيضا ، مليئا بالدفء والأنوثة ، لكنه لم يخل من نبرة ألم ، أحسست بها وكأنها طعنة نصل ، واستطردت ولكن فى صوت ارتفعت معايير تردده ، واختفت منه ملامح الأنوثة قائلة :

– بس أحب أقول لك ، انى أعتذر لك ، لا لاننى غلطانة لكن أعتذر لك لأنى باحبك ، واللى يحب ، يخاف يغضب حبيبه !

ومرة أخرى أخذت نبرات صوتها تأخذ نغمة المزيج من التهدج والحدة قائلة :

– صدقنى لا تفكر إنى باعتذر لك علشان إنى وحيدة ، ومالى أحد ، ومالى بيت أب أرجع له ، لا أبدا ، أنا ممكن ارجع واسكن فى رباط أهل الخير ، وأهه بالشكل دا ضمنت السكن أما على الأكل والشرب ، اللى شق هذا الفم ضمن له أكله وشربه ، بس أنا اعتذرت لك لأنى ...

وتهدج صوتها وانخرطت فى نوبة بكاء مر ، وفى طفولة بريئة أمسكت بذيل فستانها لتمسح دموعها وتركت رأسها بين كفيها اللتين أمسكتا بذيل ثوبها ، وارتفع نحيبها مريرا .

وشعرت كم أنا ظالم لها ، فخرجت بالسيارة عن الجادة إلى الطرف القصى لتفادى إعاقة حركة المرور ، وأخذت أعتذر لها ، وأُطَيِّبُ خاطرها وأقبل رأسها وأعبث بشعرها ، وربما سترت يدى تحت كثافة شعرها لأعبث بملمس عنقها ، والسيارات العابرة ربما التوت أعناق بعض ركابها يتابعون منظرنا ، ربما حسبونا من فئة الشباب العابثين الذين انتشرت مساوئهم ، وظللت أواصل تطييب خاطرها وفى نفس الوقت أعبث أو أداعب ما خلف الشعر ، فرفعت رأسها لتنظر الى والدموع تموج فى عينيها حتى لتكاد تحجبها . ونظرت إليها فإذا هى جميلة ومثيرة كما لم أراها من قبل . ونسيت نفسى ، ونسيت كل شىء ، ونسيت كل الاحتمالات فأهويت على وجهها أقبلها فوق كل ساحة منه ، ودموعها أخذت أرتشفها من عينيها مرددا كلمات الاعتذار والحب . وكنت منهمكا لولا أن انتشلنى من ذلك كله الصوت

المميز لسيارة المرور السيار وقد وقفت بجانب سيارتنا ، وخرج منها قائدها ليسألنى فى صوت ولهجة جمعا بين الأدب والحزم المفرط أو المخيف لو أردت أن أكون مجسدا الحقيقة .

وعبثا حاولت أن اقنعه أن التى معى هى زوجتى وأم عيالى ، وأننى كنت أحاول مصالحتها ، واستعنت بالبطاقة الشخصية لأثبت له صدق قولى ، ولكن منطقه كان أقوى ، اذ قال :

– ياسيد ، هذه البطاقة تثبت أنك متزوج فعلا ، لكن لا تثبت أن هذه التى معك هى زوجتك بذاتها ، ثم البطاقة تقول إنك متزوج من أكثر من عشر سنوات ، وبعد هذا تريدنى أصدق أن التى معك هى زوجتك ؟؟ وفى هذه الأثناء كان زميله خرج من السيارة وحضر ليشارك وما أن سمع تعليق زميله حتى ضحك ساخرا ، ثم التفت الى زميله ، وفى لهجة مكية محض قال :

– اسمع يامزاحم .. أخصرك منه .. أكفته فى السيارة وعلى المركز ..

وقاطعته قائلا :

– ياأخى كن محضر خير عسى الله يهديك .

ومرة أخرى وفى لهجة ونبرة مكية قال :

– أنا تبغانى أكون محضر خير ، وفين يكون الخير وانت عامل عملتك ، لا ، وفوق كده تبغى تبلفنا وتقول مراتك ؟؟ ياأخو الله ماشفناه ، بالعقل عرفنا ، بطاقتك تقول لك عشرة سنين متجوز ، وتبغانا نصدق إنك بتبوس مراتك لِسَّعْ ؟؟

– وفيها أيه ياأخو ؟

أجبته بنفس اللهجة المكية :

– إن كان الواحد ما يبوس مراته ، أجل يبوس مين ؟؟ يبوس الأيادى يعنى ؟؟

– انت إيه ياسيد ؟

تابع الرفيق حديثه :

– تبغانا نبيع عقولنا ، طيب الواحد فينا متجوز من ثلاث أربع سنين ، واحنا بطلنا الشغلة دى ، فى البيت الواحد مايبوس مراته .. تقوم تبغانا نصدق إنك فى الطريق تبوس مراتك !!

– والله يامزاحم ياخويا ...

والتفت موجها الحديث لزميله قائد سيارة المرور السيار :

– إن طلعت الحكاية صح وإنها مراته ، بيتهيأ لى نرسله للكشف على عقله .

فأردف مزاحم :

أو نكشف على عقولنا إحنا .

ولعل الوالد استبطأنا ، فإذا به يعود بسيارته ليبحث عنا ، ليجدنا فى هذا الموقف المحرج ، فما كاد يوقف سيارته بالجوار حتى لقيه مزاحم قائد سيارة المرور بترحاب كبير وبالأحضان والسؤال عن الصحة والعيال وبقية الديباجة المعروفة ، ثم بعد ذلك يقبل علينا الوالد قائلا : ويش بلاكم يا بو محيسن ياولدى ، أبطيتو علينا ، خفنا لا يكون حصل خلاف ، والا حبسكم حابس الفيل .

فضحك رفيق مزاحم قائلا بلهته الحجازية :

– ماهو لو اتأخرت عليهم شوية كان جاهم حجارة من سجيل .

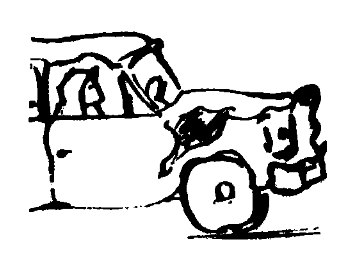
– أعوذ بالله من فالك ياراشد .

قالها أبى .. وسأله مزاحم عما إذا كان يعرفنا . ويصاب مزاحم ورفيقه بالإحباط حينما يؤكد لهما الوالد :

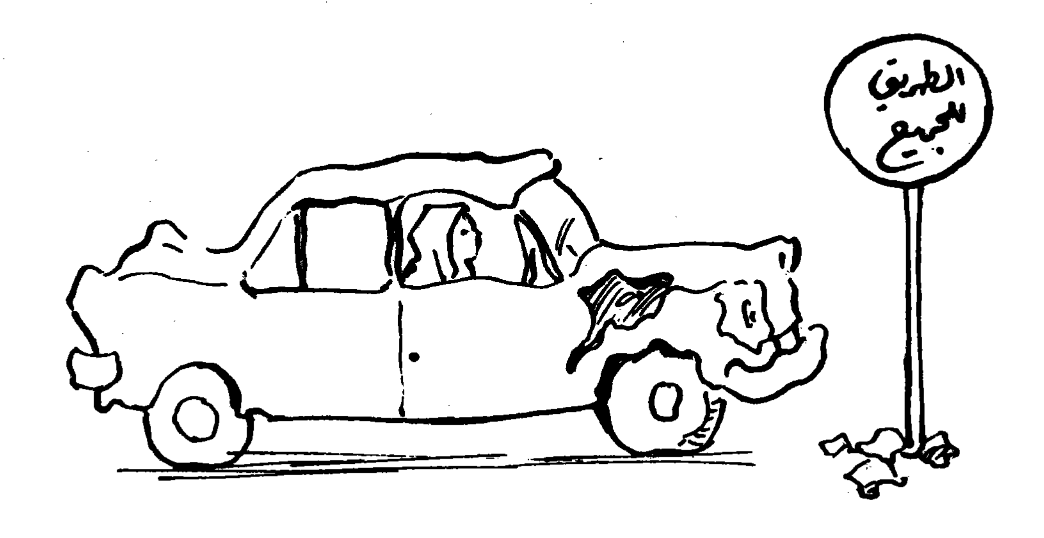
– ايه ، هذا أبو محيسن وليدى ، وهذه أم محيسن زوجته .

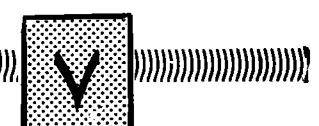
وهنا نظر الرفيقان كل للآخر ثم إلىَّ وزوجتى وقالا لبعضهما فى صوت واحد :

– نكشف احنا على عقولنا ! .






الطريق
للجميع



عاودنا الرحلة فى طريقنا إلى مزارع عمى إجابة لدعوته لقضاء يومين ، وأصر الوالد أن نسبقه وهو على أثرنا بسيارته ليطمئن على عدم التلكؤ والتأخير ، وانقضت بضع دقائق كنا - زوجتى وأنا - نتبادل الصمت ، وكنت - بين آونة وأخرى - أسارق النظر من طرف خفى وشعرت بأننى أخطأت فى حقها . فقطعت حبل الصمت بيننا قائلا :

- تعرفى يا أم محيسن .. إنك فى غضبك وزعلك كنت فى غاية الجمال ومنتهى الإثارة ؟! .

ولعل ذلك سرها ودغدغ عواطفها ، ورحم الله شوقى حيث يقول : « والغوانى يغرهن الثناء » !

فتبسمت ضاحكة ، وعدلت من جلستها بحيث أصبح ظهرها للنافذة المجاورة ، واتجهت كلها ناحيتى ورمتنى بنظرة هى مزيج من حب ومن وَلَهٍ ومن إثارة ، وكدت أعيد الكرة . ولقد هممت أن أفعل ، فاقتربت منها تسبقنى ذراعى اليمنى تشدها لتقرب المسافات ولتضع حدا لما أثارته نظرتها ، ولكنها برفق الراغبة تمنعت وذكرتنى أن الوالد خلفنا بسيارته وأنه سوف يرانا ، وصغارنا ، ولربما أدركنا المرور السيار كرة أخرى .

ولعل يسراى لم تمسك بالمقود كما يجب ، فأخذت السيارة تلعب فوق الطريق يمنة ويسرة ووسطاً ، وإذا أبى يترك لمنبه سيارته العتان وأسرع حتى لحق بنا ثم صاح قائلا :

- كُبِّك هالحين من المهاوشة ، وانتبه للطريق ، ثم أخرج رأسه من نافذة السيارة قائلا :

- وراك ، وأنا أبوك فى الطريق العام تتهاوشون ؟ ثم التفت إلى أم محيسن موجها الحديث :

- عسى خير .. ويش صار يا أم محيسن .. هو طَقّك بالأول ؟؟

وكانت أم محيسن - من خفر وحياء - تنفى كل ذلك بتحريك رأسها نفياً ، ولم تستطع النطق خشية أن يفضحها ضحكها ، وتطوعت لأخبر أبى :

- لا والله يا أبى . ما هناك مِطَاقَّة ولا مهاوشة ، لكنى الودودى آخدها كلها كده طَقَّة واحدة .

وأشاح أبى بيده ووجهه ، وأدركت الوالدة التعبير الحجازى ، فضحكت وقالت لأبى :

- أتركهم وشانهم ، شباب ويمرحون .

وتقدم والدى بسيارته محذراً من التأخير .

ما أن وافت الساعة الثانية حتى كنا أمام مزرعة العم واستقبلنا هناك وبقية أفراد العائلة ، واجتمع الشمل ، وبعد تناول طعام الغداء جرى الحديث شتى الوجوه وأخذ الشيوخ والمخضرمون يعودون لذكريات الماضى ، ومشاق الرحلات والسفر حين كانت وسيلة المواصلات هى - البعارين - أو الخيل والحمير ، ثم تهيأت السيارات كوسيلة للمواصلات . لم تكن الطرق قد عبدت ، أو مهدت أو سفلتت فكان للسفر بالسيارات وعثاؤه .

ثم كان الحمد أن أصبحت الرحلات أمراً ميسوراً وممتعا بعد امتداد شبكة المواصلات عبر البلاد لتربط أجزاء البلاد قاصيها ودانيها .

وقال ابن عمى سحيم وهو يعمل مدير اللحسابات فى إحدى الشركات الوطنية القائمة بأعمال الطرق والمقاولات والتنفيذ ، قال :

- فى الواقع أن خيرات هذه الطرق كالمطر الهتون ، كل واحد ناله منها نصيب ، العامل عمل فيها فناله منها ، والمقاول والمنفذ والمهندس والذى استلم ، والذى أشرف ، يعنى أن خيرها كان عاماً ، حتى سكان القرى ، والنجوع والهجر ، سهلت لهم الانتقال ، فمن لم يصبه وابل فطل .

ووافق الكل على قوله ، ولكنه كان يركز ناظريه علىّ شخصيا ، كأنه يريد أن يذكرنى بمحاولة فاشلة من جانبى كنت قد قمت بها فى هذا المجال ، أعنى محاولة أن ينالنى ( وابل ) ، لكن لم يقسم لى الا الطل . ولم أرض لنفسى أن يذكرنى بمحاولتى السابقة ، وان كنت اعترف أن المحاولة لم تكن نظيفة كل النظافة ، ولكنها لم تكن قذرة إلى الحد الذى أستحق عليها الملامة وغمز القناة ، وأعزو ذلك الفشل لسبب عدم تَمَرُّسِى - آنذاك - ولأنى كما يقولون ، كنت - جديدً فى الكار - ، وأردت أن أؤكد له أننى تسلمت رسالته هذه وأن أذكره فى الوقت نفسه : أننا كلنا ذلك الرجل ، فقلت له :

– غفر الله لعكاشا الذى سبقنى !

وازدرد سحيم الغمزة والهمزة ، وعاد والدى يؤكد أن هذه الطرق العملاقة وشبكة المواصلات العملاقة ، انما هى خير كله ، أصاب البادى والحاضر .

– لكن أكثر واحد استفاد من الطريق هو الجميع .

هكذا قالت أم محيسن . وأوجست خيفة ، خشية أن يتطور المثل القائل « صمت دهرا ونطق كفرا » . ومرة أخرى اهتزت الرؤوس إيماء وموافقة ، ولعله ملأها زهواً أن الشيوخ والشباب وافقوا على رأى لها . ولعل مما زادها زهواً أن هذه هى المرة الأولى التى تبدى فيها رأياً ويكون صوابا ، فاستطردت قائلة :

– هل تعرفونه ؟؟

– من هو الذى هل نعرفه ؟؟

تعالت الأصوات سائلة .

– الجميع ..

قالتها أم محيسن بلهجة الواثق من سذاجته :

– نعم قصدى الجميع ، اللى الطريق ملك له ؟؟

وتبادل الجميع نظرات تدل على أن ثمة لبسا أو سوء فهم قد حدث ، وقال والدى :

– إن الطريق ليس ملكا لأحد .

– بالعكس ، الطريق ملك الجميع ياعمى .

قالتها أم محيسن مرة أخرى بلهجة الواثق .

– كلنا موافقين على هذا الكلام ، إذن من تقصدين ان كنا نعرفه أم لأ ؟

– قصدى الجميع ، أعتقد إنه إنسان ثرى جدا ، كم يأخذ على السيارة اللى تعبر الطريق ، شوفو كام من سيارة صغيرة ، ووانيتات ، وسيارات الحمل الكبيرة ، كلها تستعمل الطريق ، هل يدفعون شيىء ، رسم أو ضريبة مثلا له ؟؟؟

مرة أخرى تصر أم محيسن على مواصلة الحديث . وأدركت – على مبدأ يعرف رطنى ولد بطنى – أى مطب رهيب ستقودنى إليه ، وحاولت أن أغير الحديث ، ولكن والدى اعترض قائلا :

– يابنيتى ، الطريق ما هو ملك أحد ، الطريق ملك الحكومة ، ملك الدولة .

- لا ياعمى ، الطريق ملك الجميع ، أنا قريت كذا لوحة مكتوبة تقول : الطريق ملك الجميع .

وهنا أطلقت من أعماق ضحكة مجلجة ، عامداً أن أجعل الحاضرين يدركون - أو أوحى إليهم - أنها نكتة أحسنت حبكها أم محيسن مستغلة الالتباس اللغوى . وقبل أن يفيقوا ويدركوا غير ذلك كنت قد غيرت الحديث وجهة أخرى ، سائلا عمى ، إن كان أعدّلنا برنامجاً لتفقد مزرعته ، وأكد عمى ذلك قائلا : فى الغداة نذهب لمزرعة الأبقار لمشاهدتها أثناء عملية حلبها بالمكائن ، وضحى أو قبيل الظهر ، إن سمح الوقت ، والا فبعد الغداء - عصراً - لزيارة مزرعة الدواجن من الدجاج والحمام والأرانب ، أما الآن فقد أوشك النهار أن ينقضى وآذنت الشمس بالمغيب ، ولكن لابأس من السير على الأقدام وسط المزارع والنباتات الخضراء .

وقد كان ، فاستمتعنا بخضرة المزرعة ، وكنا نتناول بعض قطافها مما تدلى من فواكه الموسم ، وعند مرتفع من الأرض كساه النخيل الأخضر كان قد أعد للسمر انتهت المسيرة وأخذنا نغسل للوضوء وأداء صلاة المغرب جماعة . وطاب لنا أن نسهر حيث نحن لولا هبوط درجة الحرارة إلى المستوى الذى أخذ يبعث بالقشعريرة فى الأجسام ، ونبه فيها غريزة البحث عن الدفء .

وعدنا إلى قصر منيف ، تسبق إلى أنوفنا رائحة العود والطيب ، اختلطت بعبق الزهور . وبدا سابحا فى الضوء كأنه واحة ضوء فى صحراء الظلام . وانقضى الليل ما بين سوالف تروى ، وذكريات تستعاد ، وبث تلفزيونى يفتقر إلى مشاهدين .

حتى إذا انقضت السهرة بعد عشاء دسم ، أوينا كل إلى فراشه لقضاء ليلة هادئة ونوم هادى ، كادت أن تفسد هدوءه أم محسين ، اذ ما أصبحنا وحدنا فى الغرفة المعدة للنوم حتى عاودها هاحس ( الجميع ، والطريق ملك الجميع ) وأخذت تضع خططها لتزوج محيسن من ابنة السيد ( الجميع ) أو تزوج أخت محيسن من أحد أبناء السيد ( الجميع ) . وكان لابد لى أن أجهض خطتها هذه كلها ، فأكدت لها أن السيد ( الجميع ) هذا ، الذى هو معشعش فى دماغها هو ذات فاقدة للاولاد وللبنات ، لسبب بسيط انه لم يتزوج لأنه من أنصار العزوبية ، وفاته قطار الزواج ، فاستبدل القطار بالسيارات والحافلات والشركات ، وأخذت أعدد أسماء كل مايدب ويتدحرج ويحتمل أن يسير فوق الطريق .

وأخذت هى تهز رأسها موافقة فى بلاهة عجيبة ، وقد تجسدت فى نظراتها إلى معانى التسليم والاشفاق فلما توقفت عن السرد قالت :

– ياه انت باين عليك تعبان وبتخطرف يالله بنا ننام !

وخشيت أن تغير رأيها ، فقفزت مسرعا إلى السرير صائحا :

– يسقط الجميع .

وقد حدث فعلا . فقد سقط السرير تحت وطأة قفزتى ، وكان ذلك مدار حديث السهرة مع أم محيسن ، إذ لم تنم حتى أوشك الفجر أن يسفر ، فلما أثقل النوم أعيننا ، وكدنا أن نلقى بأجسادنا على المراتب التى أنزلناها من علياء سريرها إلى الأرض ، ارتفع صوت المنادى : الله أكبر الله أكبر .

وتجاوبت جنبات المزرعة ، والمزارع المجاورة مرددة أقدس نداء وأروع دعوة ، ونهضت أم محيسن ولم تكد تضع جسمها على المرتبة بعد ، مرددة مع الداعى الدعاء ثم اتجهت – وهى تردد الشهادتين – إلى مرفق قضاء الحاجة ثم الوضوء ، وكانت هذه إحدى محاسن وإحدى فضائل زوجتى ، حرصها على أداء المكتوبة فى وقتها – ماوسعها ذلك – حتى أن صويحباتها يدعونها – بنت الريس – وهذا تعبير يعرفه أهل المنطقة الغربية وأهل مكة خاصة دلالة على الحرص والسبق فى أداء المكتوبة .

وارتفع من الجانب الآخر من البيت صوت أبى سحيم ، يدعو ابنه ، ووالدى يدعوهم ليوقظهم لأداء صلاة الفجر ، ثم رفع عقيرته مناديا إياى للصلاة ، فأجابته أم محيسن ملقية تحية الصباح . فدعالها بالتوفيق ، حامداً أو مادحا خلقها فى الصحو الباكر ظنا منه أنها صحت لتوها ، وما علم أننا لم ننم !

وعادت أم محيسن لتؤدى الصلاة فوجدتنى أغط فى نوم ، وحاولت إيقاظى بإصرار لأداء الصلاة ثم النوم من بعد . فلما استيئست منى ، أقسمت لَتَدْعُوَنّ أبى وعمى . ولعل أبى قد سمع النقاش وصوتها الذى ارتفع فى إصرار لايقاظى للصلاة ، ولعل أبى سمع قولها :

– والله إن ماصحيت لأزهم على عمى أبو ناصر ، واقول له انك ما تبغى تصلى .

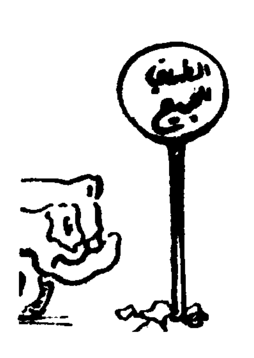
وما كاد أبى يسمع ذلك ، حتى تنادى هو وعمى أبو سحيم ، كل إلى عصاته واندفعوا جميعا إلى الداخل وعصيهم تطرق كل شيىء حتى لامست جسمى بلسعات كأنها النار .

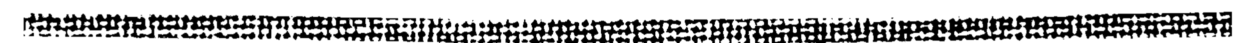
ونسيت أنهما قد يتهاونان فى كل شيىء ، حتى فى حقوقهما ، أما فى الصلاة فالعصا هى الفيصل ، وقد كان ، فما كادت عصاتاهما تلمسان جسمى ، حتى كنت

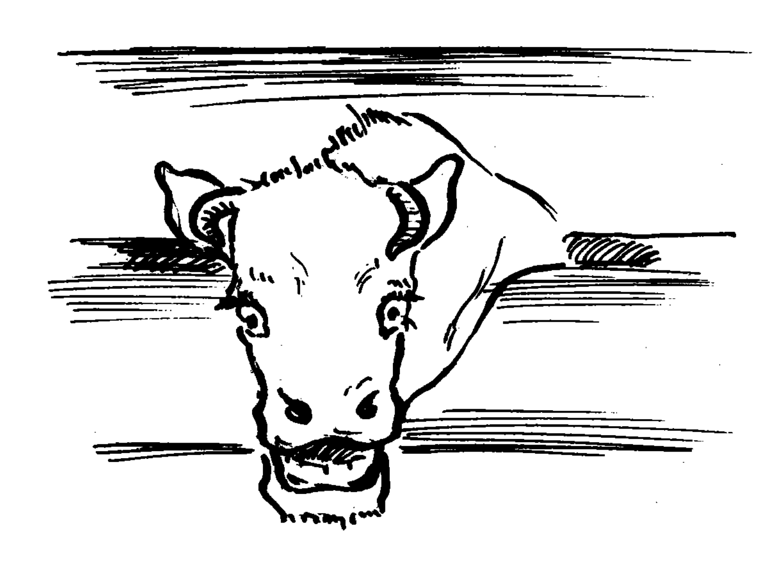
قد وصلت إلى الحمام ، وجاء صوت عمى أبى سحيم بشنى على زوجتى ، وداعيا لها بالبركة :

– الحمد لله يابنتى أن الله وهب أبو محيسن زوجة صالحة تعينه على أمور آخرته وأحمد الله أكثر إنك مسابقة فى أمور الآخرة ، وهو لاحول ولاقوة إلا بالله سابق فى أمور الدنيا !

فلما قضينا صلاة الفجر ، أديرت القهوة مع أطباق التمر السكرية ، وكان ذلك تقليدا قديما ولا يزال قائما ، وكان لطعم السكرية مع القهوة فى الفجر مذاق لا ينساه من عرفه ، وتذكرت نداء الباعة فى مكة حين يريدون وصف بضاعتهم بجودة النوعية : « مال عنيزة يا سكرية ».









تنفس الصبح ، وأسفر وجه جديد ، فدعانا مضيفنا إلى الخروج للتمتع بفلق الصبح ، وشميم عرار نجد . وقد كان ، ولقد كانت متعة ما بعدها متعة افتقدتها منذ زمن بعيد ، منذ اندفاعى داخل دوامة هذا السعار المادى . وعرج بنا العم إلى مزرعة الأبقار لمشاهدتها وهى فى منشآتها وطرق العناية بها ، ثم طرق حلبها بالآلة وتجميع منتوجاتها من الحليب لنقله إلى المصنع المجاور لتحضيره للاستهلاك بعد تحضيره فى علب الكرتون بعد تعقيمه .

ولقد كانت متعة أن نشاهد هذه المخلوقات الممتازة كأنها لوحات من صنع الله ، وأخذ المهندس الزراعى المشرف على المشروع يشرح لنا كل تفاصيل ودقائق الأمور ، وعن تاريخ حياة كل بقرة وسلالتها ، ثم طرق جمع الحليب آليا . وأخيرا تطوع سيادته بالإجابة على أى سؤال فى هذا المجال . وسأل الوالد عن عمليات التهجين وكيفية نقل الصفات الوراثية . وسألت الوالدة عن تكاليف مشروع مماثل . ووقفنا – زوجتى وأنا – صامتين ، فتوجه المهندس إلينا عارضاً المساعدة فى أى سؤال . وشكرت له ذلك وأنه قد قام بشرح واف جمع فأوعى . وتطوع ثانية متوجها بالسؤال لأم محيسن ، يحثها ، وحدثتنى نفسى أن أتدخل لأحول دون احتمال وقوع حرج ، ولكن حديث النفس جاء بعد فوات الأوان ، إذ سألت – عفا الله عنها – قائلة :

– مجرد سؤال بسيط لوسمحت .

– اتفضلى ياهانم . أجابها الأخ المهندس بأدب مبالغ فيه ، مبديا اهتماما واضحا .

– أبداً ، بس الأبقار بعد ما تحلبوها .. ايه الخطوة التالية اللى بعدها يعنى ؟؟

وهنا تطوع قائلا فى مجاملة واضحة لم تخل من المبالغة :

– السؤال مهم ووجيه .

واستطرد قائلا :

- اللبن الحليب بعد ما نجمعه آليا طبعا ومن غير ما تلمسه يد الانسان ينقل إلى المصنع لتحديد نوعية الدهن وكميته حسب المطلوب ثم تجهيزه بحيث يكون صالحاً للاستهلاك بعد البسترة والتعليب فى علب الكرتون ، وطبعا كمية ثانية تستخرج منها الزبدة ، والأجبان ، والقشطة و .. و .. وطبعا بقية منتجات الألبان ، أى سؤال تانى ؟؟

- طيب والبقر ؟؟ .
- إيه ماله البقر .. فيه إيه ؟؟ لامؤاخذة السؤال غير واضح عندى .
- قصدى البقر بعد ما تحلبوه ، يعنى تعملوا فيه إيه ؟؟ .
- ولا حاجة ياهانم ، والا حضرتك شايفة غير كده ياهانم ؟؟ .
- لا !! قصدى البقر الفاضى ، تعملوا فيه إيه ؟؟ إحنا ، الكراتين الفاضية نرميها ، زجاجات المشروبات لما تفضى ، نبعثها نملاها تانى ، كان البقر الفاضى تعملوا فيه ايه .. تِعبُّوه تانى ؟؟ .

- « لا ، نرميه يرعى تانى ، و ... »
- طيب وليه ما تدبحوه ، وبالشكل دا تنحل مشكلة غذائية هامة ؟!

ومرة أخرى تدخلت مطلقا ضحكة مجنونة أو مجلجلة ، مادحا ومثنيا على روح الفكاهة عندها ، زوجتى - أم محيسن - وضحك المهندس إذ صدق ذلك وضحك الجميع إلا زوجتى ، وأنا .

كان قد انقضى أكثر من ساعتين ونحن نتجول ، وفى ظل شجرة عجوز وجدنا أن قد هيىء لنا مجلس لتناول الافطار . وكان تقليديا بمعنى أن الرغيف جرى تحضيره طازجا كما كنا نحضره منذ أكثر من ثلاثين عاما ، جرى عجن العجين ثم فرد العجين على اليد وألقى على الحجر حتى نضج على وجهيه ، ثم وضع العسل والزبد كل فى وعاء وللشراب حليب البقر الطازج - أعنى الحليب وليس البقر حتى لا يلتبس الأمر على زوجتى -!

وبعد فترة الحديث الممتع ، اقترح عمى « أبو سحيم » أن نواصل الجولة على مزارع الدواجن وتربية الأرانب والحمام والدجاج . وأخذت أم محيسن جانبا وبلباقة طلبت إليها أن ترتب أفكارها حتى لاتقع فى مثل مطب سؤالها عن الأبقار الفارغة ، فوعدت خيرا وشكرتنى على حسن التوجيه .

وقضينا أكثر من ساعتين آخرين فى مشاهدة الأرانب وأنواعها والمهندس

الزراعى – خبير الدواجن – يشرح لنا نوع كل سلالة وطرق تربيتها وأنواع طعامها ومواقيت أو مواسم التكاثر عندها . وانتقلنا إلى مزرعة التفريخ وكيف تعمل الأجهزة الخاصة ودرجات الحرارة اللازمة وكيف كانت مزرعة التفريخ مكيفة بالحرارة صيفا وشتاءا ، وعمى يمتلىء زهواً بما أسهم به فى الأمن الغذائى ووالدى يتذكر أيام زمان ، أيام تربية الماعز ويسر تربيتها أو عسره حين يسرح أحدهم – بالحلال – إلى المراعى فى أيام الربيع ، والوالدة تذكر كيف كانت تربى الحمام فوق السطح فى صناديق خشبية .

وفى تجوالنا مررنا بإحدى المراحل النهائية للتفريخ وشاهدنا صغار الكتاكيت تكسر البيض لتخرج إلى الحياة ، وعلق العم أبو سحيم قائلا :

– صدق الله العظيم يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى .

وأردف المهندس قائلا :

– هذه هى ما نسميه انتصار إرادة الحياة . هذه هى المعجزة ، إرادة الحياة تهدى الكتكوت ليكسر البيضة فيخرج كائنا حيا .

وعلق والدى قائلا :

– المعجزة هى فى كيف أدرك الكتكوت الصغير انه يجب عليه أن يكسر البيضة ليخرج ، سبحان من علمه ، ذلك مصداق قوله تعالى:الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . الله هو الذى هداه لينقر البيضة من الداخل ليخرج ، تبارك الخلاق العظيم .

ولاحظت أن زوجتى تريد المشاركة فى الحديث لتدلى بدلوها ، وخشيت – كعادتى – من تعليقاتها ، وتركت مكانى لألحق بجوارها وأنقذ ما يمكن إنقاذه ، ولكنها سبقت قائلة :

– فى الحقيقة ليست المعجزة فى أن الكتكوت ينقر البيضة ليخرج فهذه غريزة علمها الله له ، إنما المعجزة هى كيف من الأساس دخل الكتكوت داخل البيضة وهى مقفولة ولا انكسرت ؟!

وتهشمت على شفتى الضحكة المجلجلة التى تعودت أن أنقذ بها الموقف وبهت الجميع . وأنقذ الموقف العم أبو سحيم الذى أردف – دون أن يلاحظ سخافة التعليق :

– هذا صنع الله ، تبارك أحسن الخالقين .

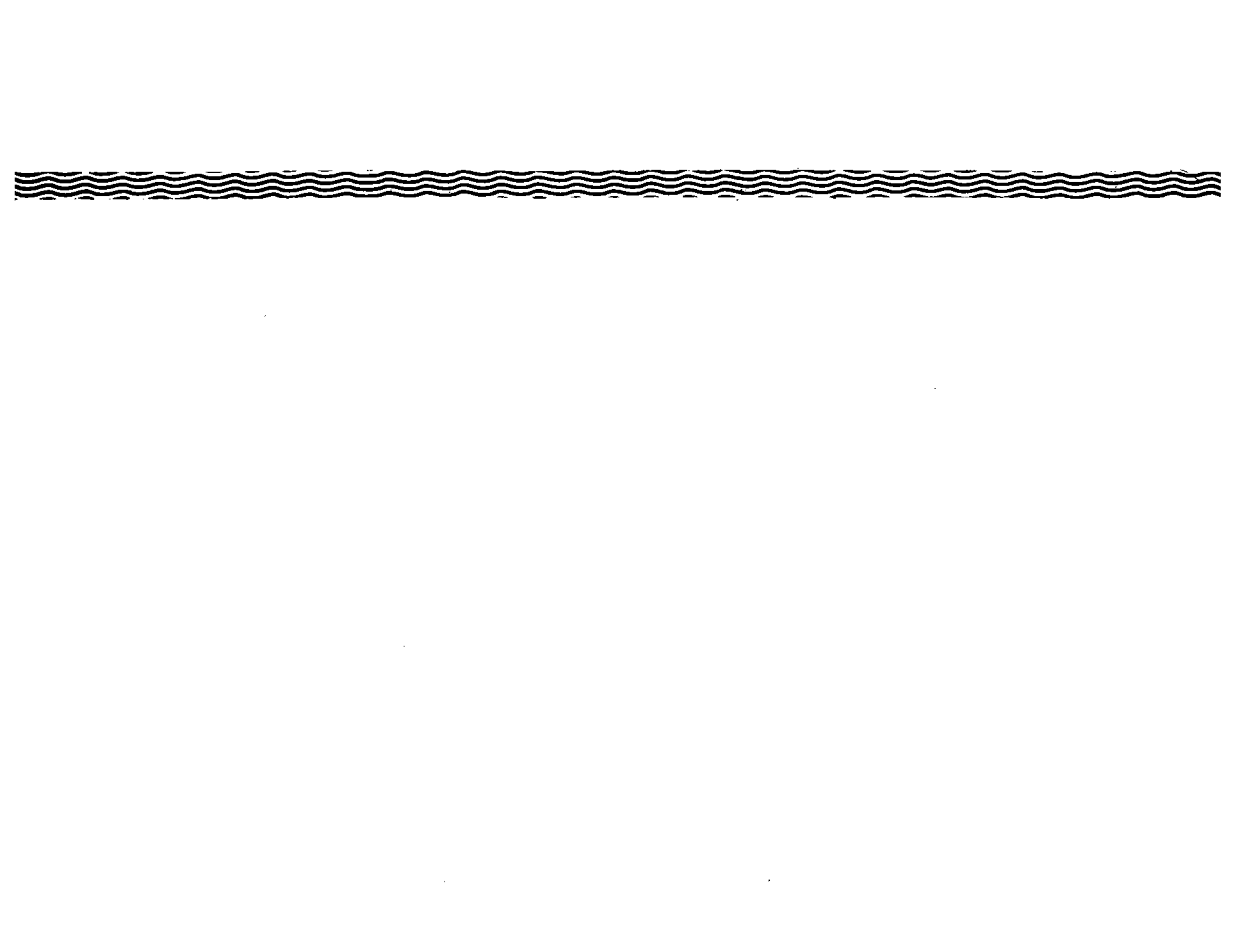
وصرخت استدعى هالة فقد كانت تحاول الدخول للإمساك بصغار

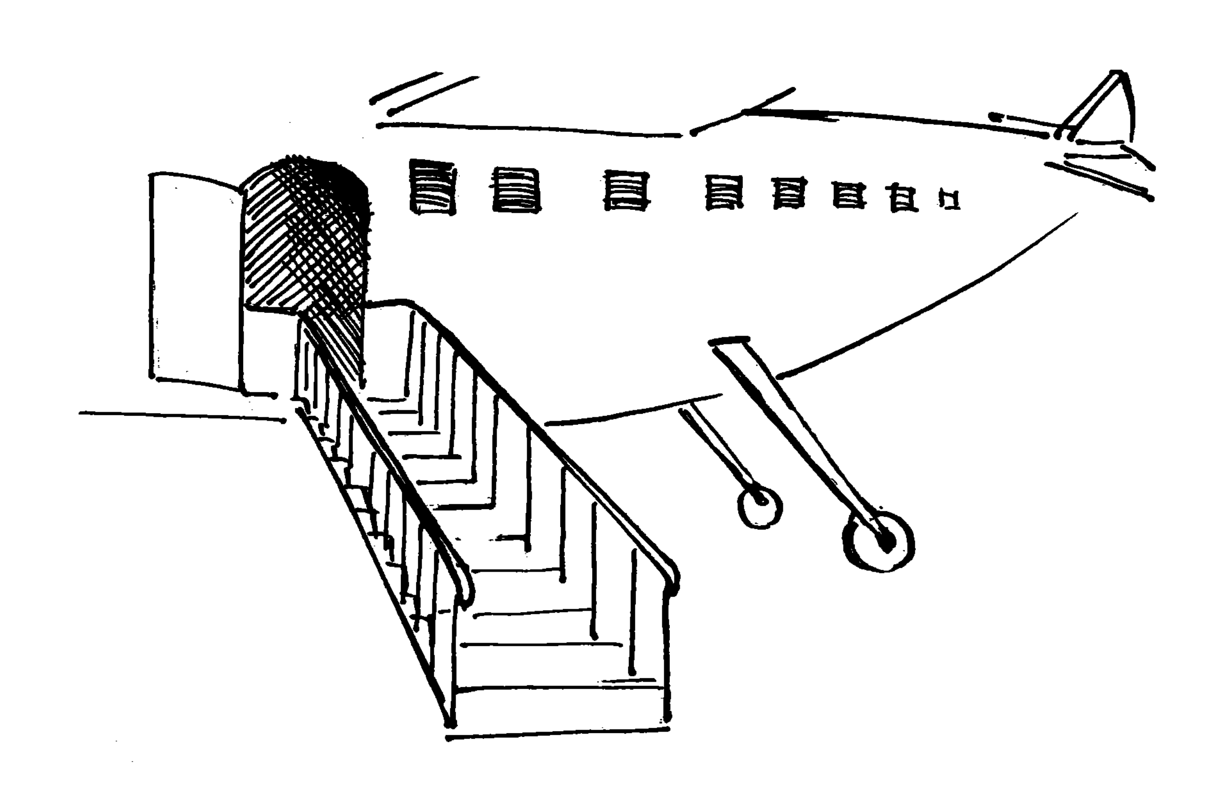
الكتاكيت . ودعانا المهندس لمواصلة التجوال ، وعلق ابنى محيسن قائلا :

– خسارة الأجازة قربت تنتهى .

فأكدت له أن فى الجعبة بقية سهم ، فغداً إن شاء الله الثلاثاء نسافر للمنطقة الشرقية لزيارة خالى هناك وأهله ، ومن ثم نعود من هناك إلى جدة لمباشرة الدراسة .







# ٩

اقتنع والدى بفكرة زيارة الخال بالمنطقة الشرقية ، واعتذر العم أبو سحيم لارتباطاته ، وفى المساء كنا نأخذ مقاعدنا فى الطائرة التى تغادر القصيم فى طريقنا إلى زيارة الخال مختتمين بها إجازة الربيع قبل العودة مرة أخرى إلى جدة . حلقت بنا الطائرة فوق العاصمة وقد بدت وكأنها واحة من الضياء فى صحراء الليل ، وبعد أن حطت بالمطار لنصف ساعة غادرت إلى مطار الظهران - الدمام - وفى أقل من ساعة كانت الطائرة تطوف بأجواء المنطقة الشرقية ، ولفت منظر ألسنة اللهب الناتج عن حرق الغاز نظر الصغيرة هالة ، ذلك أنها تزور المنطقة لأول مرة . وأعجبها منظر الغاز المحترق يخرج لهباً أحمر اللون قانى من فوهة أنبوبة الاحتراق . وأثار ذلك سؤالًا عندها عن ماهية هذا اللهب . سألتنى وفيما أنا أتهيأ للرد ، كانت المضيفة الحسناء تنحنى تجاه المقعد الذى أحتله ، وأحسنت الظن بقدراتى الرجولية فى جذب الحسان ، وتحرك فى داخلى نازع شيطانى لم يردعه أن ابنتى بجانبى وظننت أننى أستطيع خداعها للحظات ، ولكن هذه اللحظات سبقها صوت المضيفة فى حزم تطلب منى التأكد من ربط الحزام وسبب ذلك عندى إحباطاً جعلنى فى شغل عن إجابة سؤال صغيرتى فاتجهت بالسؤال إلى والدتها التى أجابتها ببراءة إن هذا ربما كان مصنع تعبئة اللهب . وأرهفت السمع للإجابة العجيبة ، وتساءلت هل من الممكن إقامة صناعة اللهب ، وفى نفس الوقت واصلت الصغيرة سؤال أمها :

- يعنى إيه ياماما مصنع اللهب .. يعنى لهب معلب زى العصيرات المعلبة ، والخضار والفواكه ؟؟

وأمام جهل الصغيرة ، خلت الساحة لزوجتى تمارس فيها آفاق علمها ومعرفتها ، حفظنا الله . وأَصَخْتُ السمع ، فقد حدثتنى نفسى أنى سأسمع عجبا . واعتدلت الأم فى جلستها ، أو لعلها فعلت ذلك عمدا لتعطى نفسها الشعور بالأستاذية ، كما يفعل أكثر من هم على شاكلتها حين يمارسون الجهل بالطرق العلمية

ولإعطاء المستمع والحاضرين انطباعا بأنهم أمام أستاذ علامة يختفى وراء تواضع العلماء ، هكذا خيل إلى موقف زوجتى وإن كنت أبرئها من ذلك كل البراءة وأنزهها عن ذلك كل التنزيه ، وليس هذا إشادة بتواضعها بقدر ما هو تأكيد لبراءتها لأنها أجهل من أن تعرف هذه الأحابيل وهذا السيىء من السلوك . اعتدلت أم محيسن فى جلستها وربتت على كتف الصغيرة بحنان قائلة :

– ياحبيتى أنا ما قلت مصنع تعليب اللهب ، لا ، أنا قلت مصنع تعبئة اللهب .

– طيب وإنه الفرق يا ماما .. ماهو كله واحد نعبيه والا نعلبه ؟؟ .

– لا ياحبيبتى .

قالتها أم محيسن ، وقد شدنى الحوار :

– فرق كبير ياروحى . الشيىء المعلب يعنى محفوظ فى علب ، وطبعا اللهب ما يمكن يتحط فى علب ، علشان كده هم يعبوا ، طبعا اللهب يتعبى فى خزانات خاصة صغيرة وكبيرة ، وتستعمل عند الحاجة .

هرشت الصغيرة رأسها تفكر ، ثم صدرت بالسؤال التالى :

– ممكن تقوليلى ياماما كيف شكل الخزانات هادى ؟؟ .

وتوقعت أن تقع أم محيسن فى هذا المطب فما سمعنا من قبل عن خزانات حفظ اللهب . ولكن أم محيسن تخطت هذا المطب ببراءة قائلة : أنت ماشفتى الولاعات ؟؟ ولاعة السجائر حقت أبوكى ؟؟ بحركة واحدة من ايده ويخرج اللهب ، طبعا هادى خزانات صغيرة للاستعمالات السريعة واليدوية . وطبعا الخزانات الكبيرة علشان استعمالها فى المصانع والمحلات الكبيرة للتدفئة ، وفى أيام الشتاء والأمطار بدل ما الفحم ينطفى تحت المطر ، يكون اللهب جاهز من الخزان .

عجبت لقدرة أم محيسن على الاختراع والخيال ، وقلت لنفسى : ترى ، لو كانت على شيىء من التحصيل العلمى العالى ، أفلا يحتمل أن تكون مخترعة ؟ ولكنى حمدت الله أن ذلك لم يحدث وبذلك حصلت على زوجة منحتنى الكثير من الراحة النفسية والزوجية وقليلا من المتاعب والمطبات الاجتماعية .

نهضت الصغيرة من جانب أمها لتواصل الحديث مع جدها ولكن ارتفع صوت من الميكرفون الداخلى يعلن أن قد أوشكنا على الهبوط بمطار الدمام وأن على السادة الركاب العودة إلى مقاعدهم وربط الأحزمة . وقد كان . وفى خارج صالة الوصول كان لقاء والدتى بشقيقها . وكان لقاء حاراً إذ مضت بضع سنوات لم يلتقيا

وكان خالى قد ترك أرض الحجاز من حقبة سابقة وكان من الأوائل الذين عملوا بشركة البترول وأصبح له مركز مرموق هناك مما سهل لنا التعرف على الكثير من الأعمال البترولية والصناعية بالمنطقة ، وقد قضينا البقية الباقية من الاجازة فى نشاطات وزيارات اجتماعية . وفى مساء الجمعة كنا نحط بأرض مطار جدة فقد انتهت إجازة الربيع وغداً تبدأ الدراسة ، وغداً يوم آخر . بعد أن أخذت قسطاً من الراحة عقب وصولنا بالدار اتصلت بمدير مكتبى وأخذت مه ملخصا عما تم فى المكتب أثناء غيابى وضربت له موعدا بالمكتب صباح الغد .

فى التاسعة من صباح اليوم التالى .. كنت أتناول قهوة الصباح وأتصفح الصحف الصادرة لأجد فى الاجتماعيات خبراً عن عودتى إلى مقر عملى بعد رحلة عمل لدراسة افتتاح العديد من المشاريع الإنشائية والإنتاجية جريا على عادة المؤسسة الوطنية التى أمثلها وأمتلكها وأديرها .

دهشت جداً لجرأة المحرر الذى نشر هذا الخبر ، فلم أكن فى رحلة عمل ولكن فى إجازة مع الأهل والولد . ودهشت لقدرة الخلق لدى المحرر الذى خلق مشاريع إنشائية وإنتاجية كما زعم فى الخبر . ودعوت مدير مكتبى لمساءلته عما جاء فى الخبر ، وتبين أن كل ذلك كان من ترتيب مدير المكتب معللاً ذلك بأن أصول اللعبة تستدعى ذلك .

وأكثر ، فقد حدد موعداً مع البعض من الملا الصحفى للقاء معى فى شبه مؤتمر صحفى للتحدث عن مشاريع مؤسستنا المستقبلية والموعد مضروب بعد ساعة . وكان على أن أتدبر الأمر لفبركة أخبار تكون خبطة صحفية من ناحية ، وضربة معلم فى عالم التجارة وعالم الشركات وعالم السعار المادى الذى أدمنّاه . وأخذت أقلب الأفكار مستعينا بأفكار مدير مكتبى ، والسكرتير الإدارى ، كل يؤلف مشروعاً أو مجموعة مشروعات من الخيال إلا أنها لا ترقى إلى الهدف ، وقد أعجبتنى اللعبة فرأيت المضى فيها حتى النهاية .

أخرجت لفافة تبغ من علبة السجائر على مكتبى ، وأشعلت الولاعة لاشعال اللفافة ، وهنا تذكرت حديث أم محيسن مع هالة عن تعبئة اللهب فى خزانات ، وقلت لمدير المكتب والسكرتير : « وجدتها .. وجدتها ، أطلب لى فنجانا من القهوة ، وإذا حضر الملأ الصحفى فأكرم وفادتهم » .

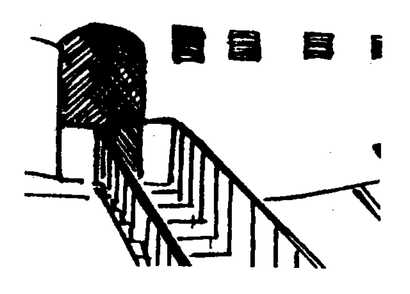
وقد كان ، وجلسنا ووفد الصحيفة التى نشرت خبر القدوم ، وتبادلنا

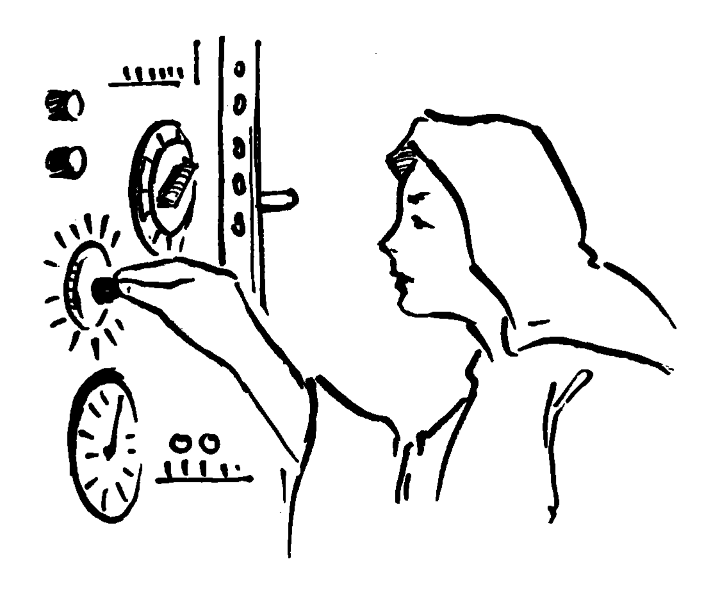
الأحاديث الودية ، وأسقطنا حواجز الكلفة بيننا ، ومهدت للمحرر يستدرجنى فى الحديث ثم أوحيت له اننى أسر إليه بسر عن مشروع اقتصادى يختمر فى ذهنى ، ربما قلب العديد من الموازين الاقتصادية وخاصة فى عالم الطاقة ، وأعطيته من المعلومات ما لايشبع نهم متتبع ، ومايستثير اهتمامات الآخرين . والمحت إلى أن الرأس المدبر أو المفكر ما يزال يحتفظ بالكثير عن أسرار المشروع وهو مشروع تخزين اللهب أو تخزين الطاقة ..

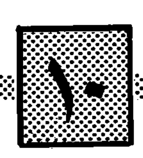
ولما كانت أزمة الطاقة هي هاجس العالم كله الآن ، فان الصحيفة لم تكد تبرز النبأ ، حتى طيرته وكالات الأنباء العالمية . وبهدوء رفعت سماعة الهاتف لأطلب من مدير مكتبى الاستعداد لرحلة طويلة – ربما حول العالم – وشيكة أن نقوم بها . ولم تمض ثمان وأربعون ساعة على نشر النبأ حتي بدأت الاستفسارات والاتصالات تنهمر . وبدأت الاتصالات التلفونية تكون سيلاً جارفا ، وجهاز التلكس لدينا لم يعد كافيا ليتحمل فيض الرسائل كلها .. تستفسر وبعضها تعرض بعث وفود . وأخيراً جاءت الدعوات . دعوات تستضيفنا لفترات غير محدودة لمناقشة المشروع ، والمساهمة فى التمويل ، من اليابان واستراليا وكندا وأمريكا .

وطلب منى مدير مكتبى تحديد الموقف ، وفى هدوء قلت له : ليكن الجواب على كل ذلك : سوف ندرس العرض .

وفى هدوء خرجت متجها إلى البيت لتدبير أمور رحلة حول العالم ، رحلة رأس مالها أكذوبة ، وممولها النهم وضحيتها القيم .







اخترت البداية نحو الشرق الأقصى ، فكثير من العابثين من الصحاب طالما تحدث وأسهب فى الحديث عن المتع واللذات الحسية والجمالية هناك . ورأيت بثاقب النظر أنها فرصتى المتاحة لأتستر - كما يفعل الأكثرون - وراء رحلات العمل والصفقات التجارية ويخادعون أهليهم وزوجاتهم ومجتمعهم . ورأيت الا أكون بدعاً منهم ، وتذكرت قول الشاعر ( سافر ففى الأسفار عشر فوائد ) ولعلى فى أكثر رحلاتى أدركت بضعا من هذه الفوائد العشر ، وهذه فرصتى - ربما - لأستكمل البقية الباقية من الفوائد ، رغم أننى اكتشفت فائدة لم تدر بخلد الشاعر الفاضل ، ولعلها الأهم من كل الفوائد العشر . تلك الفائدة هى الابتعاد - الاختيارى - عن الزوجة . غير أن مدير الشؤون الخاصة بالشركة - والذى يصحبنى فى أكثر رحلات العمل - لما له من باع طويل وخبرة جبارة فى شؤون ما وراء الرحلات - أجهض فرحتى بهذا الاكتشاف مؤكدا لى أنه ما من رحلة عمل لرجل أعمال الا وراءها زوجة رجل الأعمال ، حافزاً للهرب منها ، ثم ثنى بالمقولة الخالدة « فتش عن المرأة » . أسررت لمدير الشؤون الخصوصية بأمر الرحلة وطلبت منه تدبير الامور فحسنّ لى أن اصطحب معنا فى الرحلة السيد ( العَبِد أبو عمر ) والذى يعمل مديرا للعلاقات العامة ، لما يتحلى به من مرونة ومقدرة على أن يخيط لكل حالة لبوسها ، مشيراً بذلك الى احتمالات أو حتمية اجتماعى برجال الأعمال والصناعة - فى رحلة العمل هذه - وأن لا بد أنْ تثار أمور فنية وعلمية قد تفرض وضعاً حرجاً ، فيكون هو القديرَ على خلق سبل الخروج . وقد كان .

ولقد أُحْسِنَ استقبالنا هناك ، ووجدت برنامج عمل ولقاءات مكثفة سحابة النهار ، أما فى الليل فقد أعد مستقبلونا ، والساعون لاصطياد أسرار الاكتشاف المزعوم .. أعدوا فريقاً آخر يحسن الترفيه وسبله ، فلما عجزوا عن الحصول على

تفاصيل المشروع المزعوم ، والفضل لمدير العلاقات العامة الذى خرج على المجتمعين من رجالات الصناعة والمستثمرين بتصريحه - الذى أعتبره المنقذ - حيث أوحى لى بما أقول :

« اننا هنا بدعوة منكم لمناقشة الخطوط العريضة . واحتمالات المستقبل ، وأرجو ألا تتوقعوا منى مناقشة فى العمق ذلك لأننى هنا أمثل الجانب الإدارى فى شركتنا ، أما الجوانب العلمية والفنية فأمرها متروك لفريق الباحثين والعاملين ، وأرجو ألا تصدموا أو تصابوا بخيبة أمل لو قلت أن أمامنا الكثير من الوقت قبل أن نخرج بالمشروع إلى حيز التصنيع ، ومع أن احتمالات النجاح تكاد تكون مرئية فى المستقبل المنظور ، إلا أن جرعات من الفشل أو الصعاب لابد أن نتخطاها قبل ذلك » .

كان لخطابى هذا ، أو تصريحى المنمق ، فعل السحر ، وكان مثار الكثير من الجدل فى المجالين الصحفى والعلمى . وطيرت وكالات الأنباء تصريحى عبر شبكاتها . بعضها نقله بأمانة - رغم خلوه من الأمانة - وبعضها حرفت التصريح وأضافت اليه الكثير من المغالطات رغم أنه هو فى الأصل مغالطة . وكتبت إحدى المجلات العلمية المتخصصة تتساءل عما إذا كنت نصابا قادما من الغرب . وقال المحرر العلمى : « إن الأكاديميين لدينا لم يتفقوا على رأى بشأن موضوع تصنيع اللهب ، فبعضهم يشك فى إمكان ذلك ، وآخرون لم يخفوا صراحة احتمالات النجاح وأن الأمر جدير بالبحث » واستطرد المحرر مبديا رأيه الشخصى قائلا : « ان لهجة التصريح كانت متفائلة ، وإن تصريح الضيف بأن جرعات من الفشل تنتظر المشروع قبل الوصول الى شاطىء النجاح ، هذه اللهجة تجعل العقلانيين يميلون إلى أخذ الموضوع مأخذ الجدية » !

وكان لهذا التعليق مفعول السحر فى عالم الصناعة وأوساط الصناعيين ، وسرّب مدير العلاقات العامة أنباء دعوات تلقيتها من إتحاد الصناعيين فى أوربا الغربية ، ونبأ اجتماعى بوفد على مستوى عال من أوربا الشرقية ، فكان لذلك مفعول السحر أيضا ، وحملت وكالات الأنباء تلكم الاخبار عبر شبكاتها ، فتلقيت عروضاً مغرية من كثير من شركات الاستثمار لتمويل المشروع والمشاركة فيه . وإذ لزمنا الصمت أنا والملأ المقرب منى ، مدير العلاقات العامة ومدير الشؤون الخصوصية ، وتكتمنا الحديث - مرغمين - عن أسرار المشروع - حيث لا أسرار ولا مشروع - عمدت الشركات والدعوات الى الطابور الناعم مجندا كطابور خامس فأغرقونا فى ضيافات الليل وما أدراك ماهية .

وكان لزاما علينا – خشية فضيحة عالمية – أن نكون على أعلى مستوى من الحذر ، دون أن نحرم أنفسنا الاستمتاع بالمتوفر والمتاح بلا مقابل مادى .

وإذ أبيت – بدعوى أننى متزوج وأب لفتى وفتاة – أن أواصل المتعة بالمتوفر إلى نهايةالمتاح ، وأكدت الزبانيات أننى لست بدعا من رجال المال والأعمال ، وآية التاكيد ذلك ، ما عرض تحت نظرى من ألبومات تحوى صورا ناطقة لرجال كنا نعدهم من الأخيار ، وأوحت إلىَّ النفس أن أحذر الابتزاز ، فأكدت للمتوفر أننى لا أبيح لنفسى أن استثمر جهد وأفكار زوجتى فى الاستمتاع بالمباح . وفهمن – أو بعضهن – الرسالة الموحاة وتعمدت أن تكون الرسالة وكأنها فلتة لسان التقطها الطابور الناعم ، وقد كان فقد كتبت محررة الشؤون العلمية تحقيقا ادعت أنه ثمرة جهد ومغامرات ومعاناة صحفية ثم ادعت العلم فوق العلم قائلة : « وقد تأكد لنا إثر تحليل دقيق ومن مصادر لا يرقى اليها الشك أن زوجة رجل الأعمال هى التى ترأس فريق الباحثين من العلماء بالسعودية ، وقد لا نعدوا الحقيقة بكثير أو قد نقاربها لو قلنا إنها هى الرأس المفكر ، والعقل الباحث لهذا المشروع » .

وضحكت داخل نفسى : أى مصادر صحفية هذه التى لا يرقى اليها الشك ، وأى معاناة صحفية هذه التى خاضتها المجلة أو محررتها العلمية .

حمدًا لله أن أم محيسن لا تجيد القراءة والكتابة ، وبالتالى لا تهتم بالصحف والصحافة ، وإلا فماذا عساها قائلة لو قرأت الأخبار عن أنها هى العقل المفكر وراء مشروع تصنيع وتعبئة اللهب ، ولكن من لى بصويحباتها لاينقلن إليها الاخبار ، وماذا عساها تتصرف ، وقد تُعْلِنُ أن الأمر كله أكذوبة ، وقررت أن أستبق الحدث فكلمتها هاتفيا طالبا منها أن تلحق بنا ، أو تسبقنا إلى امريكا عاجلا صحبة ابن أخى ، وقد كان .

كان ابن عمى – السيد ثامر ، الذى يمثل مكتب المشتروات لإحدى كبريات الشركات الوطنية – فى استقبالى – والرهط الذى معى – ونزلنا بالسكن الذى أعده لنا لأجد أم محيسن قد سبقتنا فعلا ، وانبهرت كل الانبهار بالمنجزات المادية المتجسدة أمام ناظريها ولكنها لم تتسامح مطلقا وأخذت تسومنى الملامة كيف سمحت لنفسى أن أترك زوجتى تنزل فى ضيافة رجل – غير مَحْرم – وأخذت أقدم المعاذير وأوضح الأسباب فى حتمية التجاوز عن بعض الموروث من القيم عندما نضطر للتعامل مع المنجزات الحضارية . ولكنها أمسكت بتلابيبى – لاول مرة فى حياتنا – قائلة :

– ياراجل .. ياراجل هادا اسمه كلام ، أنا مراتك ، شعرة فى وجهك ، يعنى لو أبوك عرف الحكاية ايش يقول ، وعلشان كده أنا مارضيت أسكن عنده وحكّمت رأيى ، وراسى وألف سيف لازم أروح الأوتيل ، لولا خوفى من العصابات والحرامية ، وبعدين كلم جماعة سعوديين جاءت واحدة منهم عندى نامت معايا .

– خير ، الحمد لله ماصار شر ، وانتهى المشكل ، ليش الزعل بعد !

وحسبت أننى حسمت الامر لولا أنها استطردت قائلة :

– ما صار شر صحيح ، لكن الغلط غلط . تفتكر لما أولادنا ، وإلّا بلاش ، لما بنتنا هالة تنشأ على كده ، وتشوف إن السفر مع الأجنبى ممكن ويرضى به أبوها ، ثم السفر لوحدها والسكن مع غير محرم ، شيىء ممكن ممارسته ، تفتكر بعد كده ممكن تقنعها بالغلط والصح ؟؟ أبوك الله يخليه يقول اللى يفرط فى الصغيرة ، يفرط فى الكبيرة ، نهايته أجل لا نلوم الشباب .

لم أحسن سوى الصمت ، وأخذت بيدها لنطل من شرفة الفندق ، الذى اتخذناه نزلا . على المدينة الكبيرة تحتنا ونحن فى الدور الحادى والعشرين ، فصرفها الانبهار عن مواصلة الملامة .

ولقد أصبت بخيبة أمل كبيرة حين لم أجد الاستقبال الذى ظننت أننى ملاقيه إثر الضجة الإعلامية التى أثرتها بشأن تسويق اللهب ، واعتذر أصحاب الدعوات ، وأيقنت بأن علىّ أن أدفع مصاريف رحلتى هذه ، فرأيت أن أجعلها للنزهة والمرح وأعطى الفرصة لزوجتى للتعرف على منجزات الحضارة المادية الغربية .

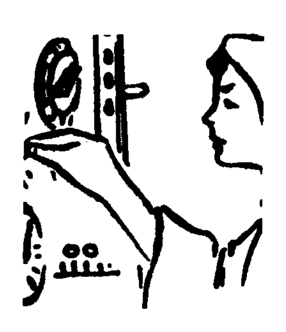
وأخذنا نطوف بالقارة .. نجوس خلال ولاياتها جميعا ، ولقد كانت حالة االانبهار الشديد واضحة على زوجتى ، أعجبت بالبلد وما وهبه الله من جمال الطبيعة ، كما أعجبت بيد الإنسان وما أضافت من إضافات جمالية وأخرى مادية جعلت هناك معنى أكثر التصاقا بالنفس لتعيش أو تعايش الحياة ، ولكنها – ويالعجبى – تقززت من وضع المرأة هناك حين وجدت أن أنوثة المرأة هناك أصبحت موجهة ومسخرة لترويج كل شيىء . كيف وجدت ذلك ؟؟ أعنى كيف – وهى النفس الساذجة – أدركت ذلك أو لمسته ، وكنت أظن أنها ستعود – كما فعل لداتها ممن يفقنها علماً ومدارك – داعية لحقوق المرأة ، وربما – مع شيىء كثير من التواضع – كونت لجنة أو جمعية لإنصاف المرأة أو تحريرها . وعجبت لهذا التناقض العجيب ، هذه امرأة محدودة التعليم والثقافة ذُلِّلَتْ لها الفرص ، فتقززت لما لمست من مُعْطَيَات حصول المرأة على جرعات فائضة من حريتها ، وأنا – وأمثالى من حملة الأسفار

وذوى المؤهلات – نجاهد ونتاجر بدعوى اطلاق اسار المرأة . وكدت أشقى بعقد المقارنة لولا أن صوت النفس من داخلى جاءنى ساخراً ليقول : لاتبتئس بمشاعرك هذه فإنما أنت – والأكثرون من أمثالك – تمثلون هيئة المنتفعين بحصول المرأة على الحرية وانطلاق الإسار ، كما فعل الغرب من قبل ، وأنتم على آثارهم مقتدون .

ورفضت هذا الاتهام – القادم من داخلى – ولكنها عادت تقول :

– تستطيع أن تخدع كل الناس ، ولكن نفسك هل تخدعها أم تخادع ؟؟ أنتم تطلبون الحرية وإطلاق الإسار للأخريات ، فهل تعلم أن زوجتك وابنتك وأختك هن الأخريات – أيضا – للآخرين .

هذه المشاعر وهذا الحديث مع النفس عكر على مزاجى ، فأويت مبكرا للنوم معللا النفس بأن « غدا يوم آخر ».





# ١١

كان صباحا نديا بعد ليلة مرهقة ، وقررنا أن نتناول طعام الإفطار بالفراندة المطلة على المروج المجاورة وعلى حمام السباحة بالفندق ، وقد كان . وكنت اتصفح صحف الصباح فى انتظار زوجتى ، التى كانت منشغلة بحمامها ومكياجها وقد طلبت إحضار الفطار ، كانت الساعة تقترب من العاشرة ، وأقبلت أم محيسن تماما كما وصفها الشاعر ، ( هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ) وقد لفت جسمها اللدن برداء من القطن المنسوج أحمر اللون ، يسبقها عطرها الذى أبدعت وبرعت فى انتقائه كما برعت فى انتقاء ملابسها . ولقد وجدتها - إن صح التعبير - من خير من تلبس لكل حالة لبوسها ، وآية ذلك هذا الرداء الأحمر اللون الذى ترتديه بعد حمامها .

استوت أو كادت على الكرسى المقابل ، وأصلحت بيديها طرف الرداء الذى انحسر فكشف عما أرادت ستره ، فلما فعلت انحسر من الطرف الآخر . وألقيت جانبا بصحيفتى التى كنت استغرقت فى تصفحها مستبدلا ذلك بما انحسر عنه الرداء . ولم أكد أفعل حتى نهضت مستوية ، ثم اتخذت من طرف الحاجز المعدنى للفراندة متكأً لصدرها ضغطت عليه به كأنما تجهض حركاته لتحول دون التعبير - إشارة - لما يموج به الصدر .

ونهضت أستبق مشاعرى وأحاسيسى . ولعلى هممت أن أخفف الضغط على المتكأ براحة يدى ، ولكن لفت نظرى استغراقها فى الصمت . وحَدَّسْتُ أن أمرا ذا بال شغلها عن الحديث والكلام ، فما قط عرفت منها الصمت إلا فى حالة استغراقها فى النوم ، فان أراها صامتة - وهى يقظة - فلا بد أن وراء ذلك أمر خطير . وتتبعت مسار نظرها إلى أدنى ، لأرى أنها ركزت نظرها على الحسان يستعرضن

الأجمل فى الأقل من الستر داخل حمام السباحة . واحتويتها من خلفها ، وشاركتها الاستعراض ولم تشاركنى أحاسيسى . ورضيت لنفسى ما أنا فيه ، واستمرأت الاسترخاء العاطفي والحسى . وفى حركة مفاجئة ، وأنا فى قمة استرخائى الحسى ، انفلتت من احتوائى لها وهرولت إلى الداخل ، فاختل توازنى لتصطدم جبهتى وأنفى بالحاجز الحديدى ، ولعل الاصطدام كان من القوة بحيث أدمت منى الثنايا العلوية .

وقبل أن أفيق من الصدمة ، جاء صوتها من الداخل عاليا فى لهجة خصام حاد وانفعال أكثر حدة . وهرعت إلى الداخل أستكشف الامر ، فإذا هى ممسكة بفتاتين من فتيات الفندق ممن أنيط بهما إصلاح شأن حجرات النزلاء وترتيب الأسِرَّةِ . وتطلعت أستجلى الأمر ، لأجدها ثائرة لوجودهما فى حجرة النوم مستنكرة ذلك ، وموجهة إلى نظرات الاتهام .

وحاولت جاهدا أن أشرح لها الأمر ومسؤولية الفتاتين . ولم يبد عليها الاقتناع الكافى ، وإن بدا أن نظرات الاتهام قد خفت حدتها ، وأشارت إلى إحداهما وكانت ممسكة بها من الجانب الخلفى من رقبتها فأجبرتها على الانحناء تجاه السرير ، فبدا لقصر ملابسها الخارجية مادون ذلك : بالشكل هذا الناس يرتبوا السرير ؟؟ باللبس هادا ؟؟ أجل لو كانوا يبغوا يفرفروا كان لبسوا ايش ؟؟

– يابنت الأجواد .. أجبتها محاولا توضيح الأمر :

– هادا سالف بلادهم وهادا لبسهم الرسمى . فيها ايه ؟

ولعلى تجولت بنظرى فيما أثار فضولها أو مشاعرها ، فتركتها من يديها لتضع كلتا راحتيها فوق وجهى لتحجب نظرى عن حرية التجوال . وسحبتنى – كالعتاد – من يدى إلى حجرة الانتظار أو الجلوس المجاورة . وطلبت منى أن أصرفها حالا إذ لا حاجة لترتيب الأسرةِ وأبدت استعدادها لتفعل ذلك بنفسها . وأقسمت ، مُصِرَّةً ، على أن تترك هذه البلاد .

– لا ، ما عاد لنا بقاء فى هذه البلد العريانة ، ملعونة الحضارة ، وملعون التقدم إن كان بهذا الشكل ، لازم لازم دحين دحين سَوِّى جوازاتنا ونرجع بلدنا ، أَسْتَرْلنا وأَصْوَنٌ لنا .

– لكن يا حبيبتى أنا هنا عندى عمل . إحنا فى رحلة عمل . عندى مشاريع خيالية وصفقات تعود علينا بخير كثير وقروش واجد .

ولم تتركنى أكمل حديثى فقاطعتنى قائلة :

– هو فيه خير يمكن يجى من بلد أخلاق أهلهت كدة . مالى شغل . سفرنى . ثم إحنا لنا كام يوم ماشفت أى عمل ، غير فسح وبس .

– ياحبيبتى ..

كذلك حاولت امتصاص غضبتها المضرية .

– احنا مخصوص حضرنا قبل مواعيد العمل علشان تكون عندك فرصة تتفسحى وتشوفى البلد ، إنت ماكنتى طول الوقت تزِنّى على إذْنى اشمعنى فلانة سافرت وراحت أوربا وأمريكا ولندن وباريس . ولما جبتك هنا ونفذت رغبتك تعملى كدا ؟ على أى حال ، أنا ما عندى مانع تبقى تسافرى . شوفى الجوازات فى المحافظ السوداء أخرجيها واحجز لك وتسافرى بالسلامة .

– نعم نعم ، رجلى على رجلك ، أنا اتجننت أسافر لوحدى وأسيبك هنا ، بعد اللى شفته بعينى ؟

– ايش اللى شفتيه بعيونك اللى يبغالهم ...

وجمدت الكلمات على شَفَتَىَّ .. فما قط اعتدت الإساءة إليها من قبل . ورأيت الإحباط فى عينيها . وتجسدت المخاوف – أو هكذا خيل الى – على صفحة وجهها ، فأمسكت عن الاسترسال فى الحديث . والتقطت ناحية الحديث قائلة :

– ليش سكت ؟؟ قول يبغالهم ايه عيونى ؟

واقتربت منها بحنان واحتوتها يمناى من الخلف ويسراى رفعت أسفل ذقنها إلى أعلى لتلتقى أعيننا واقتربت بشفتىَّ من عينيها قائلا :

– يبغالهم أبوسهم .

وتركتنى أفعل ثم ردتنى برفق قائلة :

– أيوه ! ما أحلاك فى سبك الكلام ، انتو كده يارجال تقدموا الكلام الحلو علشان تمرروا أغراضكم ، لكن برضه مانى مسافرة لوحدى ، إذا كان أنا معاك ولقيت بنتين فى الغرفة ولابسين عريان ، أجل لو سافرت يحصل إيه ، تفتحها جمعية ؟؟

– يابنت الناس ، فهمتك مهمتهم كده ، شغلهم كده ، أكل عيشهم كده .

فردت على ساخرة :

- هه ، أكل عيش ؟؟ والا أكل .. استغفر الله العظيم يارب .

وحسم الأمر رنين الهاتف ، وكان على الخط مدير أعمالى يذكرنى أن موعد الاجتماع بعد عشر دقائق . وأبعدت سماعة الهاتف محدثا إياها :

- خدى اسمعى ، الشغل ابتدا ، وأنا نازل علشان عندى اجتماع لدراسة مشروعنا اللى من أفكارك .

ولعلها دهشت قائلة :

- من أفكارى أنا ؟؟ ومشاريع ؟؟ يعنى أنا أفكر وحضرتك تبيع أفكارى ؟؟ ثم صمتت فجاة وكأنها تفكر ثم رفعت رأسها قائلة :

- هم فى امريكا يشتروا أفكار ؟؟

- ويبيعون كمان .

أجبتها كذلك .

- هنا فى أمريكا كل حاجة ممكنة . ممكن أى حاجة تتباع وأى حاجة تشترى وكله بالفلوس .

- طيب والله عال .

ببراءة قالتها . ولم أدرك ما ترمى إليه فتساءلت :

- ايه اللى والله عال ؟؟

قالت :

- قصدى إننى ممكن أنزل السوق وأبيع شوية أفكار . ياترى إيه الأفكار اللى بتبيعها عليهم ؟؟

- بس كيف تعرفى تتفاهمى معاهم ؟؟

وهنا أخرجت من حافظتها كُتَيِّبًا يساعد على الحديث باللغتين العربية والإنجليزية ، وضحكت لما فعلت ، وأيقنت أنها تهزل ، وتركتها لحضور الاجتماع بالدور الأرضى ، وكنت أظن انها سوف تخرج لمجرد القسم .

لم ننته إلى شيىء فى اجتماعنا وعزمنا عقد جلسات أخرى لمناقشة تفاصيل الصفقات المتبادلة . وقد استغرقت الجلسة أكثر من ساعات ثلاث قضيناها

فى محاولات أعتقد أنها غير أمينة ، إذ كان كل طرف يبحث عن مواطن الضعف - الخلقى أو المادى - فى الطرف الآخر .

انتهى الاجتماع ودلفت إلى الشرفة لتناول شيىء من المرطبات ، ومشاهدة المارَّةِ مُمَنِّياً النفس بفترة استرخاء ممتع .

ولم ينقض إلا قليل من الوقت استمتعت فيه بمنظر المطر يهطل مدراراوالمارة كل يحتمى بمظلته أو برداء من البلاستيك ، وإذا زوجتى فى الشارع تقبل مهرولة وقد ابتلت ملابسها ، فدلفت مسرعة إلى الداخل وأخذت مفتاح الحجرة مسرعة إلى المصعد .

فى أقل من ربع ساعة كنت قد لحقت بها ، لأجدها نضرة كثمرة حان قطافها ، وتلك إحدى ميزاتها الطيبة - على قلتها - إذ دائما تبدو مائعة ، متالقة . إذ نادرا ما تقع عليها العين غير متأنقة ، أو غير نضرة ، يفوح عطرها ليسبقها إن هى أقدمت أو يتبعها ان هى أدبرت .

أقبلت عليها هاشاً وقد انتهت من تصفيف شعرها وسألتها إن كانت استمتعت بالخروج . وكانت الفرحة تخرج من بين شفتيها كلاما يأسر السمع حتى ليخيل إلى أنها كانت تتنهد الكلمات . وما أفسد عليها استكمال فسحتها إلا هطول المطر . وأبدت أسفها لأن هطول المطر قطع عليها استكمال أو إنهاء صفقة العمر كما قالت :

- تصور يا بو محيسن .

وهيأت نفسى لتصور ماوراءها قائلا :

- أتصور يا روحى قولى ، عملتى ايه ؟

- فاكر موضوع الطاقة وأزمة الطاقة اللى شاغلة العالم ؟

ودهشت ، فأين هى وأفكارها - أو قدرتها على التفكير - من مشكلة الطاقة ؟ وراحت بى الظنون كل مراح :

- إيه حكاية الطاقة ؟؟ وإنتى ايه اللى فهمك فى الطاقة ؟؟ طيب دا أنا كنت باتناقش مع رجال الأعمال من ثلاث ساعات فى موضوعها ؟؟

- خلاص !!

قالتها وكأنها تطمئننى .

– أنا كان من غير لا أناقش ولا حاجة أنهيت الموضوع ، وبكره تشوف راح نكسب دهب .

– كيف ياروحى ؟

قلتها وأنا أمسك قلبى بيدى خشية حدوث ما لا تحمد عقباه .

– فاكر ، فى الراديو ، وفى التليفزيون ، وفى الجرايد كل الدنيا بتتكلم عن الطاقة وإن البديل هو الطاقة الشمسية ؟؟

– أيوه فاكر .

وازداد وجيب القلب .

– بس ايه اللى عملتيه ؟؟

– أبدا .

قالتها بهدوء قاتل ، ثم التفتت لتصلح من شأن شعرها أمام المرآة ، ثم استدارت مواجهة لى :

– انا لقيت الناس هنا كلهم ، ستات على كلهم رجال الواحد فيهم شايل معاه شمسية ، فهمتها أنا على طول .

وابتسمت لى ابتسامة خِيل إلى أنها تعنى بها ابتسامة النصر .

– إيه هيا اللى فهمتيها ؟

صرخت وقد كاد ينفد صبرى ، فقد كنت أتوقع أو أتوجس من سوء فهم قد يكون حدث .

– طيب وايش بك تزعق كده ؟؟

قالتها بلهجة عتاب ولكنها أجادت التلاعب بنغمات صوتها الذى جاء كأنه دعوة لعلاقة عاطفية .

– قصدى فهمت قدإيه الناس دول مهتمين بالطاقة الشمسية ولولا كده ما كان كل الناس ماسكين الشماسى ، ليل ونهار .

وضحكت لسذاجتها وربطها بين مفهوم الطاقة الشمسية واستعمال الشماسى وسعدت بطيبة قلبها وسذاجتها .

ولكن سعادتى بذلك لم تكتمل وتلقيت النقيض لذلك حين قالت :

– بس أنا فهمتها من هنا ، وعنها ورحت دخلت محل بيع الشماسى ، فى الشارع القريب وهو كان قدام عينى كده ، وعقدت معاهم صفقة إنما رايحة تأكلنا دهب .

وتتابعت دقات قلبى مما نوجست ولم أنطق بحرف فى انتظار شرحها ، وتركتنى واتجهت لتخرج من الثلاجة زجاجتين من عصير الليمون ، وقدمت لى واحدة قائلة :

– تشرب ليمون ؟؟

– اشرب ، نشفتى لى ريقى . قولى ايه الصفقة اللى عملتيها ؟؟

فتحت زجاجة الليمون ، وفى هدوء قاتل ، أسندت مرفقها الأيمن على متكأ قريب وأخذت تشرح الصفقة :

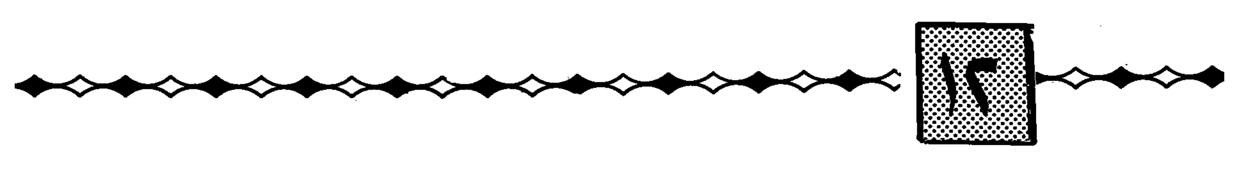
– قلت للمحل يرسل لنا على عنوان الشركة خمسة آلاف شمسية ، ولما سألوا عن طريقة الدفع قلت فورا ، وطلعت لهم الكرت الأخضر اللى أعطيتنى وقلت إننا يمكن نشترى به أى حاجة من غير ما ندفع فلوس ، وكلها نصف ساعة وانتهى الموضوع !! إيه رأيك موشطارة منى ، ماندفع فلوس ، ونأخذ الشماسى ويبقى حلينا أزمة الطاقة الشمسية ، وبالشكل دا نكون انت وأنا اول من حل المشكلة فى المملكة ، إية رايك ؟؟

– رأيى ؟؟ تسألينى عن رأيى ؟ بدل الطاقة الشمسية رايح أفتح طاقة فى نافوخك .

واندفعت تجاهها ، فاندفعت هاربة وسقطت على وجهها فانحسر الرداء وأسملت أمرى لله فى أمور الطاقة .







انقضى الليل او اكثره فى شرح معنى الطاقة وممارسات الطاقة ، وأوجه الطاقة ، وما معنى كلمة الطاقة ، وما هى الطاقة ، وما هى الطاقة الشمسية ، حتى اقتنعت هى بخطئها - وهذه إحدى فضائل أم محيسن ، من دون النساء - فما أقل من تقتنع بخطئها منهن ، وخاصة إذا كانت زوجة ، والأهم من ذلك أن يكون المُخْطَأ فى حقه هو الزوج . وسعدت فعلا باقتناعها .

أويت الى النوم مجهدا فكريا وجسمانيا إثر ما بذلت من الطاقة فى شرح أمور الطاقة ، وأنا أحلم بنوم عميق وقد مضى من الليل ما يكفى لقرب طلوع الفجر وكنت أعد نفسى للقاء الغد مع المغامرين فى موضوع استثمار مشروع النار السائلة الذى حِكْتُ نسيجه من حديث أم محيسن مع ابنتها عندما كنا نطير فوق المنطقة الشرقية

وإذ غفوت - ولم أكد - وإذا زوجتى استوت جالسة بجانبى فى الفراش فأغفلت ذلك ، وإذا بها بيد حانية ألقتها وألقت رسالتها تهزنى برفق :

- إنت نمت يابو محيسن ؟

قالتها وكأنها تهمس . ولأول مرة ، أنسى ضعفى أمام لمساتها وهمساتها فزعقت بعض الشيىء :

- ايه كان ؟؟ أبغى انام ، النوم كابسنى ، أرحمينى يامرة .

وبخضوع القطة الأليفة اعتذرت قائلة :

- يقطعنى ، يا حبيبى ، أنا آسفة ، بس كنت فَاكَرَتَكْ صاحى مانُمْت ، قلت أسالك سؤال محيرنى ، متأسفة ياروحى ، يالله الصباح رباح .

وانسلت تحت الغطاء قائلة :

تصبح على خير يا وجه الخير .

حاولت أن انام ، ولكن هيهات ، أسكرنى نداؤها فلقد مضى أجل وآجال معها لم أسمع هذا النداء ، يا حبيبى يا روحى . أسكرنى هذا النداء ، وأسلمنى إلى نداء ، ثم إلى حيرة !! ترى ما هو السؤال الذى أرادت تسألنيه ؟؟ ترى لماذا استعملت هذين اللفظين اللذين لم اسمعهما - منها - من آجال ؟؟ هل مرد ذلك كان موضوع الطاقة ؟؟

وأسلمت نفسى لأفكار وخيالات شتىء ، طردت النوم من عينى ، فالتفت ناحيتها ثم استويت جالسا وقد أزحت الغطاء عنى ، فكشف طرفا منها ، وهممت أن أسالها فوجدت عينيها - فى الظلام تبرقان ، وشفتيها تفتران عن ابتسامة وديعة .

- انت نمتى يا مدام ؟

سألتها بهمس ، فتثاءبت وفى صوت كأنه قادم من عالم الأحلام قالت - تقريبا - ماتنام إنت كمان .. تصبح على خير .

وضحكت عاتبة وأدارت جسمها إلى الطرف القصى ، وهى تخفى ضحكة لم يستطع صدرها أن يخفيها . وأيقنت انها تريد العبث فهى تعرف طبيعتى إذا شغلنى شاغل . وما شغلنى كان السؤال الذى أرادت أن تطرحه ، فقد خشيت أن تكون قد دبرت أمرا يفوق أمر الطاقة الشمسية . ومددت يدى فى الظلام لأجلسها فندت عنها صرخة احتجاج مكتومة قائلة :

- ايه دا ، مش تحاسب تحط ايدك فين ؟؟ ثم انت ما تبغى تنام ؟؟

- انام كيف ، وانت شغلتى بالى بالسؤال اللى شاغلك ؟؟ ممكن تقولى ايه السؤال ؟؟ ممكن أعرفه ؟؟ إنت عارفة طبعى ما يجينى نوم إذا انشغل فكرى !!

وردت متثائبة فى عبث :

- مين شغل بالك ؟؟ اللى أخذه يتهنا به .

ورأيت أن أحسم الأمر وقد شعرت بأنى مغلوب أمام عنادها فتظاهرت - بعصبية - بعدم الاهتمام وقلت فى لهجة الوسطى ، وذلك طبعى تغلبنى اللهجة إذا ما استثرت :

- زين ، عساكى ما تقولين ، أنا أبى أنام ولانى صاحى إلا الظهر ، هَهْ تصبحين على خير .

وشددت الغطاء فوقى ، والقيت بالوسادة الاضافية فوق أذنى . ولعل غفوت أو كدت بعد أن غلبت حاجتى الى النوم على التوتر العصبى . ولعله مضى بعض من

الوقت فلما حسبت أننى غفوت ظَنَّتَ أننى أعاندها فاقتربت أكثر من القرب وهمست حانية فى أذنى :

– إنت زعلت يا غالى ؟

وسمعت الهمسة ولكن هيهات فقد كنت أرى فيما يرى النائم إحدى فاتنات هوليود تناغينى ، واستطردت فيما أتاح لى الحلم ، وفى اللحظة غير المناسبة استيقظت وأم محيسن تهزنى بحنان

– انت زعلت ياغالى .

وكان لابد لى من صبر أيوب وحلم أحنف حتى أحلم عليها لما فوتت على من الفرص التى قل أن تجود بها الرؤى ، فأزحت الغطاء واستويت جالسا فى حنق عظيم لم يذهبه عنى إلا أن أجد نصفها الأعلى قد أحاطنى من الخلف وذراعها تحيط بى قائلة :

– أنا آسفة ، إنى زعلتك وما تهون على تنام وانت زعلان .

– يا بنت الأجواد ، مانى زعلان ، بس نعسان ، وأبغى أنام .

– لا ، إنت زعلان .. ليه .. ما أعرفك بعد العشرة دى كلها ؟

واقتربت أكثر فأكثر .

– يا ستى أحلف لك إنى مانى زعلان ، وإنى نعسان وإنى ...

فوضعت سبابتها على فمى لتسكت من اندفاعى وطلبت البرهان على أنى غير زعلان :

– طيب أثبت لى إنك ما انت زعلان ، هه ، أثبت لى ، أثبت لى طيب .

– يا بنت الأجواد هداك الله كيف أثبت لك بس ، النوم كاسر رَقَبَتى وما عندى طاقة ولا حيلة أثبت لك إنى مانى زعلان .

– إيوَه هيه دى اللى بدى أسأل عنها ، قل لى هو رمضان متى يجى ؟؟ .

وشككت فى سمعى وأن ربما أخطأت السمع ولكنها أعادت القول ، وهنا شككت فى سلامة قواها العقلية .

– نامى يا بنت الناس ، والصباح رباح ، أخدك لطبيب نفسانى .

هكَذا أجبتها وتهيأت لأ نام ، فشدتنى وحالت دون ذلك - شوفو يا ناس الراجل ، أسألك عن شهر رمضان ، تقول دكتور نفسانى ، ليه أنا مجنونة ؟؟

- لا أبدا ، سلامة عقلك بس أنا قربت ، ثم يا ستى شهر رمضان فاضل عليه ثلاثة أو أربعة شهور ، ارتحتى !! ثم ليه بتسألى عن رمضان ؟؟

- أبدا يا حبيبى ، بس بأسأل علشان ليلة القدر ، هيا ليلة القدر فى رمضان والا لا ؟؟.

- اللهم طوَّلك يا روح . تنهدت من غلبى ، وأجبتها :
- فعلا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان .. وياريتنى شفتها قبل ما أشوفك .
- أنا كان ياريتنى أشوفها .. متمنية إنى أشوفها .. نفس أشوفها .

- بسـيطة :

قلتها بضيق ظاهر وصبر يحسدنى عليه المتزوجون :
- اتعبدى لله وسوِّى طيب فى جوزك وانت تشوفيها .
- ياسـلام ، نفس أشوفها علشان أعرف .
- علشان تعرفى إيه يا شيخة ، إرحمينى وخلينا ننخمد شوية .. الفجر قرب يطلع .
- يا سيدى ، إنت ما سمعت أم كلثوم بتقول إيه ؟؟ فما أطال النوم عمرا ولا قصر فى الأعمار طول السهر ؟ .

- صدقت يا ستى وعارف إن ما قصر فى الأعمار طول السهر ، إنما الشيىء اللى بتسويه دا هو اللى يقصر فى الأعمار ، داحين عرفت ليه الأرامل عددهم كبير فى الأرض .

- خلاص ، خلاص ، بس كلمة واحدة باقية وبس ، تعرف أنا ليه نفسى أشوف ليلة القدر ؟؟ علشان بيقولوا إنه تنفتح طاقة فى السماء إسمها طاقة ليلة القدر .

وجاريتها قائلا :

- بيقولوا .

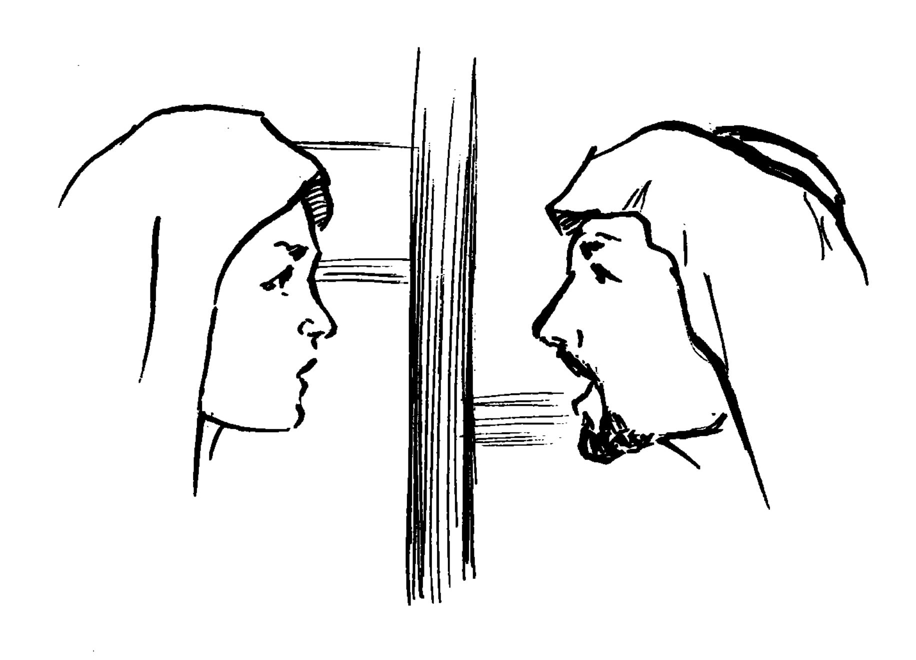
- بس ياترى طاقة ليلة القدر دى برضه زى الطاقة الشمسية والطاقة القمرية ؟؟.

وهنا أمسكت برأسها أدسه فى المرتبة والوسادة قائلا :

- قسما عظما إن ماانخمدتى لأفتح فى راسك طاقة أكبر من الطاقة الشمسية .

وتركت كلتا يدى تغرس رأسها بين الوسادة والمرتبة وهى تقاوم الضحك . وبدون ذلك لم يكن ليتيسر لى النوم .







فشلت كل محاولاتى فى تسويق الغش والخديعة ، إذ اكتشفت أننى كمن يبيع الماء فى حارة السقايين ، فبعد خبرة عشر سنوات فى سوق الغش والنصب والاحتيال وفى بورصة بيع وشراء الذمم ، بعد عشر سنوات خبرة وجدتنى كهاو أمام أباطرة محترفين فى فن عقد الصفقات وشراء الذمم ، فالقوم هنا يبيعون ويشترون الذمم بالملايين ، وذلك صفر التدريج عندهم ..

ووجدتنى أسير فى الركاب ، فقد انتحى بى بعض ممثلى الشركات العملاقة وعرضوا على شراء أسم الشركات التى أمثلها وأمتلكها فى أن أكون واجهة وطنية فقط إذ علموا أن مشروعا إنتاجيا مطروح للتنفيذ ، وأبدوا رغبتهم الصادقة فى القيام بالتنفيذ مشاركة معى ، أنا باسمى وهم بإمكانياتهم التقنية والمادية ، وذلك مقابل حفنة من الملايين بالدولار .

وعند هذا الرقم كانت محاولاتى فى المقاومة قد انهارت تماما وعقدت الاتفاق المبدئى .. وناولنى ضابط الاتصال ملفا كاملا مستوفيا الدراسات والخرائط والتفاصيل الدقيقة وكمية العرض وحدود ما أتقدم به .

ورأيت أن أسأل – وليتنى لم أفعل – عن سبب اختيارهم لى كواجهة فكانت الحيثيات أولًا أن لى أسماء بارزة فى عالم المقاولات حيث أنا ، وثانيا : خامة طيبة كنصَّاب ، وثالثا : روح المغامرة . وأمام المبلغ المعروض ابتلعت كرامتى – كما تعودت من قبل مقابل أقل من المعروض – .

وعدت وفى يدى فُرَاطَةٌ – أو فكة – فى حدود ملايين معدودة للمصاريف غير المنظورة لتذليل بعض الصعوبات ، ولتليين بعض المعارضات . ورضيت من الغنيمة بالإياب ، على الأقل عوضت خسارتى فى صفقة الطاقة الشمسية التى تسببت فيها زوجتى أم محيسن .

وقررت قبل العودة أن أصطحب أم محيسن فى رحلة إلى ولايات الغرب ، والشمال ، فهذه فرصة لرحلة العمر . وقد كان .. واستمتعنا بزيارة شلالات يناجارا . وفيما كان الجميع مأخوذا بروعة المنظر كانت أم محيسن مستغرقة فى تفكير عميق . وحمدا لله أن لم يكن بين رفاق الرحلة من يتكلم العربية ، اذ بعد التفكير العميق سألت :

– هو البارح نزل مطر ؟؟

فأجبتها :

– لست أدرى

فضحكت ساخرة :

– هى دى يحتاج لها أدرى وما أدرى كمان ؟؟ .

– أيوه يا ستى ، أنا ما أدرى ، وكلمة ما أدرى ترفع قدرى .

وعاجلتنى بالاجابة :

– لكن أنا أدرى .

– تدرى إيه يا بنت الناس ؟؟ تدرى إن كانت نزلت مطرة البارح والا لأ ؟؟ .

– طبعا نزلت مطرة البارح .

قالتها وهى واثقة كل الثقة . فقاطعتها :

– واثقة جدا من نفسك ، طيب بأمارية إيه يا ستى ، منين عرفتى إنه البارح نزلت مطرة ؟

فأطلقت صرخة ضاحكة لا ينقصها الكثير من السخرية :

– بأمارية إيه ؟ بأمارية السيل اللى ماشى .

– السيل؟؟ سيل ماشى ؟؟ هو فى سيل يا ستى ؟؟

– السيل أهه قدامك .

وهنا وجدتها فرصة لأرد لها الكيل على ضحكتها الساخرة بضحكة أكثر سخرية .. وفى هدوء شرحت لها الموضوع وأن ما تراه هو النهر وحمدت الله على مرور الحادثة بسهولة .

قضينا الأمسية فى أحد النوادى الليلية ، وفى الواقع لم نقض من الأمسية فى النادى سوى نصف ساعة وتركناه خشية الفضيحة ، إذ أن أم محيسن لم تكد تشاهد بدء الاستعراض حتى ثارت لكرامة بنات جنسها ، وامتهانهن بعرض الأجمل فى الأقل ، وما دون الأقل . فآثرت الانسحاب خشية ما قد يحدث فيما لو غضبت أم محيسن غضبة مُضَرِيَّةً ، نصبح بعدها أحاديث الصحافة ، وشعرت بأننى بانسحابى المبكر قد أديت خدمة وطنية للعروبة وسمعة العرب وذلك باختزال فضيحة واحدة لا تضاف إلى الرصيد .

ومن الغداة كنا نأخذ القطار باتجاه الغرب لنحط الرحال فى إحدى مدن ولاية الجبال ( روكى ) ، وبعد أخذ قسط وافر من الراحة كنا مع مجموعة من السواح نزور مناطق الينابيع الحارة . وكانت مناظر تأخذ باللب خاصة وأن بعضا منها تكون المياه المتدفقة من الجوف إلى أعلى تكاد تصل حرارتها إلى درجة الغليان .

وسألت أم محيسن – وحسنا فعلت ، أعنى حسنا أنها سألت ولم تقم هى بالاستنتاج – عن السر فى اندفاع المياه وبهذه الدرجة العالية من الحرارة . وأخذت أشرح لها السر ، وأن باطن الأرض يموج بالحرارة ، وأن ما فى باطن الأرض من الطاقة الحرارية يجعل الصخور والمعادن مذابة . وضربت لها مثلا بالبراكين . وظننت أنى أجدت الشرح لدرجة الإقناع ، لولا أنها قالت :

– هو فى أمريكا عندهم الطاقة فى الأرض ؟؟

فأجبت بالتأكيد ، فهزت رأسها اقتناعا وقالت :

– فهمت . علشان كده احنا عندنا فى مكة السَّمُوم اللى يكوى ويسلخ الوجه .

فأحببت أن أصحح معلوماتها بأن حر السموم فى مكة والجزيرة العربية إنما سببه كوننا نعيش فى المنطقة المجاورة لخط الاستواء ، وأن السموم بفعل حرارة الشمس ، ولكنها رفعت سبابتها مشيرة بالنفى :

– لا وانت الصادق بالعكس .

وسألتها :

– وما هو العكس هذا ؟ فقالت :

– السبب أنهم فى أمريكا عندهم الطاقة فى الأرض إنما إحنا الغلطة عندنا أن الطِيَقْ بنعملها فى البيوت ، علشان كده الحرارة والسموم يدخل علينا من الطاقة ، ولولا نقفلها ونشغل المكيفات كان ربنا يستر .

ووضعت راحتى على فمها لأكتم طاقة الجهل !

وقضينا بضعة أيام نتجول ونجوس فى ولايات الغرب وأم محيسن تتحفنى فى كل ولاية بتحفها الفكرية . وقررت العودة عن طريق الشرق الأقصى ، وبمراجعة الممثليات المعنية لأخذ سمات الدخول والعبور ، لفت نظرى الموظف المختص فى أول مراجعة أن جواز سفرى تنتهى مدته بعد أيام مما يعوق حصولى على التأشيرات اللازمة ، وأخذت الجوازات لتجديدها عن طريق القنصلية السعودية ، وهناك وجدت مفاجأة العمر ، إذ لفت نظرى سيادة القنصل إلى أن هناك كشطا فى جوازى وتغييرا فى محتوياته . فأكدت له غير ذلك ، ولكنه بكل أدب قدم لى الجواز لأجد فيه كشطاً واضحا أمام كلمة المهنة حيث كان مدونا بها ( رجل أعمال ) وشطبت كلمة « أعمال » واستبدلت بها كلمة ( شادية ) . فوجئت بذلك وعرفت أن ذلك من فعل نباهة أم محيسن ، واعتذرت لسعادته شارحا أن خطأ ما قد حدث ، وأن الغد لى لقاء معه لتوضيح ما حدث .

وعدت لتوى تغلى الدماء فى عروقى ، واندفعت داخل الفندق إلى المصعد إلى حيث أم محيسن ، وقذفت فى وجهها بجوازى طالبا منها تفسيرا ، فإذا بها تطالبنى أنا بالتفسير قائلة :

– وكان لك وجه ، بس خلينى ساكتة على ما عندى . أنا قلت أسكت طالما إحنا فى بلاد الغربة ، بس نوصل بلدنا وأنا اشتكيك على أبوك .

وتهدج صوتها وانخرطت فى بكاء مرير :

– أنا ، بعد العشرة دى كلها وأنا فاكرتك رِجَّالِى قدام الله وخلقه ، تقوم تفضل عليّا الست أعمال ؟؟ قل لى من هيا دى ( أعمال ) اللى ما غسلت وجهها ؟ وكان تكتب فى الجواز أنك رجالها . أنت رجل أعمال وإلا رجل شادية ؟؟ بدى أعرف مين هيَّادى ( أعمال ) .

وصرخت فى وجهها :

– هناك أحد فى الدنيا يسمى واحدة ست ( أعمال ) ؟؟ .

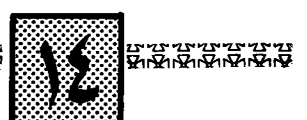
– طبعا فيه ، ما دام فيه واحدة اسمها (آلاء ، وآثار ، وآيات ) ، أنا إيش عرفنى ؟؟

وطيبت خاطرها – كما هو مكتوب علىَّ ، وللحب أحكامه – وشرحت لها ما خفى من أعمال ، وطلبت منها أن تذهب من الغد إلى الممثلية لشرح ما التبس من الأمر والحصول على جواز جديد .

ولست أدرى هل رثى لى الرجل ، أم أنه جاملنى وصدق الواقعة ، وما انتهينا من الأمر حتى قررنا العودة عن طريق الشرق ، ومن يدرى ما يأتى به الغد .







كان عندنا المساء كله دون ارتباط ، فأمامنا أربع وعشرون ساعة قبل موعد المغادرة ... وفكرت فى وسيلة وداعية تترك عندنا ذكراها قبيل ان نترك بلاد العم سام . كان المساء نديا . وفكرت هل نذهب – زوجتى وأنا – إلى أحد النوادى المحترمة حيث نقضى وقتا مسليا بين الموسيقى والعشاء والرقص ؟؟ وأوشكت أن أفعل لولا هاجس داخلى سألنى – وكأنه على علم بأخلاقيات أم محيسن – سألنى الهاجس : « ماذا تقول لها لو دعوتها الى المراقصة » ؟؟ وأسلمنى هذا السؤال الى ما يمكن أن يحدث فهى أولا لا تجيد الرقص أو حتى تعرفه ، ولا تزال تردد كلمات والدتى – رعاها الله – من رَقَصْ نَقَصْ .

وارتفع صوت الهاجس ، ليس هذا ما قصدت يا غبى !! وتذكرت فأنا أجيد الرقص الغربى إجادة يحسدنى عليها الأكثرون ، وذلك نتيجة الممارسة وبعض وسائلى فى الحصول على المتعة المتاحة للأزواج فى غياب الزوجات ، وخاصة فى رحلات العمل المتوالية . وتصورت أنى دعوتها ونفذت ، فأنا أعرف الموشح الذى تبدأ به رحلة العتاب « ماشاء الله ، فين اتعلمت الرقص بالشكل ده ؟؟ ها !! فهمت إلا د من الصرمحة مع .... » وتصوت أى خناقة عائلية ممكن أن تحدث ، ولذلك صرفت الفكر نهائيا عن قضاء السهرة فى النادى ، ماذا إذا ، وأين إذا ؟؟.

فكرت فى زيارة أحد المسارح الخفيفة ، ولكن برامجها مهما كانت خفيفة ، فهى ثقيلة على أخلاقيات أم محيسن ، وصرفت النظر عن هذا ايضا .

كان الليل نديا ، والهواء منعشا ، فرأيت أن نتناول طعام العشاء لدى إحدى الكافيتريات المنتشرة ، بعد أن نكون قد قضينا من المشى والتنزه . وعرضت الفكرة ، فاستجابت لها بحماس ، وكأى عاشقين لففنا ذراعينا حول خصرينا ، وأخذنا نمشى الهوينا فى خطى متناسقة وكان يمر بنا العشاق والمستهترون وقد التصقوا مثنى ، مثنى، وسكون الليل ، وطراوة النسيم كل ذلك كان يوقد شرارة النزوات فيستجيب

الأكثرون . ولم يعجبني ألَّا أشارك الأكثرين . ولكن أم محيسن كانت لها آراء غير ذلك ، فما أن هممت حتى سَلَّتْ يدها من حول خصرى قائلة فى عتاب :

– وى ! انت جرى لك إيه يا راجل ؟؟ فوق لنفسك ، لا يا خويا ، أنا ما نى منهم ، اصحى لنفسك إنت هنا مع مراتك .

وأجهضت مشاعرى التى أشعلتها البيئة المحيطة ، وأدركت قيمة النصيحة التى نصحنيها الأكثرون فى أن رحلات – العمل – لا يستحسن فيها اصطحاب الزوجات .

اقتربت منها ثانية أربت على كتفها الذى احتضنته بين كفى قائلا :

– عندك حق يا روحى أنا غلطان ، بس أعمل إيه أصلى حبيت أعبر لك عن حبى لك ، بس يمكن المكان غير مناسب .

وظننت أنى أحسنت التصرف ، ولكنى فوجئت برد الفعل منها إذ قفزت متعلقة بعنقى ، وغمرت وجهى بقبلات ملتهبة أطفأتها فوق شفتى . وأعترف أن للمفاجأة وقعها ففشلت فى انتهاز الفرصة ، وعجبت لتناقض تصرفها ، فمنذ لحظات حين شعرت أننى هممت – ولم أفعل – سلت يدها من خصرى وأبعدتنى بقارع من العتاب ، ولما أمسكت واكتفيت بالتعبير اللفظى كافأتنى بالتعبير الحسى . وعرفت صدق القالة إن الحب – ولو بمجرد التعبير اللفظى – هو أكسير الحياة للزوجات .

وتراءى أمامنا مطعم يقدم المأكولات الشرقية كما ظهر من إعلاناته « شيش كباب » ودلفنا إلى هناك ، وكان صاحبه من أرض الكنانة ، فأحسن وفادتنا حين عرف أننا من أرض الحجاز .

واقترحنا عليه عشاء خفيفا فأردف فى لهجة ابن البلد الأصيل الاسكندرانى « لا يا أستاذ ولا مؤاخذة يا مدام ، دانتو ضيوفنا ، دانا حنعملولكم عشا ، إنما إيه » ، وجمع أطراف أنامله اليمنى إلى فمه وأصدر صوت قبلة « حتاكلوا صوابعكو وراها ، لأسيبو الحكاية دى عليا » واقترب من أم محيسن :

– ايه رأيك يا ست هانم أنا حنعملولكم فتة راس ، علينا النعمة حتفتكرونى بها وانتم فى الحجاز عند النبى هناك ، أمانة تسلموا وتقروا لى الفاتحة هناك .

ثم انحنى ثانية تجاهى فى حنان دافق :

– راس إيه ، وشرفك يا استاذ خروف إنما إيه لَبَّانِى .

وقد كان . وبالغ فى إكرامنا وأشرف على طلباتنا ، حتى إذا أكلنا هنيئا وتهيأنا للخروج رفض أن يأخذ ثمن ما أكلنا ، وأقسم ألا يفعل :

– عليا النعمة ما واخد ولا مليم ، خليها عربون محبة ، وان شاء الله ناوى آجى

السعودية وأعمل الحج والزيارة ، وهناك تبقوا تكرمونى برضه ، ما هو إنتم أهل الكرم والأخلاق ، علشان خاطرى يا مدام .

التفت تجاه أم محيسن التى وقفت مشدودة لهذا الخلق الكريم :

– أكرمونى فى دى علشان خاطر ربنا وخاطر النبى .

ولم نجد مفرا من القبول ، وقدمت له بطاقتى مسجلا بها عنوانى وتلفوناتى ، فلعله لو صدقت أَمَانِيُّهُ يزورنا . وبالمقابل قدم لى بطاقته الشخصية لأفاجأ انه حامل لمؤهل عال فى القانون . وعلمت أنه هاجر لظروف قاهرة وطاب له المقام حيث تيسرت له سبل العيش .

وعدنا – كما أتينا – سيرا على الأقدام – نستمتع بالليل والنسمات الحلوة ، وكان حديثنا أكثره عن المطعم وصاحبه .

وفجأة ، تباطأت خطوات زوجتى ، ثم ثقلت وكانت كأنها تجر خطواتها جرا ، وثقل جسمها فى يدى التى كانت تلتف حول خصرها اللدن ، ومالت برأسها على كتفى . وظننت أن الليل والنسيم العليل ومداعبات يدى وأصابعى قد حركت فيها أنوثتها ، ورأيت أن من واجبى الاستجابة فانثنيت لأقبلها – فنحن فى أمريكا – ولكنها برفق صدتنى قائلة :

– يابو محيسن أنا دايخة ، مانى قادرة أمشى .

وظننت أن الطعام لم يوافقها فأثقل على معدتها ، فأخذت ألعن الرجل ومطعمه وألعنه ورأس الخروف ، وأقعدتها أحد الكراسى الخشبية المنتشرة على الكورنيش ريثما ترتاح بعض الشيء فنواصل السير إذ لم يكن النزل ببعيد أكثر من مائة متر أو أكثر قليلا ، وأخذت أحيطها بكل ما تدفق داخلى من حب وحنان فوسدتها صدرى وتناولت يدها أقبلها مرددا : « يا بعد روحى » . وأمسى تنفسها عميقا . وقبلت – حنانا – شعرها ورأسها وعنقها ، فلما أفاقت فتحت عينيها باسمة وانفرجت شفتاها قائلة :

ما كنت فاكرة إنك تحبنى قد كده .

واعتدلت وقد نسيت وقارها وتعلقت بعنقى .

– يا بعد كبدى ، كيف ما أحبك ، وانت وجه الخير ، ربنا بسط لى الخير على قدومك عطيتينى العيال ، ولا يوم شفت منك زعل أو خصام .

– ولا حتى حكاية الطاقة الشمسية ؟؟ ..

قالتها ضاحكة فأجبتها :

– لا ، ولا هذه . بس حكاية رجل شادية هذى هى اللى زعلتنى شوية . معناهاانك تشكين فيا .

وتضاحكنا ثم نهضنا نواصل السير إلى الفندق وقد استعادت قواها . وما أن دلفنا حجرتنا حتى عاودتها الحالة ثانية ، ففزعت إلى الاستعلامات أسألهم عن طبيب لإسعاف زوجتى . ولعله كان للفندق طبيبة ، إذ لم تمض أقل من عشر دقائق حتى كانت طبيبة الإسعاف تطرق الباب . وبعد الكشف طمأنتها وأعطتها عقارا لتخفف من الحالة ، شريطة أن نراجع الغداة الطبيب المختص . وقبل أن تخرج الطبيبة جرت زوجتى إلى الحمام لتخرج ما فى بطنها قذفا . ولمع فى ذهنى خاطر تحمست له لولا عدم توفر الامكانيات . فقد حدثتنى نفسى بالكى خير علاج لمثل هذه الحالة .

أكدت الطبيبة ضرورة مراجعة المختص غدا . وخرجت مبتسمة كما دخلت . ومن الغد كنا لدى الطبيب المختص بالمستشفى المجاور بعد أن حجز الفندق لنا موعدا . وبعد الفحص السريرى طلب فحصا مخبريا . وواعدنا المساء للنتيجة ، وكان أن سألها إن كانت هذه الحالة تأتيها لأول مرة ، ولكنها نفت ، وأكدت تكرارها ، الأمر الذى أزعجنى . وظللت – فى لهفتى – أثقل على الطبيب فى السؤال ، ولكنه طلب منى انتظار نتائج الفحص المخبرى مؤكدا لى فى الوقت نفسه أن لا داعى للجزع .

مع الموعد المضروب كنا عند الطبيب الذى استقبلنا هاشًّاباشًّا . وجرى الحديث بينى وبينه عجبا . ففى الوقت الذى كان يبشرنى بأننى سأصبح أبا ، كنت أناقشه استحالة إمكانية ذلك ، مطلقا . وعجبت زوجتى للهجة الحديث الدائر وظنت أن ربما كان مرضها خطير فتدخلت – بالعربية – تسألنى :

– ايش فيه يابو محيسن ؟؟ خير إن شاء الله !! عسى مرضى موخطير ؟؟

فطمئنتها عدم الخطورة وأن الطبيب المجنون يظن ، « بل يؤكد انك حامل » فقالت بطمأنينية :

– طيب وفيها إيه ، ما نى عارفة إنى حامل .

وجن جنونى :

– كيف تكونى حامل ؟؟ كيف بس كيف ؟ فابتسمت قائلة :

– زى كل البشر والبركة فيك ..

وفى ثورتى قلت :

– يعنى إيه ؟ . ما يمكن ها الكلام .

– طيب فهمنى ليه ما يمكن ؟؟ بهداوة بس ، ليه ما يمكن . ما هو كل البشر على دا الحال ، فيها إيه ؟؟

– فيها إيه ؟؟ كيف فيها إيه ، أجل إنتى وقفتى استعمال الحبوب ؟؟

– حبوب إيه اللى وقفت استعمالها ؟؟

قالتها ببراءة فقلت لها :

– حبوب منع الحمل .. آنا ما جبت لك خمس كراتين وقلت لك على طريقة استعمالها ؟؟

– أنـا ؟؟

صرخت قائلة :

– أنا ، جبوب منع الحمل أنا استعملتها ؟؟

– أجل من يستعملها .. أنا ؟

– طبعا يا حبيبى . هو أنا رحت للدكتور ، والا كشف علىَّ ؟ إنت جبتنى ديك السنة وقلت إنك رحت للدكتور وكتب لك على هذه الحبوب وإنها لمنع الحمل . إيش عرفنى أنا يا حبيبى بالطب ما دام انت رحت للدكتور وهو كتب لك الدوا ، قلت فى بالى الأدوية لك .

وبانفعال سألتها :

– قصدك تقولى إننى الان ومن ثلاث سنين أنا اللى باستعمل حبوب منع الحمل ؟

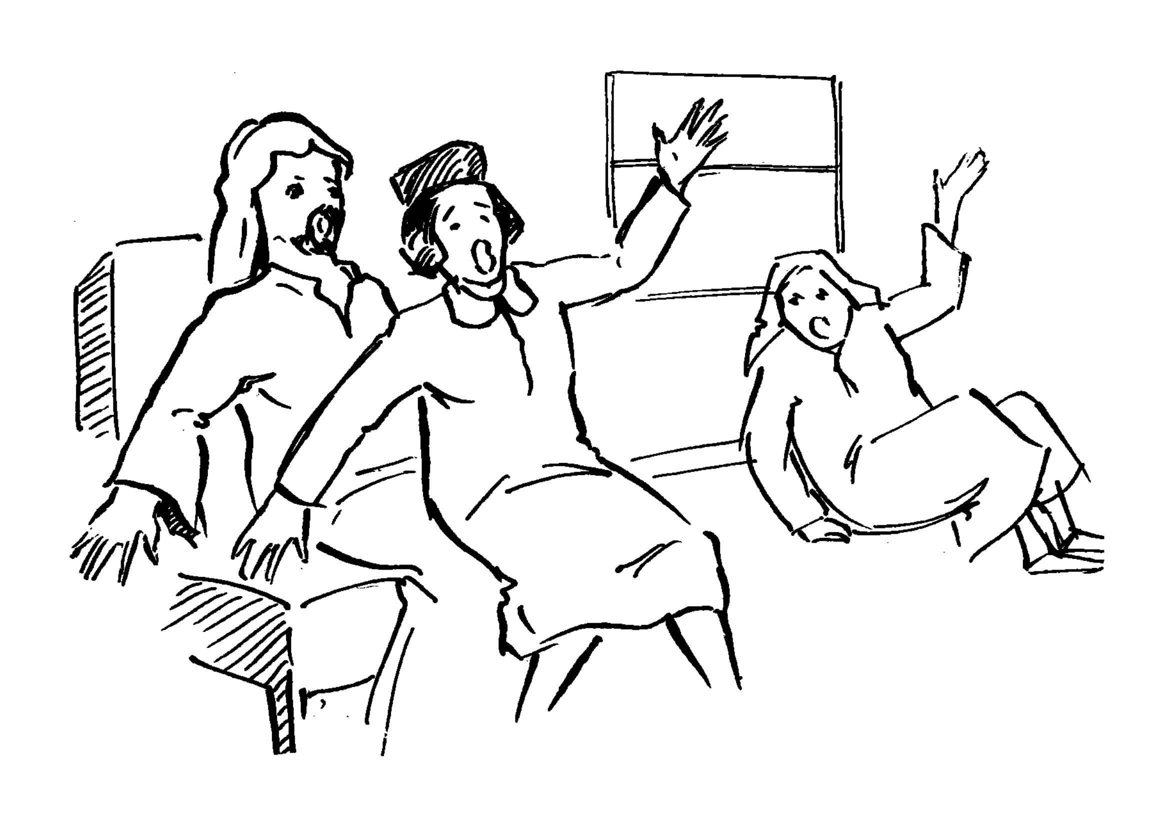
– طبعا يا حبيبى ، فيها حاجة دى ؟؟

وانفجرت ضاحكا :

– علشان كدة انا شايف حيلى طايح ، وأحوالى ماهى مضبوطة . أتارى علشان لى كم سنة وأنا استعمل الحبوب ، حسبى الله عليكى يا مرة ، عمرك سمعتى إن راجل يستعمل الحبوب .

– وأنا إيش عرفنى يا روحى ؟ ما أنا دائما أسمعك تقول لأولادك إنك إنت حملتهم فى صلبك حتى وضعتهم ؟؟

وكاد أن يغمى علىّ من الضحك . ولما شرحت للطبيب الوضع انفجر ضاحكا ولم ينس أن يوصينى بضرورة إعادة الكشف على أنا شخصيا ، تحسبا لما قد يحدث .



# ١٥

نصحنا الطبيب بتأجيل الرحلة أياما معدودة نظراً للحالة الصحية وما استجد على حالة أم محيسن . وكأىَ عاشق له فى آحشاء حبيبته بضعة منه ، كنت أكثر شيء حرصا على زوجتى . وحرصت على ألا تقوم بأى نشاط ، ولعلى بالغت بعض الشيء ، ولكن ذلك أكد لها أىَّ عاشق أنا ، وأى زوج أنا فأرضاها ذلك أيما رضى .

وخلال الأيام التى فرض علينا البقاء بالمدينة رأيت أن أجرى بعض الفحوص الطبية لأتأكد من سلامة وضعى الذكورى بعد استعمالى - بالخطأ - لحبوب منع الحمل أكثر من سنوات ثلاث ، وصارحت الطبيب المختص بالحقيقة . وبدأنى بالسؤال عما إذا كنت قد توقفت عن استعمالها ، ومنذ متى انقطعت عن ذلك ؟!

واكتشفت أننى لم اتوقف عن استعمالها بعد علمى ، ولعل ذلك كان بحكم العادة والتعود ، وعجب الطبيب لأمرى ، وفى أثناء إجراء الفحص السريرى كان يسألنى ما إذا كنت أحس بأحاسيس أو مشاعر معينة ، وكان يرشدنى إليها فأشير ايجابا ، ولم أكن أظن أن لتلك الأحاسيس والمشاعر علاقة بطول زمن استعمالى لحبوب منع الحمل ، غير أن الطبيب حذرنى من مغبة استعمالها وأن يجب التوقف عن ذلك رغم تحول الأمر إلى عادة عندى .

ولما أذن طبيبها بالسفر كنا نستقل الطائرة عِشَاءً باتجاه الشرق فى طريقنا إلى العودة عن طريق الشرق الأقصى ، وانقضت بضع سويعات فى رحلة ممتعة لولا أن ركوب الطائرة واهتزازاتها ضاعفت من تكرار ذهاب زوجتى الى الحمام ، وأزعجنى ذلك . وأخذ الركاب - بعد تناول وجبة الطعام - يميلون الى النوم ، وأخذت المضيفات الحسان يستجبن لطلبات الركاب فى إحضار الوسائد والأغطية .

كان مقعد أم محيسن خاليا ، وهو المجاور للنافذة حيث ذهبت الى المرحاض واقتربت المضيفة الحسناء من مكان جلوسى ، ومدت كلتا يديها إلى أعلى لتخرج غطاء ووسادة لطالبها . وفجأة اضطربت حركة الطائرة اضطراباً شديداً أدى بالواقفين الى الارتطام ، والجالسين على كراسيهم أوشكوا أن يقتلعوا منها . وانشغل

بالى على أم محيسن ، وقبل أن أفكر فى الذهاب لمساعدتها كانت المضيفة الحسناء قد فقدت توازنها وارتطم رأسها بالحافة العليا فهوت منخرطة فى حجرى . وقبل أن أفيق من المفاجأة كان صوت قائد الطائرة قد ارتفع محذراً وآمرا فى صوت ولهجة حازمة بأن على جميع الركاب الجلوس كل حيث هو حتى على الأرض وأن عليهم سرعة ربط الأحزمة ، ذلك أن الطائرة فوجئت بدوامة هوائية وأن القائد بسبيل تفاديها .

وكعادتى المطلقة فى إطاعة الأوامر وجدتنى أحكم ربط الحزام ليحتوينى والمضيفة الحسناء . وكانت فعلا شبه فاقدة للوعى ، وتطلعت الى الخلف بحثا عن أم محيسن فوجدتها جالسة فى الطرف القصى متمسكة بأرجل الكراسى المجاورة . وتطلع راكب فى الطرف القصى نحوى مبديا حسرته على نفسه ، وحسدا على ما أنا فيه ظنا منه أننى أستمتع بالوضع وارتفعت الطائرة ارتفاعا كبيرا اضطررنا معه لاستعمال كمامات الأكسجين ، ولكن أحدا لم يكن يستطيع الحركة فقط كانت الطائرة أشبه شىء بريشة فى مهب الريح .

انقضى على ذلك الحال أكثر من نصف ساعة حتى انكشفت الغمة وعاودت الطائرة هدوءها الطبيعى وأذن للجميع بحل الأحزمة لمن أراد ، ونسيت هنا أن أطيع الأمر بحل الحزام .

عاد للطائرة هدوؤها وللركاب ، إلا أنا ، فقد بدأ خوفى وعدم الهدوء .. ذلك أن أم محيسن عادت الى المقعد وفوجئت بالحسناء وقد توسد جسمها حجرى ورأسها صدرى وانزلقت يداها على الجانبين . ألم أقل لكم إنها كانت فاقدة الوعى بفعل الارتطام ، غير أن أم محيسن فقدت وعيها بفعل ما بعد الارتطام ، فقد علا صوتها :

– يا راجل !! ياراجل خاف من ربك ، إحنا بين السماء والأرض وإنت عامل العملة دى . ما صدقت إنى رحت الحمام و ... أكيد اللى حصل للطيارة من عملتك دى ، لأه ، كله إلا كده .. طلع الطوق لفوق . بس نوصل البلد . خلاص مانى قاعدة لك .

ولم أستطع تهدئتها ، وذكرتها بأن المسكينة دايخة من ... ولكنها لم تستمع واستمرت فى ثورتها :

– وكان لك وجه تدافع عنها ، دايخة ، طبعا دايخة من عمايلك .

واقتربت منها تسحبها من يدها من على حجرى واكتشفت أن الحزام مربوط ، فاستشاطت غضبا :

– الله الله !! وكان رابط الحزام علشان ماكوفكه !

واقتربت المضيفات الأخريات وبعض من المضيفين لإسعاف زميلتهم وتركونى ولا من يسعفنى من أم محيسن التى أخذت مكانها بجوارى ولكن أشاحت بوجهها عنى مجروحة نفسيا . ولا ألومها ولكن لم يكن لى فى الأمر حيلة . وأخذت ألاطفها ، وأشرح لها ما حدث . فلما بدالى أنها تقترب من الاقتناع قلت لها – كاذبا – :

– أنا فى غيابك ما خنتك وما فكرت إنى أخونك تقومى تفتكرى إنى أعملها فى حضورك ، وفى الطيارة ، وقدام الناس كلها .

فابتسمت من بين دموعها .

– انا صدقتك ، بس ما قدرت أستحملِ أشوف واحدة فى حجرك ومربوطة بالحزام ، الله أعلم فى أيش كنت بتفكر !!

– الواحد كان شايف الموت قدام عنيه .. يقدر يفكر فى اللى بالك فيه .

ثم أردفت قائلا :

– ثم إنت خايفه وزعلانة ليه ؟؟ ما إنتى عارفه إنى باستعمل حبوب منع الحمل

فأطلقت من قلبها ضحكة أعادة الهدوء النفسى لكلينا . وتطلعت من النافذة ثم صرخت قائلة :

– الله ، الدنيا صارت نهار يابو محيسن !! إيه الحكاية ؟؟ هى الشمس تطلع قبل الصبح ما يطلع وإلا أيه ؟؟

وقضيت بضع دقائق أشرح لها أننا نسير باتجاه المشرق وبذلك – ولسرعة الطائرة – أدركنا الشمس قبل غروبها ، فلما ظننت أننى أحسنت الشرح قالت :

– ها !! فهمت .. انت قصدك تقول إن الأمريكان لهم شمسهم خاصة بهم ، وهادى الشمس حقتنا ، حقت بلادنا فى المشرق ؟؟

وكدت أضرب رأسى فى المقعد من حسن فهمها للأمور . ولكن وجدت من واجبى كإنسان متعلم أن أعلمها ، وأعدت الشرح والتوضيح وضرب الأمثلة ، وتأكدت أنها فهمت الأمور وأننى أحسنت الشرح حين قالت فى طمأنينة :

– يا ليتنى كنت شمس والا قمر .

وحاولت مغازلتها قائلا :

– ما أنت قمر يا قمر .

وغمزتها فى خاصرتها فقالت :

– لا بصحيح .. يا هناهم الشمس والقمر ، يسافروا الدنيا كلها يروحوا أمريكا وأوربا والدنيا كلها ، من غير ما يركبوا طيارات ولا يدفعوا تذاكر ، وأهم من دا

كله ، ما أحد يسألهم عن الجوازات ، والله فكرة مدهشة !

وشددت شعر رأسى قائلا :

– والله انتى مدهشة .

وحال دون مواصلة الحديث صوت المذيع الداخلى يطلب من الركاب جميعا إطفاء السجائر وربط الأحزمة ، استعداداً لهبوط اضطرارى . وقد فعلنا ، وساد وجوم كئيب داخل الطائرة . وكنت أتطلع من النافذة لأرى الطائرة تهبط بسرعة ، والغابات منتشرة تحت أبصارنا . ثم تبدى قاع واسع مكسو بالحشائش والأعشاب ، وفى دقائق كانت الطائرة قد استقرت بسلام . فلما اطمأن الجميع إلى وقوف الطائرة كثر الهرج وكل يدلى بدلوه حتى قطع ذلك كله قائد الطائرة .. خرج من كابينته معلنا أن سبب الهبوط الاضطرارى هو نفاد الوقود حيث ضلت الطائرة سبيلها أثناء العاصفة مما استنفد الوقود ، وأننا بانتظار الإسعاف وشيكا بعد أن أخطر المطارات القريبة بمكاننا ، وأنه ربما استغرق ذلك وقتا ، وأن بالامكان مغادرة الطائرة لمن أراد ، لقضاء الوقت فوق البساط السندسى .

نظرنا حولنا فإذا الوقت مساء ، توشك الشمس على المغيب ، وكان ذلك محل حديث الجميع كيف تركنا الغرب عشاء وندرك الغروب شرقا . واستولى علىّ شعور دينى مفاجىء ، إدراكا لسير الكون وعظمة مسيره ، ومدى تقصيرى . فلما أفلت الشمس وآذن الغروب يممت شطر طرف النهر القريب وتوضأت ، ثم وقفت على مرتفع فوق شجيرة ، ورفعت عقيرتى بالنداء الإسلامي مؤذنا لصلاة المغرب . وذهل بقية الركاب ، وأكثرهم ذهولا كانت زوجتى إذ لم تتعود منى الحرص على أداء المكتوبة فى مواعيدها – أو غير مواعيدها – وأعترف أن ذلك كان إهمالا وتقصيرا منى ، ولكن أمام النذر المتوالية التى مررنا بها ثابَتْ النفس – مؤقتا – .

وما أن انتهيت من رفع النداء إلا وسمعنا همهمات وأصواتا قادمة من قريب من خلف أشجار الغابات . وانصرفت أذهاننا إلى الصورة التى رسمتها أفلام المغامرات عن ظهور القبائل المتوحشة وأكلة لحوم البشر فى الغابات . وأخذ الجميع يرتعد خوفا ، واقتربنا بعضنا الى بعض . ومن بين الأشجار ظهرت مجموعة من الناس مرددين :

– الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله .

وكانت مفاجأة للجميع . فقد سمع أهل القرية المجاورة النداء يتردد من وسط الغابة ، فأقبلوا ينتظرون معجزة ، حتى إذا أبصرونا تقدم بعضهم مناديا بلغة عربية : السلام عليكم .

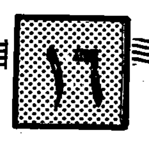
وكنت – وزوجتى – الوحيدين اللذين فهمنا . ورددنا السلام ، وأخذوا

يتحدثون بلغة عرفت – من معيشتى بمكة المكرمة – أنها اللغة الجاوية . وتذكرت القليل من المفردات الجاوية التى تعلمناها صغارا فى حوارى مكة . ولكن زوجتى – وقد كانت تجاور أحد كبار مشايخ الجاوة ، وكانت تساعد معهم – وأمها – فى مواسم الحج كانت أكثر إجادة للغتهم ، وجرى التفاهم بينها وبينهم .

وفوجئت بهم جميعا يتقدمون نحوى ويتمسحون – تبركا – بثيابى ، ذلك أن زوجتى أعلمتهم أننا من مكة المكرمة . وكان لذلك فعل السحر فى نفوسهم فقدمونى للإمامة لأداء المكتوبة وقد كان ، ثم توالت المفاجآت من بعد !







ما أن انتهيت من أداء صلاة المغرب جماعة ، أنا الإمام والرجال والصبية خلفى صفوفا ثلاثة وسبع نسوة وزوجتى فى الصف الأخير ، واستدرت مواجها كالمتبع ، فإذا هم جميعا جاثمين أمامى . فلما انتهينا من الاستغفار والاستذكار وتهيأت للقيام إذا الجميع انتظموا صفاً واحداً كلهم يلامس يدى مصافحا وينحنى كأنما ليقبلها ويشمها . وكان موقفا فى منتهى الحرج كأول تجربة وآخر تجربة . فلما انتهى آخر المأمومين من السلام تحلقوا حولى فى شبه دائرة . ثم جلسوا جِثِياً مرة أخرى . ولم أدرك كيف أتصرف ، كل ذلك يجرى كأنما هى طقوس تؤدى وبقية ركاب الطائرة ينتظرون كأنما يشاهدون ما يشد انتباههم . وأخذ بعضهم يصور الموقف بما لديهم من كاميرات وأجهزة للفيديو ، كشىء للذكرى . وظللت صامتا وهم من حولى كأنما ينتظرون منى شيئا . وتحدث بعضهم إلى بما لم أفهم ، لولا أن زوجتى فهمت أنهم يطلبون منى أن أقرأ لهم ما تيسر . وأسقط فى يدى ، ذلك أننى فى حرصى على التزود من الدنيا لرفاهيتى ونعيمها ، أنْسِيتُ ما كنت أحفظه من الكتاب . واستعنت بأم محيسن لإنقاذ الموقف ، فتحدثت إلى كبيرهم بما تحسن وتكررت كلمات « مكة المكرمة ، حرم شريف ، مسجد حرام » . وكأنما قالت لهم ما سرهم ، فتوسط أحدهم الحلقة وتربع وأخذ يتلو من الكتاب فى صوت رخيم .

وعلمت من أم محيسن أنها أوحت إليهم أننى طلبت منهم أن يتلو أحدهم من القرآن وأنا باعتبارى – فى نظرهم – من أهل مكة ، أسمع له وأصحح . حتى إذا انتهى ، تلاه آخر ، وثالث . وأظلم الوقت ولعله أوشك وقت العشاء ، فقام كبيرهم محدثا لهم ، فانصرفوا إلا كبيرهم وفئة قليلة ظلت معنا .

وما هى إلا أقل من ساعة حتى سمعنا أصواتا تأتى من الجوار ومعهم شىء من السراج كالذى كنا نستعمله فى مكة المكرمة قبل أن نعرف الكهرباء والأتاريك ، فقد جاءوا يحملون الفوانيس وبعضهم يحمل حطبا وآخرون قدرًا كبيرة وآخرون يحملون ماعزا ، ذبحوها لِتَوِّهِمْ وأوقدوا النار ليهيئوا الطعام . ووقف أحدهم يرفع أذان العشاء ، فأديناها

جماعة وأممتهم للمرة الثانية فى حياتى . وكان فيهم من هو أحق بالامامة ، لحسن تفقهه فى الدين وحفظه للكتاب ، ولكن – فى نظرهم – مجرد كونى من مكة المكرمة يعطينى الحق فى التقدم .

إنهم قوم صفت نفوسهم وطهرتها العقيدة مما حملهم على الاعتقاد أن مجرد الانتماء لمكة المكرمة يعتبر أحقية للتكريم . وكان بين من قدموا ثانية شيخ درس العلوم الدينية بمكة وجاور هناك فترة ثم قدم ليعلم قومه . وكان هو واسطة الحديث بينى وبين جماعته وأنا بينهم وبين بقية ركاب الطائرة .

وجرى الحديث فى أكثر من مجال . وكان منظرا بدائيا تماما ، ونحن حلقة حول السراج .وفى الطرف القريب استوت آنية الطعام على حجارة أعدة لذلك والحطب يشتعل ليستوى الطعام . وفجأة رأيت أم محيسن تركز نظرها صوب قائد الطائرة ، أو باتجاهه وقد أسند ظهره إلى ساق شجرة قائمة . ولم أعر الأمر اهتماما بادىء الأمر . ثم نظرت إليها أخرى ، فاذا قسماتها قاسية ، ونظراتها حادة ومحددة باتجاه قائد الطائرة . ثم نهضت من جلستها بهدوء واتجهت صوب القدر الذى استوى على الحجارة تحته الحطب المشتعل ، وسحبت من بينها ساقا من الحطب هى أكثرها اشتعالا ، وانقضت باتجاه قائد الطائرة ، الذى ظنها تريده بسوء فاستوى على وجهه إلى الأرض ، وكلنا هب لإنقاذه . ولكن أم محيسن كانت فى معركة جانبية إذ القت بالطرف المشتعل ممسكة بالطرف البعيد وهى تغرس الطرف المشتعل غرسا ، لنرى – فى ضوء المشعل – أنها كانت غرستها فى رأس ثعبان ضخم ، كاد أن يفتك بقائد الطائرة ففتكت به قبل أن يتمكن منه بلحظات . وانهال الجميع على الثعبان الضخم ليساعد فى قتله ، وكان قد نفق تحت ضربات أم محيسن .

أنهت أم محيسن معركتها وعادت لمكانها . ولكنها استقطبت كل نظرات الإكبار والإعجاب . ولما أفاق القائد من ذهوله تقدم إليها – وكعادة الغربيين فى التعبير عن امتنانهم – مد يده شاكرا قائلا :

– لقد أنقذت حياتى يا سيدتى . إن زوجتى وبناتى فى ألاباما سوف يقدرون لك ذلك :

وأنهى الشكر بأن قبلها على خدها مكررا الشكر .

ولكنها صرخت ، وصرخت بقية النسوة لهذه الطريقة فى التعبير عن الشكر . وأظننى فقدت الكثير من خلقى كعربى حين لم أر فيما فعل الرجل من شىء يشين . وشرحت للكابتن سبب صرختها مبينا اختلاف المعايير . فربت على كتفى معتذرا . وتقدم لأم محيسن معتذرا مرة أخرى ، وربت على كفها التى أخذها بين يديه ثم رفعها ليقبلها . وكانت صرخة أخرى .

كان الطعام قد نضج فتقدم الطاهى وأنزلت الآنية - بمساعدة الآخرين - من على الحجارة . وكانت المشكلة فى كيفية تناوله ، إذ لا أطباق ولا ملاعق . ولكن أم محيسن أشارت على المضيفات أن يحضرن من داخل الطائرة ما يتوفر . وقد كان ؛ فأخذن يتسلقن الى الداخل عن طريق فتحات الخروج الاضطرارية التى انزلقت منها السلالم المطاطية . وتناولنا الطعام ، والشاى والقهوة مما كان متوفرا داخل الطائرة .

واستأذن المضيفون إلا قليلا منهم تطوع للحراسة . وعدنا - تسلقا - إلى داخل الطائرة للنوم ، خشية الثعابين وحيوانات الغابة . وما هى إلا ثوان حتى كان الجميع يغط فى نوم عميق أثر مجهود مضن .

ومع ظهور أول خيوط النور معلنة فجر يوم جديد ، كان يتردد النداء الخالد « الله أكبر الله أكبر » . وظننت أننى أحلم ، حتى إذا قال المبلغ : « الصلاة خير من النوم » فتحت عينى إستجابة وتطلعت من الكوة لأجد أن الفجر قد بزغ ، وأهل القرية حضروا وأحضروا معهم طعام الافطار من خبز مصنوع منزليا والجبن والعسل والزبدة ، وأوقدوا النار .

وصحا الركاب جميعا . وأخذنا نهبط ، ويممت صوب النبع إذ هى بحيرة ما كنت حسبت أنه النهر . وتهيأت للتطهر والضوء . وأقبل الآخرون كذلك . وكان منظر الفجر ساحرا فى أفق القاع ، وسط الغابة ، فى غير ما حاجة له .

وتهيأت للوضوء ، وإذا الأكثرون من زملاء الرحلة يتخففون من ثيابهم وثيابهن ليستحموا فى النبع ، وغلبنى شيطانى فنسيت أن أتوضأ ، وأنا أرى الحسان داخل النبع يستحممن . وكذلك الإنسان ؛ حين مَسَّنَا الضر تذكرت الوضوء والصلاة ، فلما اطمأننت إلى الأمان نسيت ، حتى إذا استبطأتنى زوجتى عن حضور الصلاة ، هرعت إلى النبع . فلما رأتنى ورأيتها أدبرت حنقا وغيظا ، وهرعت من جانبى وقد تخففت الحق بها أسترضيها . ولكنها كانت تسرع الخطى وتلقى باللائمة على قائلة :

- الناس المسلمين احتراما لبلدك واسم بلدك واقفين ينتظروك إمام عليهم وانت هان عليك كل شيء ، بلدك ، وفرضك ، ويمكن استغفر الله العظيم كان ربك .

وكنا قد أقبلنا على القوم وارتفع صوت أحدهم للاقامة . وأقبلت متصنعا التهليل والتكبير والحمد والتسبيح .

وارتفع - داخلى - صوت نفسى ساخرة تقول : « أى فرق كبير - أو حقير - تجده بينك وبين صاحبك الطبيب الذى اتخذ المظهر الدينى سوقا ليسوِّق فيها بضاعته ؟؟ » وشعرت فعلا بالاحتقار والمقت الشديد من تصرفى هذا ، فهاأنذا أقف

إمامًا بين يدى الله إرضاء لمظهر ، ومخادعا لأناس أحسنوا الظن بشخصى لمجرد رابطة انتمائى للبلدة الطاهرة ، وفى داخل نفسى جعلت بينى وبين الانتماء شهوات مقضية ونزوات عابرة .

وزاد الطين بلة ، أن القوم بعد أن قضيت الصلاة ، اصطفوا كعادتهم ليقبلوا يدى ويتمسحوا بثيابى ، وشعرت كأن ثيابى أطهر منى . فلما اشتدت ملامة نفسى على ، أخذت النفس تهون على قائلة : هذه للذكرى ، ولست وحدك فكم من البشر أمثالك ، وفى بلدك ، ثيابهم التى يلبسونها هى أطهر منهم ومن نفوسهم التى يحملونها .

فى هذه الاثناء كان قائد الطائرة وضابط اللاسلكى يواصلان الاتصال بأقرب مطار مجاور . وخرج ضابط الاتصال يطلب واحدا من أهل المنطقة ليحدث الطرف الآخر عبر جهاز اللاسلكى ليعطيه اسم المكان والقرية التى كنا فيها . وتقدم الشيخ منهم وألقى ضابط اللاسلكى جهاز السمع اليه ، فأخذ يحدثهم بلغتهم المحلية ، حتى إذا ما انتهى عاد منتفخ الأوداج كأنه هو الذى قام بعملية الإنقاذ .

وفى أقل من نصف الساعة كانت طائرة هيليكوبتر تحط بجوار الطائرة ونزل منها قوم أخذوا يتناقشون فى الموقف . ومن حولهم تحلقنا فى شوق لمعرفة مصير الإنقاذ . وإذا هم يناقشون كيفية سحب الطائرة العملاقة أو حملها . وذكرت ذلك لزوجتى التى تعلقت بذراعى ، كأنها تخشى أن أعود الى النبع للهو .

وتركت ذراعى فجأة وتقدمت من قائد الطائرة ، حيث ظنت أن إنقاذها حياته من الثعبان يعطيها الحق فى التدخل . وأخذت تحدثه ولم يفهم لغتها . ولكنها كانت متحمسة وهو يصغى فى أدب ثم سألنى عما تقول ، فضحكت وشرحت له فكرتها فى حل الطائرة قائلة إن عليهم أن يحيطوا جسم الطائرة بالعديد من بالونات الهواء المنفوخة الضخمة فيخف حملها بواسطة طائرتى الهيليكوبتر .

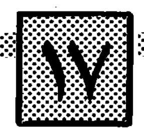
ولمعت عينا قائد الطائرة ببريق غريب فظننته يسخر . ولكنه شرح لزملائه الفكرة فوجدوا أنها جديرة بالمحاولة .

وكان بين الركاب أكثر من صحفى التقطوا لنا صورا تذكارية ومن بين تلك صورة لأم محيسن تعرض فكرتها .

وفى أقل من نصف ساعة كانت أكثر من طائرة هيليكوبتر تحط فى الجوار لنقلنا إلى المدينة استعدادا لنقلنا – كل إلى وجهته – بطائرة أخرى . وأقبل قائد الطائرة يطلب اسم وعنوان منقذته . وتبادلنا البطاقات وودعناهم والذين ضيّفونا من أهل القرية . وقررت – زوجتى وأنا – أن نواصل الرحلة مباشرة الى الوطن فقد كفانا ما لقيناه .







يا للصحافة والصحفيين ، ويا لوكالات الأنباء .. فقد جعلت من زوجتى شخصية عالمية تتحدث عنها الأنباء لعدة أيام ، ولقد فوجئت بعد وصولى هنا بأن الأنباء سبقتنا .

فلقد تحدثت الأنباء عن فقدان طائرة الركاب للشركة الأجنبية التى كانت تقلنا ، وطيرت الوكالاتُ الأنباءَ على أكثر من صورة . وتفننت الصحف والمجلات العالمية فى الأثارة . ولا أزال أذكر أكثر المانشتات إثارة ، ذلك الذى يقول : « إعصار فوق المحيط يبتلع طائرة عملاقة بكل ركابها » كان ذلك يحدث ونحن – جميع ركاب الطائرة وطاقمها – نتناول طعام العشاء فى ضيافة أهل القرية الطيبين .

وبعد أن عثر علينا – بزعمهم – تحدثت الصحافة عن رواية شاهد عيان عن « ساعات الضياع والألم » . وكان شاهد العيان هما الصحفيين اللذين كانا معنا فى الرحلة ، ولكن عنصر الإثارة يأبى إلا أن يفرض نفسه فى مثل المانشت الصحفى الذى يقول : « سيدة سعودية تنقذ حياة قائد الطائرة من موت محقق » . وكانت صورة زوجتى أم محيسن بارزة وهى تضحك ويصافحها قائد الطائرة ، ويروى قصة طويلة من نسيج الخيال ، وتصويرا بطوليا عن كيفية إطباقها على عنق « الكوبرا » أخطر أنواع الحيات وعن كيفية تماسكها وكيف تحكمت فى أعصابها بحيث ظلت تصرف نظر الكابتن عن الخطر المحدق به حتى قضت على الوحش فى لحظات .

ولدقة الوصف الذى جاء فى المجلة – على ثلاث صفحات – صدقت ما لم يكن ، وبدأ يساورنى الخوف من قوة أعصاب زوجتى .

فى صدر صحيفة أخبار العالم الإنجليزية ، تصدر المانشت الذى يتحدث عن كيفية نقل الطائرة ، وفى مانشت آخر يقول : « قاتلة الكوبرا مهندسة عالمية » . « المهندسة السعودية تضع خطة رفع الطائرة » وصور عديدة تمثلها تتحدث مع فريق الإنقاذ ، وما كانت الصور إلاها وهى تحدثنى عن الفكرة التى خامرتها .

ومانشت وثان وثالث كلها تتحدث عن بطولات أم محيسن التى لم تحدث ولم تكن ، كأن نقرأ « المهندسة السعودية شاركت فى أعمال إنقاذ سابقة » ، « أستاذ سابق بمعهد التكنولوجيا يؤكد أنه سبق له التنبؤ لتلميذته السعودية بمثل هذا النجاح » .

وتناقلت الصحافة العربية الأنباء والصور التى وزعتها وكالات الأنباء . وكيف لى أن أنفى كل ذلك . وأصبح هاتف المنزل والعمل لا يتوقفان ، والأصدقاء ومن أعرف ومن لا أعرف يسأل ، وأصبحت أم محيسن بين عشية وضحاها محل أحاديث المجتمع .

وتذكرت مسرحية لشكسبير تحمل اسم « ضجة بلا داع » . وكأننى أمسيت أعايش هذه الضجة ، وأم محيسن سعيدة بأنها أصبحت حديث المجتمع . وحسدها عارفوها ومن لا يعرفها . أما مشاعرى فقد كانت خليطاً من السعادة والتوجس ؛ سعادة أننا أصبحنا حديث العالم وصورنا تملأ الصحف العالمية ، وتوجس مما لم أكن أدريه ولكنى أتوقعه .

وأخشى الذى كنت أخشاه أن تصل الأنباء الى مطاليق اللحى من آل تغلب – بالديرة – وقد كان . فلقد كنت آمنا جانب الصحافة بالنسبة لوالدى وعمى – وهما ممن عنيت بمطاليق اللحى – حيث أن أحداً منهم لم تقم لديه القناعة بالصحافة وقراءة الصحف والمجلات . ولذلك كنت آمنا ، غير أن الحذر يؤتى من مأمنه كما يقول المثل السارى .

ولعلمكم فلقد انضممت الى قائمة الساخطين اللاعنين لاختراع أجهزة الراديو الترانزستور ، إذ سبق أن روى لنا التاريخ القريب – ما قبل عهد الترانزستور – أن الكثير من رابطة الطغاة والديكتاتوريين كانوا راضين عن عدم وجود وسيلة لانتقال الأخبار لشعوبهم ، فكانوا يشبعون قومهم اعلاماً أن الخير كل الخير ما هم فيه ، وليس بالإمكان أفضل مما كان حتى جاء ميلاد الراديو الترانزستور ، فانكشف عن الأسماع الحجاب وهنا كانت اللعنة والسخط منهم على كاشف الحجاب ، الراديو .

وبعد الذى حدث لنا ، والهالة التى نسجت والبطولات التى اخترعت ، وجدتنى أنضم – طواعيه – لجماعة السخط واللعنة .

ذلك أن والدى وعمى – وبقية مطاليق اللحى – هوايتهم سماع آخر الأنباء من محطات لندن ، ومونت كارلو ، وصوت أمريكا ، على التوالى وإن أحدهم ليحبس بأخبار إذاعة لندن الأخيرة ثم يأوى الى النوم ، ليصبح من غد متهيئا لسماع أخبار الصباح .

كان لابد من هذا الإيضاح لأفسر السبب فى الرسالة التلغرافية العاجلة أن « أحضر عاجلا بدون تأخير » . وما كنت أظن أن الأمر يتعلق بما أسلفت من وقائع ، وخشيت أن تكون الوالدة مريضة أو أبى .

ورأيت أن أستجلى الأمر تليفونيا . وعلى الطرف الآخر كان صوت الوالدة - بعد الترحيب والسلام - وجلا ، وأن المشايخ من العائلة قد غضبوا غضبة مضرية ، وأن لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى وأن لابد أن يراق الدم ، فطلبت محادثة الوالد ولكنه - بكل إباء وشمم - رفض حتى مكالمتى حتى أُمْثُلَ بين يدى مجلس العائلة وأقدم تفسيرا لما حدث .

طيبت خاطر الوالدة وأخبرتها أننى سأحضر - والعائلة - فى عطلة نهاية الأسبوع . وكان لابد لى من امتصاص غضب الوالد تمهيدا لمقابلته وشرح الأمر . وظللت أقلب الأمر على وجهه ثم أوعزت الى الصغيرة هالة أن تطلب جدها فى التليفون وتخبره بحضورها وأخيها معنا ، وأن تطلب إليه اللقاء فى المطار كالمعتاد ومعه بعض الهدايا لها . فقد كنت أعرف كم هو ضعيف أمام أحفاده ، وخاصة هالة .

وقد كان . وكان حديثا وديا يكاد يقطر حبا وحنانا . فلما طلبت منه أن يلقانا - كالعادة - فى المطار ، رفض وأرغى وأزبد لأن أباها لا يستحق هذا الشرف .

- لكنى أنا جاية معاهم يا جدو .

قالتها بلهجة كلها رقة وأنوثة ما ظننت أن أبى يصمد أمامها ، ولكنها - لزئيره - أبعدت السماعة قليلا ثم تصنعت البكاء لجدها ، ولم يجد ذلك نفعا فأنهت المكالمة متصنعة البكاء كمن قد أهين قائلة :

- طيب خلاص مانى جاية يا جدو مع السلامة ، هه .

وأعادت السماعة الى الجهاز فقد سبقها جدها بإقفال الخط :

- ايش سويت لجدو يا بابا ؟؟ دا عمره ما عملها وقفل التليفون فى وجهى .

بتأثر شديد وجهت الصغيرة حديثها الى :

- دا قال لى عساكى ما جيتى لا إنت ولا أبوكى .

فشرحت لها الأمر ، وكيف أن والدتها قتلت بيدها الكريمة ثعباناً خطرا ووحشا قاتلا وأنقذت بذلك حياة قائد الطائرة حينما كنا فى الأدغال الاستوائية ، وكيف أن من زملاء الرحلة كان صحفيان ، فلما عادا لبلدهما عمدا إلى فن الإثارة الصحفية ليعطيا لنفسيهما صورة المغامرين – فى أعين القراء – وليعطيا صحفهما فرصة الانتشار والتوزيع ، فلما أكملت لها الوقائع شرحا ، ضحكت ملء طفولتها اليافعة قائلة :

– ماما قتلت ثعبان وخطر ووحش ؟؟ أما حكاية . طيب ماما ...

فقاطعتها والدتها – وأغلب الظن أنها صدقت الأكذوبة عن بطولتها والهالة التى نسجتها صحف الإثارة عنها – قائلة :

– جرى إيه يا بنت . طيب والله العظيم أنا قتلت الثعبان بإيدى اليمين هادى اللى قدامك أهه ، ولما التف عليا ، رحت ماده إيدى الشمال كده و...

وفى حركة طائشة ، وقد استطردت فى خيالها لتصور كيف أمسكت بالثعبان من رأسه وخلصت نفسها من التفافه حولها ، اصطدمت يدها بصبابة الشاهى والإبريق فتطايرت كاسات الشاى والإبريق والآنية وسقط الكل على الأرض فانكسر إبريق الشاى على الأرض واختلط بالسكر المتناثر وقطع الزجاج الصغيرة إثر كسر كؤوس الشاى .

فوجئت أم محيسن بما حدث . ولعلها أرادت الاستطراد فى خيالها متصورة بطولات لم تكن . ولكنها رأتنى وقد أسندت ذقنى الى السبابة والإبهام من يدى اليمنى وعلامات الدهشة والانبهار بادية على صفحة وجهى . فأوقفها ذلك ، قائلة لابنتها :

– ما أدرى ، طبعا قتلت الثعبان ، حتى اسألى أبوكى .

واتجهت متشاغلة بلا شىء لتطرد الحرج الذى أوقعها فيه خيالها أمام أحد شهود الحال ، ولكن الصغيرة استطردت قائلة :

– إنت يا ماما تخافى من الصرصور الماشى إذا شفتيه فى الحمام ، تقومى تقتلى ثعبان خطر ؟؟

وكان لابد أن أتدخل للحيلولة دون استطراد الصغيرة . ولكن فجأة ارتفع رنين الهاتف . فسبقت هالة أخاها إليه ثم أشارت لى ولأمها إشارة ذات معنى عرفنا منها أن المتحدث هو والدى كما توقعت فكلنا يعرف مدى حبه لحفيدته . وإذا الصغيرة تتصنع البكاء ، لدرجة الإتقان – شأنها شأن بقية بنات حواء – وتصنعت أن تشهق باكية :

- لا يا جدو ، أنا زعلانة . طبعا أبكى . إنت عمرك ما كلمتنى كده وقلت لى عسى عمرك .

وعلى الهاتف الآخر كنا نستمع للحوار الممتع إذ تهدج صوت الجد يكاد يبكى لبكاء الحفيدة ، وهو يسترضيها قائلا :

- بس يا صغيرتى ، أبوكى وأمك هم اللى فضحونا ولازم أكسر راسهم .

- لكن يا جدو ، لاتكسر راس ماما ، علشان هى .. هى .. مريضة .

وتصنعت التأثر أكثر وأكثر . وعلا صوتها بالبكاء . واذا الجد بالغ اللهفة على زوجتى :

أمك مريضة ، وايش بها ، ليش أبوكى ما جاب لها طبيب ؟ لكنى عارف ، هو ماهو فاضى لكم ولا البيت ، فاضى بس للقروش وايشلون يجمعها .

وحاولت التدخل لأشرح مرضها فارتفع زئيره :

- انت أغرب عن وجهى ، ولا تكلمنى ..

وأرخيت سماعة الهاتف وتركت للصغيرة امتصاص غضبه ، وترتيب حضوره للمطار وهى تفرض شروطها ، وقد كان .







كرهت الخروج هذا المساء على غير عادتى . وفى حقيقة الأمر أنا لم أتعود الخروج مساء ، وإنما أحضر متأخراً . قليل من الأحيان يستغرقنى العمل بالمكتب ، وكثير من الأحيان تستغرقنا سهرات العمل ، وأعنى بها السهرات أو حفلات العشاء التى تتم فيها صفقاتنا وأعمالنا التجارية . وما يصحب ذلك من بذخ فى المأكل والمشرب والامتاع من الممكن والمتاح ، وبذلك امسى حضورى متاخرا شيئا عاديا ، فكان بقائى بالدار هذا المساء هو الخروج عن المعتاد.

تناولنا العشاء سوية . وآوى الصغار الى حجرهم ، وان ظللت منحرف المزاج قليلا ، الأمر الذى لم يخف على هالة ولم يلفت انتباه محيسن . واقترحت أم محيسن كوباً من عصير الليمون ، فوافقت على أن نتناول بعد ذلك كوبا من الحليب مع مسحوق الكاكاو ، والشيكولاتة .

وأخذت - أسعدها الله - تحاول التخفيف عنى بأحاديث شتى ولكنها زادتنى غما بما قالت وروت لدرجة وجدت أن خيرا مما فعلت لو أنها تتركنى أو تترك محاولات التخفيف ، ولعلها أدركت - وقليلا ما تدرك - أنها أثقلت على ، أو أنها فشلت فى الترويح والتخفيف فسألتنى :

- إيه الحكاية ، إنت شايل هم الدنيا كده على إيه ؟؟

- أبدا يا أم محيسن ، بس حكاية الوالد وغضبه ، و ... صحيح إيه الحكاية ؟؟ هو أنا طفل ؟؟ ثم على إيه يحاسبونى ؟؟ . الأسئلة دى سألتها نفسى ، لكن الفجوة الزمنية بيننا هى السبب .

- بسيطة يابو محيسن .

قالتها غير هازلة وفى نبرة جادة :

- إذا كان على الفجوة ، بسيطة ، أنا أسدها بأى حاجة ، فاكر الفجوة اللى

حصلت بين البانيو والجدار اللى فى حمام الأولاد ، أهى دى الفجوة ، أنا سديتها بشوية أسمنت وخليت السواق يليسها ويدهنها بوية ، وخلاص وانتهت المشكلة ، كان الفجوة دى نسدها .

– يا بنت الناس ، الفجوة دى فجوة زمنية ، يعنى ما تتليس ولا تندهن بالبوية .. إفهمينى

– طيب يا سيدى منكم نستفيد .

وربتت على كتفى تسترضينى :

– فيها إيه لما تقول لى تندهن بإيه ، وشوف أدهنها والا لا !؟

– أمرى وخيرتى لله .

وأطلقت تنهيدة من الأعماق . كيف أشرح لها الفجوة الزمنية ، ولكنها استطردت :

– أمرنا وخيرتنا كلنا لله ، بس انت جربنى هادى المرة وقول لى تندهن بإيه و..

– مخ الثور ، ما تندهن الا بمخ الثور .

قلت ذلك غاضبا ، أو بعصبية واضحة . ولكنها نهضت وكأن الأمر لا يعنيها ، وغابت لحظات ثم عادت قائلة :

– خلاص ، ولا يهمك .

– يعنى إيه ولا يهمنى ؟؟! قصدك إيه ؟؟ حضرتك دخلت الغرفة دقيقة ورجعتى تقولى ولا يهمك ، أفهمهادى .

– أبداً يا بو محيسن .

قالتها بسلامة نية :

–أنا قلت بكرة نازلة السوق علشان مشتروات ولوازم البيت ، قلت بالمرة اشترى مخ التور ، رحت مِسَجِّلَتَهْ فى دفتر المشتروات ، صحيح كتابتى على قدها ، بس المهم نسد الفجوة .

وأدركت أن لا فائدة من المناقشة ، وهممت بالذهاب الى غرفة المكتبة ، لولا أن خرجت الصغيرة من حجرة نومها قائلة :

– أنا عندى فكرة يا بابا .

وأيقنت أن المتاعب لا تأتى فرادى ، أفلا تكفينى أفكار زوجتى حتى أُرْزَأ بأفكار ابنتى ؟؟ وشعرت بحنان دافق لها ونحوها وعليها ، فأقبلت عليها :

– هانى يا بنت أمك أفكارك لما نشوف ، إنتى والا امك أوضح فكرة .

فاقتربت والتصقت بجانبى كقطيطة صغيرة تبحث عن دفء فى ليل قارس البرد ، ورفعت رأسها نحوى قائلة :

– إنت مش شاغل فكرك باللى سمعوا جدى فى الراديو وعن شجاعة ماما وكيف أنقذت حياة الطيار ؟؟

– إيوه يا روح بابا ، بس جدك زعلان علشان مامتك اسمها طلع واتحدثوا عنها .

– خلاص يا بابا .

وتذكرت كم مرة قالتها أم محيسن هذه الكلمة ، ثم يعقبها ما يعقبها من أفكار لا تخفى نتائجها . وتذكرت المثل الشائع « البنت لأمها » فتوجست ، ولكنها قالت :

– فاكر يا بابا ، فى قصة فتح مكة : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ؟؟

ودهشت ، فأى علاقة بين فتح مكة ، وموقفنا هذا ، وأيقنت أن لابد من فتح رأسها ورأس أمها ، ولكن كأسلوبى الذى أتبعه فى أسرتى سألتها :

– طيب وايه العلاقة بين دار أبو سفيان ودار أبو ناصر .. اللى هو جدك ؟؟ .

قالت ، ولست أدرى أبخبث أم ببراءة :

– نعطى لجدى دور فى الموضوع .. قصدى إن ماما تقول – لجدى طبعا وقدام الجميع – إنها لما سألوها الصحفيين كيف ما خافت من الثعبان وقتلته ، تقول إنها أخبرتهم وبكل فخر ، انها اتعلمت الجرأة والإقدام من جدى أبو ناصر .

وأدركت ما رمت اليه ، فأى رجل يحب الفخر – ومن لا – فإذا علم أنه أعطى نصيبا من الضجة الاعلامية فلربما أرضى ذلك نزعة الفخر فيه وامتص غضبه . وكانت فكرة صائبة فقبلتها بين عينيها وشكرت لها أفكارها ، وأرسلتها لتعود الى غرفة نومها ، وأخذت – وأمها – نعد العدة لجعل الأمر يبدو طبيعيا فى إعطائه دوره .

فى المطار كان الوالد يستقبل حفيديه ، ونحن من خلفهما . وفى الطريق الى الدار كانت الصغيرة سابقة ، حيث تعلقت بعنق جدها قائلة :

– يا جدو ممكن تعلمنى الصيد والقنص ؟؟

وضحك جدها – ظنا منه أنها ساذجة – :

– يا بنتى الصيد هذا عمل الرجال ما هو للنسا .

ولكنها استطردت قائلة :

– يا سلام يا جدو ، أنا لازم تعلمنى ، إشمعنى علمت ماما .

وضحك جدها ثانية لحدِ الاستغراق ، قائلا وهو يغالب ضحكه : أنا علمت أمك الصيد ؟؟ مين قال لك ها الكلام ؟؟ .

– يعنى إيه مين قال لى يا جدو ؟

وأمسكت بعنقه واضعة وجهها فى مواجهة وجهه .

– الدنيا كلها تقول كده ، والجرائد كلها تقول كده ، أصلها ماما لما سألوها كيف ما خافت من الثعبان وقتلته بايدها ، قالت لهم – وباسمك كان – إنك إنت علمتها الشجاعة وصيد الوحوش .

وهنا ملأ البشر والسرور صفحة وجه أبى ، حتى ليخيل إلى أن صدره اتسع وأوداجه انتفخت سرورا ، والتفت إلى زوجتى والسؤال يقفز من عينيه فعاجلته بالاجابة خشية سوء الاجابة من زوجتى قائلا :

– إيه بالله يُباً ، علم الله إنها قالتها ومن يومها وأنا خايف منها بعد ما قتلت الثعبان الوحش ، وأنا أصبحت أخاف من شجاعتها لا يوم تستعملها معى .

وضحكنا جميعا . والتفتت الصغيرة نحوى تسألنى بنظراتها الباسمة عن حسن فعالها ، فكان جوابى أن أشرت لها بعلامة النصر .

وصلنا دار الوالد قبيل الغسق . وفرحت الوالدة بحفيديها وبنا . وأخذنا نتجاذب الحديث معها حتى إذا رفع النداء لصلاة المغرب أديناها جماعة يَؤُمُّنَا الوالد ، ثم أخذت أمى من بعد تعد العدة لتجهيز القهوة ، وبخور العود إذ سيجتمع مجلس العائلة ممثلا فى الوالد وعمى وخالهما ، وكانت الوالدة وَجِلَةً مخافة ما يحدث .

أقبل عمى وخاله بعد أن أديا صلاة المغرب فى المسجد المجاور ، وكان الوالد فى استقبالهما ، وأحسنت الوالدة وضع غطاء الرأس وتقدمت وفى يديها المجمرة يصعد منها بخور العود ، وقد سبقتها رائحة القهوة . حتى إذا أخذ كل مجلسه وتقدم الصغيران يقبلان أيدى كبار العائلة وكان والدى بادى البشر كثير الترحيب . ثم ارتفع صوت أبى يدعونى وزوجتى للمثول بين يدى العائلة وكبار حكمائها . ولدى دخولنا كانت مفاجأة الوالد حين قدم زوجتى إليهم قائلا :

– هذه البطلة ، أم محيسن ، مثال الشجاعة والبطولة اللى رفعت اسم العائلة عاليا وجددت أمجادنا .

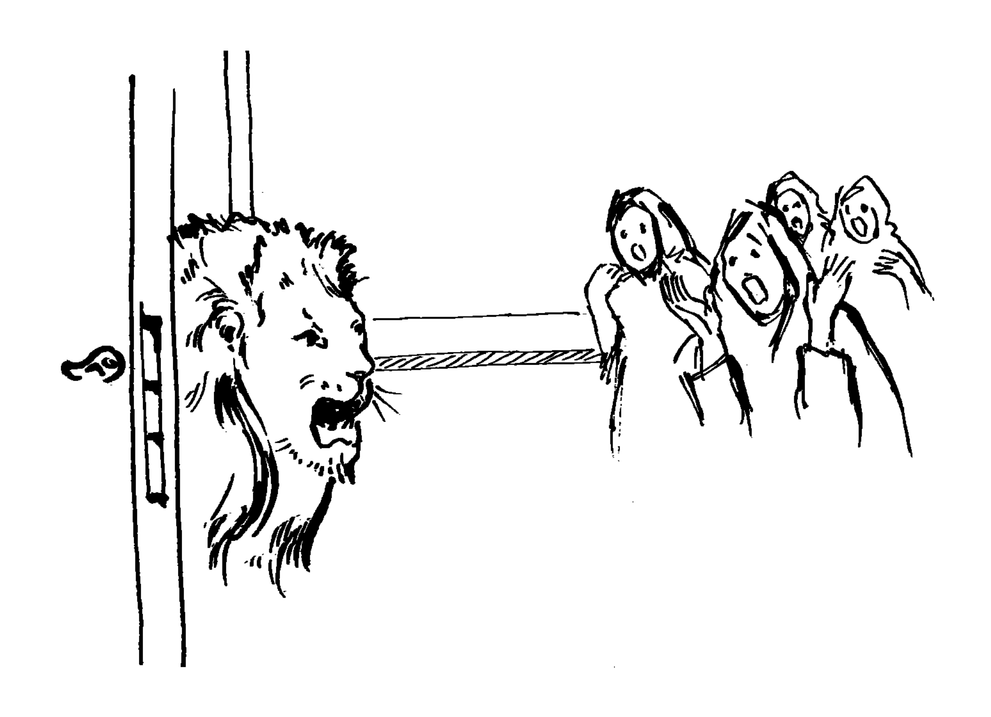
كانت بحق مفاجأة علينا وعلى الحضور ، وأخذ يبدى ويعيد سعيداً بما أدرك اسمه من سمعة . واستطرد يروى عن سابق سوالف وأحاديث ، كلها تحكى عن صولاته وجولاته فى عوالم الشجاعة وقتل الوحوش .

وفوجىء – حكماء العائلة – بالتغيير الذى جرى على موقف أبى ، خاصة وأنه كان بين آونة وأخرى يثنى على شجاعة أم محيسن ويربت على كتفها ويقربها نجيّا وبين لحظة وأخرى تسارقنى أم محيسن النظر ، وهالة تشير الىّ مطالبة بحقها فى الصفقة .

وبعد أن تناولنا العشاء خرج مطاليق اللحى ، وقد خاب أملهم فى الوالد وبقية سلالته !







## ١٩

أوى والدى إلى نومه كعادته مبكراً – بعد أن تناولنا طعام العشاء الذى أعدته الوالدة – . وقد رفض حكماء آل أبو ناصر – عمى وخاله – تناوله احتجاجا على سوء تصرف منى وزوجتى ، واحتجاجا مضاعفا على تغير موقف الوالد الذى كان مفاجأة للجميع .

وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث – والدتى وزوجتى وأنا وبعض عجائز السيدات من ذوى القربى – ثم سألتنى زوجتى إذا كنت أرغب فى النوم . وعجبت لاهتمامها المفاجىء بنومى – رغم أننى كنت فعلا فى حاجة لذلك – وأجبت إيجابا . فهبت الوالدة – كعادتها – تهىء لى أسباب الراحة . وأويت إلى حجرتى لأنام هانىء البال . ولكن !! ولكن هيهات للنوم أن يأتى ، فقد شغلنى اهتمام زوجتى بأن أنام مبكراً . وعدت للنفس – كما تعودت – أسألها فهجس هاجس – من النفس – أن ربما رغبت أم محيسن فى سرد تفاصيل مغامراتها فى الرحلة ، وكيف قضت على الثعبان الوحشى ، ووجودى معها ربما حدَّ كثيراً من إمكانيات المبالغة والاغراق فى الخيال . ووجدت أن الهاجس صادق أو هو أقرب للصدق ، فاسترحت وأغفيت بعضا من الوقت .

وصحوت ظمآن ، فخرجت مُيَمِّماً الثلاجة لعلى أطفىء الظمأ . ونظرت فإذا الليل قد انقضى أكثر من نصفه ، وحجرة الجلوس ساطع ضوؤها . فلما قضيت ورويت ظمأى عرجت صوب حجرة الجلوس . وقبل أن أصلها كان صوت أم محيسن قد وصلنى واضحا وهى تشرح ، فتوقفت عن المسير استمع لما تقول مصداقا لما هجسنى من هاجس . وتبين لى أنها قد انتهت من شرح تفاصيل عملية قتلها الثعبان الوحشى ، فطاب لها ، أن كانت محل إعجاب السامعات – الوالدة وبعض المسنات من العائلة – فلم تر بأسا فى أن تقص عليهن ما لم يحدث إلا بقدر ما أملاه حب الظهور والاستئثار باهتمام الآخرين ؛ إذ سمعتها تروى تفاصيل مطاردتها لوحش آخر لم تكن تظنه وحشاً قاتلا ، حيث قالت :

– أنا ياماما .

وكانت دائما تدعو والدتى كذلك .

– فى الحقيقة دوبنا استرحنا وقلنا ننام ، بعض الناس دخلوا الطيارة ، والبعض زى حالاتنا فرشنا فى الأرض واتمددنا ، والنار مولعة فى الوسط وكلنا حواليها ، ولا أدرى إلا ولمحت عينى شىء بيلمع فى الظلام من بين الشجر .

– شىء زى ايه يابنيتى ؟

سألت احداهن وأنا أسترق السمع ، وتطلعت لجواب أم محيسن ، فاذا هى قائلة :

– فى الأول أنا ماعرفت ، شفت كده حاجتين بتلمع ومنورة فى الظلام قلت فى بالى يمكن البومة ، لكن رجعت قلت البومة تكون فوق الشجرة ، لكن دى تقريبا قريبة من الأرض . اتوجست كده . سمعت الصوت اللى سيب مفاصلى . قمت انسليت بشويش ورحت ساحبة حطبة مولعة . وقلت فى عقل بالى ، لو أنا لفيت من ورا وداهمته احسن . لكن خفت لايهجم على النايمين خصوصا فيهم أطفال . رحت بشويش بشويش ، أمشى على أطراف أصابعى علشان ما ألفت نظر أحد . ولما قربت لقيته ياماما .. لقيته .

وأخذت تحرك كلتا يديها دلالة على الخوف والزعر ، واستطردت مستغرقة فى خيالها :

– يالطيف ياماما ، يالطيف ، لقيت نفسى قدامه وهو قدامى ، وإحنا الاثنين قدام بعض ..

– مين هوا يابنيتى قولى . استعجلتها الوالدة ، وكذلك الخالة الجوهرة حيث قالت :

– هو وشنهو يابنيتى اللى لقيتيه ولقاكى ؟؟

– أسد ياخالة جوهرة أسد .

قالتها أم محيسن وأولى أن أدعوها « أم لمعة » .

– ويش هو ؟؟ أسد لقيتيه قدامك ؟؟ طيب وإيش سويتى ؟؟ يعنى كيف تصرفتين ؟؟

قالتها الجوهرة وقد اندمجت تحت تأثير صدق أم لمعة التى استطردت :

- كيف أتصرف ما عاد يبغالها .. لقيت نفسى عينه فى عينى ، وعينه كأنها شرار ، ولقيت نفسى يا إما ياكلنى يا أدافع عن نفسى وأصرخ . وقبل ما أصرخ لقيته راجع لورا بشويش بشويش زى اللى يستعد ، وكشر وجهه وفتح فمه و ...

وهنا كنت قد اقتربت كثيراً بحيث أقف دون الستر بالجور ، ووجدتها فرصة لمداعبة الجميع فقلدت صوت زئير الأسد ، وأنا أجيد تقليد صوت الكثير من الحيوانات . ولم تكد أم لمعة تسمع الصوت ، وكانت قد اندمجت فى المشهد التمثيلى حتى لكأنه خيل إليها أن ما كانت تحكيه كان حقيقة تعيشها . فاستبد بها الرعب فإذا هى قافزة من مكانها لتستوى فى أحضان أمى صارخة :

- يالطيف ألطف . الأسد وصل :

ولم تكن وحدها التى ذعرت ، فقد لحقتها الخالة الجوهرة ولعلها كانت مندمجة فى الرواية أيض أً . حتى إذا ما رأتنى واقفاً داخل الحجرة ، استعادت هدوءها قائلة :

- ايه دا ؟؟ إنت إيش اللى صحاك ، مانمت ؟؟

فأجبتها :

- بلى قد ، ولكن أيقظنى صوت الأسد الذى كنت تطاردين . قومى الله يهديكى قومى ننام وخلى من السوالف بقية لباكر .

وفى طريقنا الى الحجرة كنت أكتم الضحك حتى إذا مااستوينا للنوم أو تهيأنا له ، صمتت - على غير عادتها أو عادتهن جميعاً - وخطر لى أكثر من خاطر وهجسنى أكثر من هاجس فضحكت ولم استطع أن أكتم قهقهة عالية . وكان رد الفعل من جانبها أن كشفت الغطاء عن كلينا واستوت جالسة سائلة فى غضب مفتعل :

- ممكن أعرف انت بتضحك ليه ؟؟

وشعرت كأنها جرحت فى كبريائها أو أنها تفتعل خصومة لدرء سخرية ، فرضيت لنفسى العاشقة أن تكون فى موقف المعتذر عن خطأ لم يرتكب ، وذلك شأن المحبين . فاقتربت منها فى حنان دافق تسبقنى أحاسيسى المتدفقة بدعم مما أزاحه غطاء الفراش معبرا عن محاولة عملية للاعتذار .

ولعلها أمَسكت بنقطة الضعف هذه فاتخذتها قوة لها لتدرأ بها محتمل السخرية

التى كانت تتوقعها إثر حديثها عن الأسد الذى لم يكن ، والذى حاربته ، فأزاحتنى بخليط من العنف والرفق قائلة :

– لا ، أنا لازم أعرف بتضحك ليه ؟؟

ورأيت أن لا بد من المراوغة ، فالمحبون فقط والمتزوجون هم الذين يعرفون توقيت المراوغة ، وأجبت قائلا :

– أبداً ، اللى ضحكنى كنت نايم ، ولقيت نفسى صحيت بعد حلم مزعج هو الذى أضحكنى .

ولكنها كانت حجة واهية ، فزادت فى إبعادى عنها ، وكنت قد اقتربت منها بقدر ماينبغى لمثلى :

– لاه ، إلعب غيرها !! ثم انت إيش اللى صحاك من النوم ؟ ثم كان لازم تصحى هذا الوقت ؟؟ وكان لازم تخرج من الغرفة ؟؟ وكان لازم ...

ولم أتركها تكمل قائمة الاستفسارات ، اذ قاطعت قائلا :

– طبعاً كان لازم أخرج من الغرفة وبسرعة كمان ، كنت هارب .

– هارب ؟؟ هارب من إيه كفى الله الشر ؟؟ .

– ما قلت لك اننى كنت بأحلم ، وشفت حلم مزعج ، كابوس ، صحيت مالقيت قدامى إلا إنى أهرب منه .

– تهرب منه ؟؟ من مين تهرب ؟؟ مين هو اللى تهرب منه ؟؟ .

ولعلها نسيت ، أو تناست جوهر الحديث فقلت لها :

– أنا كنت هارب من الأسد .

وهنا استرجعت كل شىء وبان عليها الإحباط ، وكست وجهها مسحة من الاحباط والحزن ، فاسترسلت لعلّى امتص ما أصابها :

– أنا ماقلت لك إنى كنت باحلم ، وشفت فى النوم كل تفاصيل الرحلة وكيف سقطت بنا الطيارة ، لكن تحول الثعبان الوحشى الى أسد يهاجمنى أنا .

فضحكت قائلة :

– أهو أنا كنت بأهاجم الأسد اللى انت شفته فى الحلم .

ثم فجأة حسرت الغطاء أكثر ، ثم نهضت وسحبت الحشية التى تضع رأسها عليها والغطاء ، وقالت وهى متجهة صوب الباب خارجة :

– أنا مانى تريقة عندك تجلس تهزأ بى ، أنا خارجة أنام مع ماما « وهى تدعو والدتى دائما بكلمة ماما » .

فنهضت خلفها أجذبها من خلفها قائلا :

– إنت فاكرة نفسك ايه ؟؟ تعالى هنا . إنت فاكرانى ضعيف ، أنا الأسد .

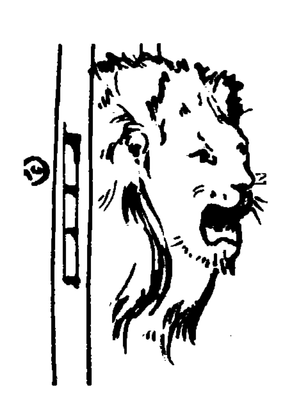
وفى شدى لها من الخلف ، تمزق قميصها الشفاف مسفرا وتمثلت الأسد فزأرت زأرة النصر . ولم أكد أفعل حتى كانت طرقات أبى على الباب يدعونى لصلاة الفجر :

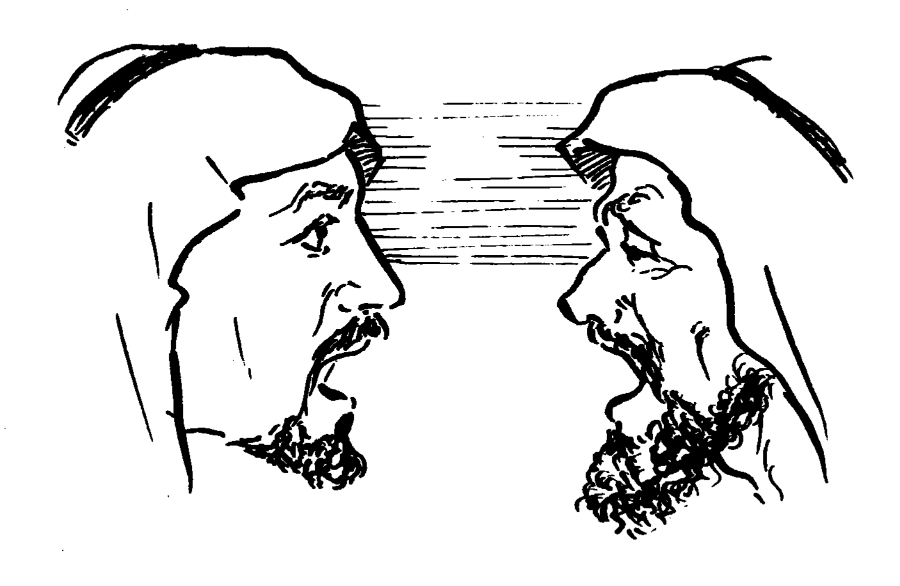
– قم يابو محيسن .. قم الصلاة . أنا عارفك كسلان خاصة عن صلاة الفجر ، يالله أخرج ترانى محتريك فى ذا .

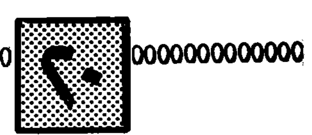
وتنحنح فى شبه إنذار ، وتراخت يداى ، ومات الزئير فوق شفتى ، ومات الليل على مطلع الفجر ، ومات كل شىء .. إلا ابتسامة أم محيسن قائلة فى تشف :

– قوم لأبوك للصلاة .

ثم همست : – وأنا رايحة أنام يا ... أسد .







لم نتمكن من الحجز للعودة بسبب الزحام عقب عطلة نهاية الأسبوع ، ولابد من عودة بسبب الدراسة ، وبالتالى اضطررت للبقاء يوم السبت وفات يوم من الدراسة . وصباحا بعد أن أكدت الحجز للعودة اتصلت بالمكتب تلفونيا فعرفت من سكرتيرى عن تلكس من أمريكا يستعجل الأخبار عن العملية التى تم بحثها ، وكنت قد نسيت ، وعجبت فيم نسيت وفى جيبى - أو رصيدى - مبلغ ثلاثة ملايين دولار لتسليك الأمور وتذليل الصعب .

إذن يجب أن أبقى حيث أنا لبدء الاتصالات ، فاعتذرت عن مصاحبتهم وبدأت الاتصال الهاتفى فيما أقبلت صغيرتى متسائلة ببراءة :

- يا بابا ، غُصَّة .. يعنى ايه ؟؟

وأخذت - كعادتى - أشرح معنى ذلك وأن المرء يغص بلقمة ، أو بماء ، أو ... ولكنها هزت رأسها قائلة :

- يمكن !! بس هيا غير كده .

- طيب إذا كان غير كده ممكن تقولى إنت غُصَّة يعنى ايه ؟؟

- سألتها وأنا أمسح شعرها المنسدل على وجهها ، فقالت :

- أنا ما أعرف يعنى إيه ، بس بالتأكيد لها معنى غير اللى شرحته !!

- ليه يا ماما ، ممكن أعرف ؟؟

فقالت وهى تتلفت لتتأكد من أن أحداً لا يسمعنا :

-أبدا . بس البارح جدتى رنّت جدى غارة قد إيش كبرها ، وبعدين سمعت جدى يقول لها :

- الله يتوب عليك وبس ، ويش أقول ، علم الله إنك غُصَّة مزمنة تغصنى .

فضحكت ملء شدق ، وفركت أذنها قائلا :

– موعيب عليك تتسمعين على الناس . ربنا يقول : « ولا تجسسوا » وإنت كيف تتسمعى عليهم ؟ .

« ولكنها وقفت قائلة :

– أبداً يابابا ، أنا صحيت فى الليل عطشانة ورحت للمطبخ أشرب من الثلاجة ، وسمعت الغارة و ... .

وقطعت حديثها قائلا :

– وطبعا زى كل الستات ، ماطاوعك فضولك وقفتى تسمعى . ؟

– فى الحقيقة يابابا ، أنا ماوقفت أتسمع ، بس رجلى ثقلت ، وإدنى لقيتها وقفت ، وكلما أجرّ رجلى علشان أرجع الاقى رجلى تثقل أكثر لحد ما جدى قاللها : إنت غصة ، وحسبت إنه خارج ، على طول رجلى انفكت من اللى كان ماسكها ودخلت الأوضة وبس ، لكن ماقلت لى يعنى ايه غصة يابابا .

ضحكت مرة أخرى وقلت لها :

– غصة يعنى إنت .

فاذا بها ترفض قائلة :

– أنا ؟؟ طيب أنا دخلى ايه .. هو جدى قال لها إنت غصة ! كيف أكون أنا ، وايش دخلى ؟!

– شوفى يابنتى ، كلمة غصة دى لقب من ألقاب الزوجة بعد مايمضى على زواجها سنة واحدة ، زى مايقولوا زوجة فلان ، حرم فلان ، يقولوا غصة فلان ، يعنى كل زوج وله غُصَّة ، إنت لما تكبرى إن شاء الله وتتزوجى راح تكونى غُصَّة

وهنا أقبلت أم محيسن حاملة كوب القهوة باللبن الذى تعودت تناوله كل صباح ، ورأتنا على حالنا ، هالة جالسة فى أحضانى وأنا أمسح على شعرها ، فقالت ضاحكة :

– ياعينى ياعينى ، خللوا لنا شوية .

فنهضت الصغيرة محيية أمها :

– أهلا يا غصة بابا .

وأسرعت أكتم الكلمات فوق شفتيها ، ولكن بعد الفوات ، إذ وضعت أم محيسن كوب القهوة جانبا ، وأقبلت على الصغيرة تريد صفعها :

– نعم نعم ، أنا غصة بابا يا قليلة الحيا .

وفوجئت الصغيرة بثورة أمها فاحتمت خلفى قائلة :

– أنا إيش لى ياماما ، بابا بيقول كده ، وجدى كان بيقول لجدتى كده ، وسألت بابا ...

فالتفت نحوى قائلة فى غضب وثورة :

– أنا غصة ؟؟ دى آخرتها معاك . إيش سويت لك علشان أكون غصة ؟ .

وصمتت قليلا ، فاقتربت أسترضيها ، وما أسهل أن تسترضى أم محيسن . فيكفى قبلة حنان – ولو كان حنانا كاذبا – فوق الرأس أو الوجنة ومداعبة – مشوقة باليد تمتص ثورتها . وقد كان ، وقبل أن أتكلم شارحا أو معتذرا ، كانت أم محيسن تسأل فى براءة :

– صحيح يعنى إيه غصة ؟!

وضحكت مرة أخرى وحمدت الله على حصيلتها الثقافية . استأذنت للخروج وتركت أم محيسن وأمى مؤكدا لهما العزم على عودتهم – بدونى – إلى جده ، وأن سألحق بهم بعد ، وقبل أن اغادر أقبل أبى بقامته الفارعه وكهولته المهيبة . ولعله قد سمعنى أجيب أم العيال بأننى خارج لقضاء بعض المهام فسأل :

– ويش من مهام تقضى ؟ ، فأجبته بأن لدى أعمالاً أنجزها وصفقة اتمها . فابتسم قائلا :

– يأكثر صفقاتك يا ولدى ، إنت ما أشوفك إلا صفقة تقضيها وصفقة تقضيك ، والله خوفى عليك ، ترى قلبى ما هو مطمن .

– ليش يبا .. وايش رأيك فى .. هذه أعمال تجارية وصفقات مالية ، الحياة كفاح يبا ؟

فهز رأسه لعله عن عدم قناعة :

– ياوليدى ، الدنيا ما هى كلها قروش وصفقات ، ترى أحسن صفقة فى حياتك هم عيالك ، وأم عيالك . ترى عيالك لازم لهم من أب يكون موجود يشوف مشاكلهم ودراستهم ، أنا ما بتدخل فى حياتك لكن إنت ولدى وأحب

أنصحك هالحين تقدر تقول لى انت ما انت جاى لزيارتنا وبس وإلاتشرك بها الزيارة صفقات ؟ يعنى زى ما يقولون حج وبيع سبح ؟!

لم أحرِ جوابا ، وصمت مليا ، ولعل أبى شعر بأنه قسا على ، فقال :

– عسى الله يلهمك رشدك يابو محيسن ، روح شوف شغلك والله يكفيك شر طريقك .

وانطلقت وأنا فى حيرة ، لماذا قال أبى ذلك ؟؟ هل يشك فى مسلكى المالى ؟؟ ما الذى يدعوه لذلك ؟؟ هل هى الحاسة السادسة كما يقال ؟ قبلت رأس أبى مستأذنا وعاد أبى يضع كلتا يديه على كتفى كل من أمى وزوجتى .

لم أوفق كل التوفيق فى مشوارى هذا ، كما لم أفشل كل الفشل . ولكن الصفقات الذممية دائما تكون محل شد وجذب ، كلا الطرفين يسعى لأخذ نصيب الأسد مما ليس له فيه من حق ، ولكن كما أصبح معروفا وبديهيا فى بورصة الذمم : كل يحاول أن يطبق القاعدة المستحدثة التى تقول : الحلال ما حل فى اليد – . أجلت الأمر لجولة ثانية ، وهيأت النفس لأكثر من جولة ، فالصفقة يسيل لها اللعاب ، ليس لعابى وحدى ، ولكن كل الأطراف المعنية ، وكلنا لايريد أن تفلت الصفقة من يده ، فالكل متفق على مبدأ ضرورة تنفيذها ، ولكن من يأخذ كم ، وكم يأخذ كل من ؟!

عدت الى البيت لأجد الجو مشحونا ومليئا بالتوتر ، ولقيتنى والدتى قبل الكل فأخذت بيدى الى الداخل قائلة :

– أدرك ، أدرك ، مراتك خَبصتَهْاَ ، وأبوك بس ماسك كلمة لاحول ولاقوة الا بالله .

– ليش ، ايش صار يا أمى ؟

قلتها فى خوف ومرارة ، فأجابت :

– مراتك مراتك روح اسألها ، الله يهديها لسانها فالت ، وتدردب كل كلمة وكلمة كأنها حجر شبيكى !

ولم أكن فى حالة تسمح لى بالضحك لهذا التشبيه ، فأين نحن وأين الحجر الشبيكى . ولكنها لهجة مكية ، وأسرعت آخذ أم محيسن من يدها للداخل وقفلت الحجرة سائلا :

– إيش اللى حصل ، إيش عملتى لابويا وقلتى له علشان يزعل هذا الزعل ؟؟

وبكل برود أجابت :

– أنا زعلته ، ان شاء الله ينقطع لسانى إن كان قلت له كلمة تزعله ، دا فى مقام أبويا ، ويحبنى ، وأنا كان زى ماتعرف ...

ولم أحتمل هذه المقدمات فقاطعتها :

– خلصينى .. كلنا عارفين إنه بيحبك وتحبيه ، بس إيش اللى حصل ؟؟ .

– وى ، وايش بك كده ملهوف ، أجلس أجيب لك عصير الليمون تبرد على قلبك .

وانقلبت لتغادر لإحضار العصير ، فأمسكت بذراعها بعنف :

– عصير ايه ، أنا اللى يبغالى أعصرك .

ولعلها أخطأت فهمى ، ولعلها ظنت أننى راغب فى مغازلتها ، وذلك بعض مما يحطم أعصابى منها .. إذ قالت مستحيية :

شبيك لبيك ، خذنى واعصرنى بين يديك

وتمنيت لو توارى حبى لها وعشقى لها ، اذا لصفعتها :

– يا بنت الناس تعالى ، تعالى .

وأمسكت بيدها فى رفق لأستدرجها كى أعرف ما صدر منها فأثار والدى :

– تعالى وبهداوة قولى ايش اللى حصل .

– أيوه كده ، بهداوة ، هيا دحين أقوم أجيب لك العصير ، طيب دا أنا عَاصِرْتُهْ بنفسى وِحَاطِّتُهْ فى الثلاجة علشان تبرد على قلبك . عن إذنك .

وقتلنى ما هى فيه من برود ، وأنا أكاد أغلى فى داخلى ، وتركتها لتحضر العصير ، وإلاَّفلن أستطيع أن أصل معها إلى ما أريد معرفته .

تناولت العصير منها وأجلستها بجانبى مستعطفا أَن تشرح لى الأمر .

– أبداً .

هكذا بدات الشرح :

– إنت خرجت من هنا واحنا دخلنا مع عمى كل يد على كتف واحدة مننا ، وجلسنا ندردش شوية ، وبعدين قال لى عمى :

– أبى أنشدك يا أم محيسن عن ولدى ، كيف هو ؟؟ . وطبعا قلت له كل حاجة .

فأسرعت استوضحها :

– كل حاجة يعنى ايه ؟؟ قولى لى أنا كل حاجة ، قلتى ايه ؟

فاقتربت منى فى حنان دافق وحب مجسد قائلة :

– قلت إنك قلبك كبير ، وصدرك حنون ، وعمرك مازعلتنى ، وإن حبك عوضنى كل اللى اتحرمت منه من حنان الأب والأخ ، وإنك إنت أبويا ، وأمى ، وأخويا ، وزوجى وحبيبى ، وإنك انت كل حياتى .

ورغم أن ذلك أرضانى ، إلا أننى فى شوق لمعرفة سبب تغيير أبى وغضبه . وقبل أن اسألها ، واصلت الحديث قائلة :

– لكن عمى سألنى قائلاً : ما هذا قصدت ؟؟ أقصد ايش تعرفين عنه .. عن أعماله واستقامته . فقاطعتها :

– هذا اللى أبغى أعرفه .. ايش كان جوابك ؟؟

– أبداً . قلت له إن استقامتك هادى شيىء بينك وبين ربك ، بس اللى ظاهر إنه مستقيم معايا ، لكن عمله ما أعرف كل حاجة عنه ، أنا غلطانة فى كده ؟؟ .

– لا ما غلطتى ، بس ويش كان ؟؟

– أبدا ، سألنى يعنى ما تعرفين عمله ، وإيش يعمل ، أنا افتكرت إنى مرة سألتك عن عملك قلت لى إنك بياع مشترى .. تبيع وتشترى فى الذمم ، وفاكرة كان لما قلت لى إنك حرامى مودرن وفى عز النهار ، مو زى التانينن فى الليل

– انت قلتى له كدا ؟!

– طبعا ياروحى .

لم تكد تنطق بها حتى صرخت فيها :

– عسى روحك تزهق يا بعيدة . ولعل صوتى قد ارتفع ، فإذا أبى يدخل علينا يقول فى أسى: يا وليدى ، كل روح زاهقة بس لا تنسى كل شاة معلقة من عرقوبها .

وأسرعت أحاول توضيح الأمور ، ولكنه أدار لى ظهره قائلا :

– بعدين ، ما هو بها الحين ، لى معاك كلام .

وصفق الباب خلفه ، وكان موعد الطائرة للسفر الى جدة قد اقترب فحملتها والعيال الى المطار ، وأنا أفكر فى حديثى مع أبى وكيف ألقاه !!







– إسمع يابو محيسن يا وليدى .

بهذه الجملة بدأ أبى حديثه معى وفى صوته عمق زمنى خلته كأنه عدد سنى عمرى كله .

– إسمع منى واعى كلامى زين ، ولا تقاطعنى ، وبعدما انتهى قول ماعندك .

– عدل يا طويل العمر ، أنا أسمع إن شاء الله .

– شوف ياوليدى ، أنا عشت مع أمك وربيتك وإخوانك بفضل الله من حلال ، كُلّشْ من حلال ، يسألنى ربى ما فيها شبهة حرام ، لكن شايف السالفة الأيام هذى والعياذ بالله ، الناس تجرى وراء المادة ما يسألون كيف هى ومن وين هى جاية ، وأخاف إنك مثلهم ، اسمع يا وليدى ؛ مثل ما قلت لك كل شاة معلقة من عرقوبها وإنت أبخس بنفسك ، لكن عيالك ، لا تطعمهم إلا حلال .ترى ما نبت من حرام ، النار أولى به ، وعلمى سلامتك .

كيف أشرح الأمر لأبى ؟ لم يخطر ببالى أبدا أنى كسبت ما أكسب من حرام ، إنها صفقات أقوم بها .. اشترى خدمات الآخرين مقابل خدمات يقدمونها . أنا مافعلت إلا تطبيق قاعدة اقتصادية تقول : إن كل قرش يقدمه الفرد يعود عليه فى شكل خدمات يستفيد منها ، وضربت لأبى مثلا حينما كانت البلدية تأخذ منه – أيام زمان – مبلغا من المال مقابل إنارة الحوارى والأزقة وكانت تسمى ضريبة نظافة وإنارة .

– بس ياوليدى ، إحنا كنا نقدمها للبلدية ، والبلدية كانت تقوم فعلا بالإنارة والتنظيفات . يعنى جهة مسئولة .

والتقطت الكلمة من فمه :

تمام ياوالدى ، أنا كان ، وأمثالى بنفعل نفس الشيء . هالحين ، وبالمثال يتضح الاشكال ، الشركة العالمية لما وراء البحار ، طرحت فى المناقصة العالمية مشروع انتاجى ضخم يعود على الجميع بفائدة اقتصادية كبيرة ، تتقدم جميع الشركات المختصة بعطاءاتها ، والجيدة تفوز براعيها زى ما يقول المثل .

– طيب وانت عندك شركة مثلا ، وعندك الامكانيات ؟

وجدتنى أحيد به عن أسباب غضبه ، فرأيت أن أعرض عليه – تلميحا – ما أنا بصدده ، لعلى أجد منفذاً عنده ، فاستطردت قائلا :

– لا ، انا ما عندى الامكانيات . لكن باعتبارى صاحب مؤسسة وطنية لى الحق فى أن أمثل جهة عندها الإمكانيات ، تقوم هى بالتنفيذ ، وأنا أكون الواجهة المحلية ، وآخذ عمولتى مقابل هذا ومقابل اننى أتحمل المسؤولية كاملة . ولا يعنى مؤسستى تتحمل مسؤولية ضخمة بدون مقابل .

– لا ، هذا عمل ما فيه ريبة ، على فكرة إنت قلت إن الشركة العالمية لما وراء البحار ، هى اللى طارحة المشروع ؟

– نعم هى اللى طارحة المشروع ، ليه تعرف أحد فيها ؟

– إيه بالله ، أعرف مدير الشركة نفسه ، ورئيسها ، أنا أروح أكلمه علشان مؤسستك تقوم بالمهمة ، بس الله ، تنفذ المشروع بالتمام والكمال ، وما تفشلنى ؟

وضحكت داخل نفسى ، كيف يظن أبى أن العلاقات الشخصية تذلل العقبات فى عصر توارت فيه هذه الأخلاقيات التى مازال يعايشها هو . ورأيت أن أدعه يمر بالتجربة . وقد كان ، إذ وعد أن يفعل الغداة ما فى وسعه . وجعلت أمهد له الأمور حتى لا يصاب بخيبة أمل ، تلميحا هنا ، ودون التصريح هناك .

وفى المساء كان يسألنى عما قالته أم محيسن ، وهنا أخذت أضرب على نغمة سذاجتها ومحدودية ثقافتها وبساطتها بجانب سعة خيالها وذكرته بمواقف لها خاصة يوم أن كنا بمزرعة الدواجن حين قالت إن المعجزة هى كيف دخل الكتكوت داخل البيضة وهى مقفولة ! وصدق ذلك والدى وضحكنا مليا .

ومن الصباح كان أبى فى كامل هندامه ، وأحسن التَطيُّبَ بالعود وعطر الورد ، فهو أكثر ما يكون حرصا على ذلك إذا كان فى مقابلة الرجال الكُمَّل .

قضيت سحابة اليوم فى الاتصال بالبنك وأودعت المبلغ الذى كان معى ، الذى عدت به من العرض معى لتذليل الصعب من الأمر . حتى إذا اطمأننت لذلك ، أخذت أصنف جهات الصرف ، كم لكم؟! وكم لمن ؟؟ ومن له كذا ؟؟ وكذا لمن ؟؟ دوامة يتوه فيها من لم يتمرس بها .

وعلى مائدة الغذاء كان أبى بادىء الإعياء ، ظاهر الأسى ، يكثر من الحوقلة ، فلم أناقش معه الأمر ليأخذ نصيبه من الراحة بعد الغذاء والقيلولة كما تعود على ذلك . وبدت أمى سعيدة أن هدأت العاصفة التى كانت تخشاها من المواجهة بين أبى وبيتى ، وفى المساء المبكر كان أبى قد إستعاد نشاطه الذهنى والبدنى واحضرت والدتى شاهى العصر الذى يحرص على تناوله من يد الوالدة وهو يدغدغ أحاسيسها بعذب الكلام ، حين قال لى وهو يرفع كوب الشاى المنعنش :

– اشرب ياناصر ، كوب الشاى ، لا أحسن ولا أمتع منه ، من يد أمك الله لا يخلى منها ، من يوم تزوجنا وهذا شاهى العصر من إيدها ينسينى تعب الدنيا كلها ، ما أدرى والله إذا مت ، كيف ما أشرب الشاى منها .

ولم تسع السعادة والبشر والفرحة والدتى ، إذ اجتاح كل ذلك نفسها وجسمها فارتسمت على صفحة وجهها ، حتى لقد خيل إلى أنها للحظات عادت صبية تعربد الفرحة داخلها فتوارت الأخاديد والتغضنات من وجهها بفيض الحب الدافق والسعادة لما سمعت من حديث الحب من أبى .

– بعد عمر طويل يابو ناصر ، وان شاء الله ربنا يجمعنا فى الجنة وأنا أسقيك برضه هناك .

كان صوت الوالدة وهى تتحدث كأنه تجاوز حاجز الزمن فجاء رقيقا كحديث عذراء لعاشقها . وأردت أن أذكرهما بوجودى قائلا :

– بس فى الجنة كل شيىء جاهز ، وما يحتاج إنك تحضرى الشاهى .

وإذا أبى يستبق الإجابة قائلا :

– إنت آخر من يحق لك الحديث عن الجنة ، عَدِّلْ مسارك فى حياتك وبعدين تكلم ، وبعدين ما هو مهم تحضير الشاهى فى الجنة .. المهم إنها معى وأنا معها ، هذه النعمة روضة من رياض الجنة .

أخذت الوالدة تجمع أكواب الشاى وإبريقه لتعود راضية لغسلها . وكنت أعيش لحظات وكأننى مَسَّنِى ما يصعق . ما هى جبلة الجيل السابق ؟؟ أمن المعقول

أن يعمر الحب كل هذه السنين ؟؟ وأى حب ؟؟ حب زوجى ؟؟حب هو العشق كما ألمس ، لماذا ؟؟ من تجربتى ، والأكثرين أمثالى لا أجد الحب يعمر أكثر من شهور معدودة بعد الزواج ، ثم يتسرب الحب مسارب شتى – فى الزواج – أوثقها وأشدها هو التعود .. حالة التعود التى يعيشها الزوج ، فضلا عن أن أقول إنها حالة التبلد ، الأمر الذى يدفع للبحث عن الجديد خارج الاطار .

ودهش والدى لحالة الذهول التى كنت عليها ، ثم ذهل حين سألته عن مدى صدق العاطفة فيما ناغى به أمى فقال :

– تستكثرون علينا ياشباب ها الأيام ، ما نحن عليه ، ترى إحنا وأنتم ينطبق علينا قول الله سبحانه وتعالى « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .

فصدقت أن صدق الله العظيم . ثم رأيت أن أسأله عما وصل إليه فى موضوعنا ، ولم أكد حتى حوقل واستعاذ قائلا :

– والله ياوليدى النفوس تغيرت . ساعة رحت ودخلت عليه ، قام وحيّانى وما قصر ، أدى الواجب وزَوَّدْ ويوم عَلَّمْتُه عن غرض الزيارة برد فى نفسه ثم تململ ويوم شاف الشك فى عيونى أرسلنى على مدير المشاريع مع التوصية ما أدرى هى التوصية اللازمة وإلا ما هى اللازمة ، وهذا أخذ يحاكى فى أمور يطول ويقصر فيها . يوم شافنى ما فهمت قصده حولنى على القسم الهندسى ، وفعل مثل ما فعل السابق ثم حولنى لقسم الادارة الفنية ، ومن قسم لقسم وأنا أتحرك وكل يحركنى على قسم تانى لحد ما لقيت نفسى عند باب المؤسسة ، وعلمي سلامتك ويا كافى البلا ، والله أنا شامم فيها ريحة خنزة ، ما هى من شيمتنا . وأنا أبوك أبعد عنها .

– بالعكس ياطويل العمر ، الريحة الخنزة ، هى اللى فيها البشارة .

– كيف يعنى الله يهديك .

استعجلنى الاجابة بادى الدهشة ، فوجدتها فرصتى حتى ألين قناته .

– يا طول العمر .

هكذا بادرته وأنا أعلم أنه يرتاح لهذا النداء .

– ها الحين اللى صار بالمكان ريحة خنزة : مثلا بالحمام أو المرحاض ، كيف نزيلها ؟

– والله يا ناصر وأنا أبوك ، كنا نشترى الإسفنيك محلول ونكبه بالمرحاض ، تروح الريحة الخنزة .

فاستطردت جدلا : – الاسفنيك يا طويل العمر ما يقضى على الريحة الخنزة .

– كيف يعنى ، أجل .. إيش يصير ، طول عمرنا واحنا نستعمله ويذهب بها .

– لا يا طويل العمر الإسفنيك ما يودى الريحة الخنزة ؛ بس اللى يحصل إن ريحة الاسفنيك أقوى من الريحة الخنزة علشان كده تختفى الريحة خلف ريحة الاسفنيك اللى هى أقوى منه . فهمت يبا ؟؟

– لا بالله .

– أنا أقول لك يا طويل العمر ، إنت تقول إنك شميت فى العملية ريحة خنزة ، خلاص ، إحنا يا أهل الكار أول ما نشم ها الريحة نرتاح .

– أعوذ بالله ، ترتاح ؟؟ كيف .

– شوف يا طويل العمر ، أول ما نشم الريحة هذه ، نعرف إنه لها وسيلة مثل الإسفنيك ، تخفى الريحة الخنزة بريحة أقوى منها ، تماما مثل بخاخ الورد والصندل ، والعود . هذه الوسيلة عندنا نبخها فى الطريق – قصدى طريق الريحة الخنزة – وخلاص تسلك الأمور وتختفى الريحة الخنزة ، ويحل محلها ريحة البخور اللى نحرقه أو نبخه فى طريق الصفقة .

– أفهم من هذا إنك قدير لك واسطة علشان تقضى أمورك ؟ حسبى الله عليك وعلى الواسطات اللى خربت حياتنا ، حسبى الله .

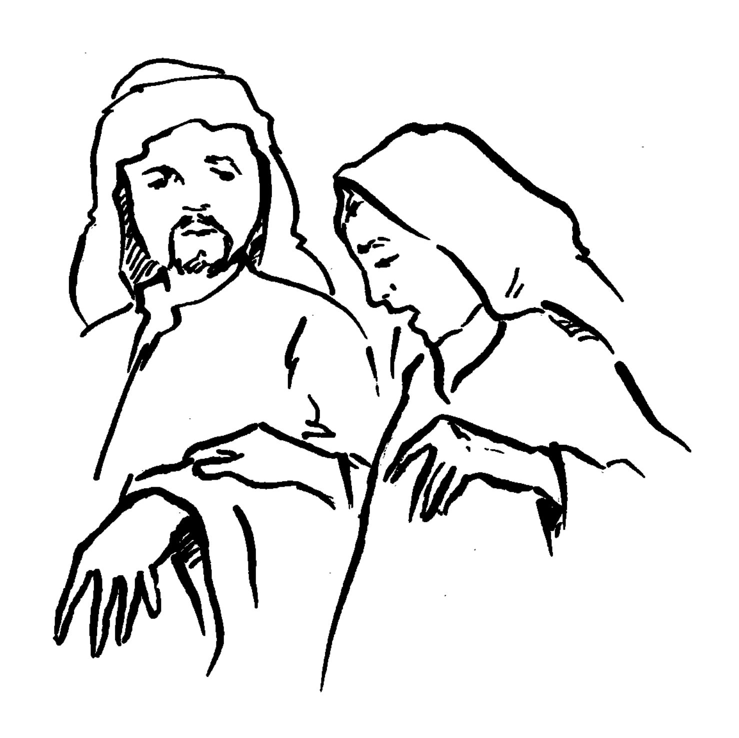
ونفض كلتا يديه كأنه يريد أن يتخلص من أذى ، وخشيت أن تعاوده نوبة الشكوك فى تصرفاتى ، فضربت له مثلا :

– يابوى الله يطول فى عمرك ، ترى الواسطة لا بد منها فى كل أمورنا . إذا مرض الواحد فينا يطلب الدكتوْر اللى يكتب له على العلاج . الدوا هذا هو الوا سطة إلى العافية ، إنت لا سمح الله إذا حصل عندك إمساك شديد ، وايش تسوى ؟؟

– أشرب شربة ملح انجليزى والا زيت الخَرْوَعْ .

– خلاص ، يعني حضرتك تدور على واسطة تقدمها لبطنك علشان تفك قبضتها وتصلبها .يعنى لابد من الزيت الخروع علشان تمشى البطن . كان أمورنا أصبحت كده ، لابد من الزيت علشان تمشى الأمور .

– قم ! قم عسى الله يهديك ، ترى أنا نفسى غَاشَتْ علىَّ من كلامك ومن زيت الخروع !



## ٢٢

لم أجد كبير صعوبة فى البحث عن أقرب المسالك للسلوك فى دفع البحث لتسليك الصفقة ، فقد كفانى المؤونة مدير مكتبنا هنا . وأعتقد أن من المهم ان يكون مدير المكتب ذا مواهب متعددة وذلك شأن مدير المكتب هنا . فما أن علم بالأمر حتى أكد لى أن الأمر ليس بمثل الصعوبة التى كنت اتصورها ، وأن بضع حفلات تعارف وعشاء عمل أو غداء عمل كفيلة بالتقريب ، أو التعريف بجماعة المُعَقِّبين .

وحاولت أن أصحح له سائلا

المعقبين ؟ ربما تقصد الوسطاء !!

– لا سيدى ، أقصد المعقبين ، لأن الوسيط هنا وسيط أخرس ، ولكنه يتكلم بلغة الأرقام .

لم أشأ أن أجادل فى الأمر فقد كفتنى الميكيافيلية مؤونة الاقتناع ، بجانب كفاءة « أبو سامر » – مدير المكتب – الذى أثبت كفاءته فى أكثر من موقف وأكثر من صفقة . وهنا قسمت له نصيبا موفورا بعد أن ناقشت معه تفاصيل الامر . وتركت له ترتيب الأمور لاضطرارى للعودة بعد أن تركت كثيرا من السيولة النقدية تحت تصرفه .

ومن أصول اللعبة التى يحذقها « أبو سامر » أن قال لى :

– إن هذا المبلغ الذى تركته ضخم .

ومن أصول اللعبة التى أصبحت أجيدها كان لزاماً أن ألقى اليه بطعم – تحت الحساب – فقلت له :

– لا تبخل بشيء ، وللمعقبين أمثالها ، هذه ميزانية المعقبين والسعى ، فإن فاض شيىء فهو من حق الاحتياطى .

وضحك ملء شدقيه فقد كنت أدعوه دائما بكلمة « الاحتياطى » ولمع فى عينيه بريق التصميم . وودعنى قائلا :

– أفضالك سابقة يا بو محيسن .

قَرَّتْ نفسى مطمئنة بقرب الفوز ، ورأيت أن يكون لأم محيسن نصيب ، فعرجت على سوق الصاغة وانتقيت الأحسن للأَحَبِّ من الناس . واستأذنت أبى فى العودة فعز عليه أن أغادر وَلَمَّا أُكْمِلْ صفقة العمر كما ظن :

– كيف تسافر وتترك الصفقة ، انت ما قلت إن فيها قروش واجد ؟؟ إجلس وخَلِّكْ معانا وابذل الغالى والرخيص ، خلك مثل أبوك ، والله إنى كنت أمشى الساعات واقضى الأيام عديدة فى سبيل صفقة فيها مربح مائة ريال والمائة كانت أيامها كما عشرة آلاف فى هذا الوقت .

وطمأنت أبى أننى ذاهب لاستكمال بعض ما يلزم وأن لى عودة وشيكة ، فأذن لى .

حطت بنا الطائرة مع تباشير المساء ويممت شطر الأحبة هالة ومحيسن وأمهما ، فمن نافلة القول ، أو تحصيل الحاصل أن أؤكد أننى رجل أُسَرِىٌّ متعلق بأسرتى . وسلوكى هذا لم ينتزع من أم محيسن بعض نوازع الشك خاصة إذا ما كان فى الأمر رحلة إلى الشرق الأقصى .

استقبلتنى هالة فى الحديقة فرحة متعلقة بعنقى وأمطرتنى قبلا متلاحقة . يا لعاطفة الأنثى ! وتذكرت نصيحة أبى حين سألته منذ أيام حين كان يداعب والدتى بحديث الحب والحنان فقال – أمد الله فى عمره – ياوليدى ، يمكن الحب يخبو مع الأيام ، لكن عليك بالحنان . الحنان هو اللى يذكى خابى الحب ، ترى هو مولد الطاقة التى تمد الحب بالبقاء ، ترى يا بو محيسن أوصيك وصية غالية ، الحنان هو الثدى الذى ترضع منه الأنثى إكسير الحياة . حذار تحرم الأنثى من حنانك ، إحرمها من كل شيىء يهون عليها مادام الحنان دافق .

عاد الى ذاكرتى ما قاله أبى فضممتها لصدرى كما لم أفعل من قبل واستبقيت بقية – هى الأكثر – لأم محيسن ، ودلفت إلى الداخل وهالة معلقة فى عنقى ، حتى إذا استوينا فى الداخل انسلت مسرعة لتخبر أمها التى أقبلت ، وكأنها كانت على علم بحضورى فبدت كأحس ما ينتظر الزوج .

وكان لقاء استكمل عناصره حين طلبت هى إلى هالة أن تنطلق لمشاهدة برنامجها

المفضل فى التلفزيون فانطلقت بعد أن تأكدت أنها سوف تطالب بهديتها التى أحضرتها لها ، فقد تعود الجميع منى أن أقدم هدية لكلّ حين قدومى من غياب .

ورأيت أن أتوج وهج اللقاء بمفاجأتها بما أحضرت لها من هدية قيمة فحررت يمناى ومددتها لألتقط الهدية من قريب فتحولت بشق كصاحبة امرىء القيس لتنظر ما أفعل . وما أن فضضت غطاء العلبة ممسكا بقلادة الذهب المرصعة بالجواهر الكريمة ، حتى شهقت للمفاجأة . وانتظرت الأمتع من الشكر والأعذب من الأمتنان وتخيلت أنها ستشدنى ألى أعماقها حبا وشكرانا وتهيأت لذلك ولم تفعل ، إذ لم تدم فرحتها ودهشتها إلا مقدار لمح البصر أو هو دون ذلك . وأفاجأ أنها انسلت كصاحبة امرىء القيس واستوت جالسة :

– خير ان شاء الله ، !! ايش المناسبة للهدية الغالية دى ؟؟

وأؤكد أننى فوجئت لهذا الانقلاب المفاجىء وسألتها :

– هل لابد من مناسبة لأقدم لك هدية غالية ؟؟ ثم بين الزوجين ألَا بُد من مناسبة ؟؟ إنها تعبير عن حبى وشوقى يازوجتى الحبيبة . وقلت الجملة الأخيرة بشيىء من الاحباط المشوب بالسخرية .

– قل لى أولا .

وأمسكت بأعلى الثوب تشدنى إليها .

– ايه العملة اللى عملتها ؟؟ مؤكد إنت عملت لك عملة كده ولا كده وجى ترضى ضميرك بالهدية !!

كلام جديد وأسلوب جديد لم أعهده فيها من قبل وما كان لها أن تكون على هذا المستوى من التفكير . ونهرتها جادا :

– إيش تقولى إنت ؟؟ إيش تقصدى بهذا الكلام ؟؟ أنا عملت عملة وجى أكفر عنها بالهدية ؟؟ مين علمك هذا الكلام ؟؟ وإيش جديد فى حياتنا و لكن أنا غلطان ، هاتى الهدية هنا .

وامسكت بالقلادة الذهبية وقذفت بها بعيدا عن السرير ، ونهضت أللم بقايا عواطفى ، وانا أشعر فعلا بجرح عاطفى حتى لقد أوشكت – لولا أن تماسكت – أبكى .

وأقبلت خلفى تسعى تقبل أعلى ظهرى قائلة :

– أنا آسفة ياحبيبى ، بس الناس اللى يفهموا بيقولوا كده ؟؟

– مين هم الناس اللى يفهموا دول ؟؟ فهمينى مين هم اللى يفهموا وقالوا كده .

- أنا عارفة عاد ؟؟ أنا سمعت الدكتور يقول كده فى برنامج الأسرة السعيدة وإلا فى برنامج حياتنا اللى فى الراديو ، ويقولوا إنه دكتور الأنفس ما أدرى دكتور إيش .

- ياستى هذا دكتور فى أمراض النساء والولادة ، إيش دخله فى ...

ولم تتركنى أكمل قائلة :

- لا ، هو مو دكتور فى الطب . إيوه افتكرت دكتور فى علم النفس لكن قل لى هو كان النفوس لها دكاترة ؟؟

- طبعا يا أم محيسن .

قلتها وأنا أضحك داخل نفسى لهذه القفزة المفاجئة فى إدراكها :

- النفوس ما أسهل ما تخرب . هناك نفوس تخبثها الفلوس . وهناك نفوس يخبثها كلام الناس . وهناك نفوس يخربها سماع مثل كلام الدكتور هذا . لكن ممكن تقولى قال إيش هذا الدكتور .

- قال ياسيدى اللى ما انت ، إن الأزواج عادة لما يمضى على زواجهم سبع سنوات على الأقل يصابون بنوع من التبلد أو التعود . وهذا يطلق عليه علماء الزواج ( هرشة السنوات السبع ) . وهذه الهرشة تدفع بعضهم أن يلعب بديله من ورا مراته ، وبعد ما يعملها يؤنبه ضميره يقدم يقوم هدية لمراته علشان يرضى ضميره ويسكت عنه ، على فكرة يؤنبه يعنى ايه ؟؟

- يابنت الناس دكاترة علم النفس لهم أحوال . ولو كانوا صادقين فى كلامهم هذا بالذات كان تسعين فى المية من الزوجات امتلت بيوتهم بالهدايا . وعلشان أثبت لك صحة كلامى هاتى التليفون . الدكتور عبد الله وأنا أعرفه وأكلمه قدامك ، روحى خذى التليفون التانى واسمعى .

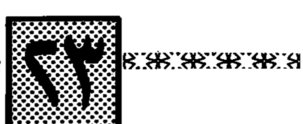
وتحدثت إلى الدكتور وقد كان زميل دراستى فى مرحلة الثانوية وسألته عن أحواله وزعمت له أننى وأم العيال ربما فكرنا فى زيارته عائليا فأبدى ترحيبه لولا تحفظ بسيط وذلك أن زوجته تركت البيت إلى بيت أهلها بعد أن قدم لها هدية جميلة . ولما أبديت له عجبى لذلك قال إنها - زوجته - حاسبته على تلك الهدية برعم انه - حسب حديثه فى البرنامج - لا بد وأنه قد أتى ما يستوجب التكفير عن الذنب .

وتطلعت إلى أم محيسن بعد أن أنهيت المكالمة أسألها رأيها فى الأمر ، فلم تزد أن قالت :

- حاجة تحير ، صحيح يا مآمنة الرجال يا مآمنة المويه فى الغربال !.




ترموس



- ايه هوا ، انت نويت تشرب شاهى فى العمل ؟؟

ببراءة كاملة وصوت دافق بالحنان سألتنى أم العيال حين رأتنى أدخل الدار وقد حملت فى يمينى حافظة حرارية ( ترموس أو ثلاجة ) وكان الترموس آية فى الابداع الفنى الخارجى الأمر الذى لفت نظرها اليه . وضحكت فى نفسى وعجبت لملاحظتها تلك . وأقبلت بكل شبابها ودلالها وأنوثتها مادة يدها . وأحسنت الظن بنفسى ، إذ حسبتها قادمة لتحضننى ، أو على الأقل لتلقانى بذراعيها ، كما يزعم القصصيون وأبطال السينما والتلفزيون ، واستطردت فى حسن ظنى بنفسى فتهيأت للقاء دافىء ، وبسرعة فائقة أعملت عاطفتى وخبراتى السابقة فى كيفية اللقاء ؛ هل أفعل كما كان يفعل ( رودلف فالنتينو ) إمبراطور العشاق السابق فى السينما الأمريكية ، أم أتخذ هيئة ( حسين فهمى ) بطل عشاق السينما العربية ، وبين مقارناتى لأى الشخصين أتقمص ، كانت خيبة أملى صدمة عاطفية . وذلك أن أم العيال انما أقبلت لتتناول من يدى ( الترموس ) الذى أحضرته ، حيث أعجبها شكله .

وأخذت أعود باللائمة على نفسى وحسن الظن بها ، لكن نفسى رفضت هذا الموقف منى ، ورفضت الملامة ، اذ اتهمتنى بسوء التصرف ، وسألتها - نفسى - : ايه يانفسى وكيف كان سوء التصرف هذا من جانبى ؟؟؟ فأجابت . أنسيت إنكما زوجان ؟؟ ونسيت كم مضى على زواجكما ؟؟ . وهل هناك زمن محدد للأزواج يمارسون فيه العشق ، ويتطارحون الغرام ؟؟ سخرت نفسى منى وقالت : هذا أحد العديد من عيوبك ، أنت تعيش واقعا أمدا طويلا وكأنك فى حالة سبات أو غفوة ، ثم تنتابك نوبة صحو فتنسى أنك كنت غافيا .

وشعرت بالضيق من السخرية ، وبضيق اكثر أننى لم أفهم نفسى وما حدثتنى به فهززت رأسى كمن ينفض أفكارا وقلت : أنا لا أفهم ماذا تعنين .

– هناك مجال زمني محدود لحالات الزواج التي يتم فيها تطارح الغرام والعشق لا يتعدى

– فى أقصى مداه – بضعة الشهور الأولى للزواج ، فقط أصحاب القدرات الخارقة هم الذين يسجلون رقما قياسيا لا يتعدى العام الأول من الزواج . وبعد ذلك سألت بلهفة : وماذا بعد ..قالت :

– بعد ذلك تبدأ حقبة ما يسمى بالكُمُون العاطفى ، بمعنى أن المشاعر العاطفية تظل كامنة وليست خابتة أو مطفأة ، تماما مثل النار تحت الرماد ، تحتاج لعامل ، أو لفعل يقلبها وينفض الرماد عنها لتتقد من جديد . وهذه الحقبة لا تتجاوز سنوات معدودة أقصى مداها سبع سنوات تكون أشبه ما تكون بالسبع البقرات السمان التى رآها فى الحلم صاحب النبى « يوسف » .

– حسنا وبعد ؟! هل يأكلهن سبع عجاف ؟؟ .

– ذلك هو منطق التاريخ البشرى وسننه وتجاربه ، واصلت النفس حديثها : فالعجاف يقضين السمان ويأكلنها ، وتلك هى سنوات الملل والبرود ، وفترة اللا مبالاة ، وهذه حقبة تصيب الطرفين فتظل تنهش فى العواطف وتحيلها الى صقيع بارد حتى إن أحد الطرفين ليتعايش مع الآخر كما يتعايش مع فواتير الكهرباء والتليفون ، يطول عليها العهد والأمد فلا هو مستطيع التخلص منها وهو مجبر على الاحتفاظ بها ، وبعدها تبدأ حقبة التعايش لظاهرة الاندفاع الذاتى وهى حقبة التعود على الأشياء ، فالزوج يصبح شيئا ضروريا باعتباره كاسب العيش ، هو تعود على هذا الوضع والزوجة والأولاد تعودوا على وجوده وخروجه وحضوره فى مواعيده ، كل شيىء يصبح عادة متعود عليها يخرج صباحا ، يحضر ظهرا يحمل مطالب البيت ، فاذا تأخر عن الحضور جرى السؤال عنه باعتبار « مالو عادة يتأخر ابدا » .

– والزوجة يتعود الزوج والأولاد على وجودها ، يعنى بالمختصر المفيد يصبح كلا الطرفين – شيئا – بالنسبة للاخر .

أزعجنى ذلك المفهوم الذى تحدثنى به نفسى ، وأردت أن أرفضه ولكن الواقع يؤيد حجتها ، ووجدتنى أسأل نفسى : « والحل ؟؟ » .

وسمعت سخرية نفسى قائلة « لا حل » !! هذه سنة الحياة الحديثة ، بعد فترة الأجل يظل الزوجان شيئين كبقية الأشياء ، بعض ذوى الامكانيات من الأزواج يبحث عن المناخ فى رحلات العمل الخارجية ويعود إلى اشيائه الخاصة مرددا قول الشاعر :

أطَوِّفُ ما أطوف ثم آوى ... الى بيت قعيدته لَكَاعِ

تأكد لدى أن نفسى خبثت أو هى فى طريقها لذلك ، ولعلها – نفسى –

أدركت ما دار بخلدى فقالت : « تماما كما تكون أنت أكون أنا ، فأنا فى داخلك وما تُفَصِّلُهُ أنت ألبسه أنا .

– ايه ؟؟ رحت فين ؟؟ سرجت فين ؟؟

أيقظتنى أم محيسن من حديثى مع نفسى ، وأسقط فى يدى ولكنى تداركت قائلا :

– أنا جبت الثلاجة الترموس لك ياروحى علشان تريحينى بدل ما تصحينى كل ليلة من عز النوم لأنك عطشانة وتخافى تروحى لوحدك للمطبخ فى الليل ، قلت اشتريها وتمليها موية باردة وتخليها جنب السرير ، وما تحتاجى تروحى للمطبخ لتشربى ولا تحتاجى تصحينى .

– برافو على أفكارك ، وأنا متأسفة إنى أزعجك ، لكن أعمل ايه ، الخوف مو بيد الواحد .

طمأنت نفسها وأن لا عليها ، وأن لم يعد ثمة ازعاج ، وقضينا السهرة كالعادة أمام التلفزيون ، وأوى الصغار الى حيث ينامون ، وبعد أوينا – كلانا – الى النوم بعد أن تأكدت أنها ملأت الثلاجة ماء وأحضرت معها كأسا لتشرب منها – إن صحت ليلا – .

ومنيت نفسى بنوم مريح عقب مجهود حسى مرهق وقد كان . واستمتعت بأحلام وردية إلا قليلا . ذلك أننى – وفى قمة وردية الأحلام – صحوت من النوم على صوت أم محيسن توقظنى ، وظننت أنها تشكو من ألم أو متاعب الحمل التى أخذت تترى – على غير المعتاد – فنهضت منزعجا عليها :

– خير ان شاء الله ياحبيبتى عسى ما شر ؟؟ تعبانة والا إيه ؟؟ .

– لا ياروحى ، الهى ما يحرمنى منك !! انت خايف لا أكون تعبانة ؟؟

قالتها أم محيسن فى صوت جمع بين الوسن وأنوثتها ، إذ فجر أنوثتها وأرضى نفسها أن أنزعج لها ولكنها قالت :

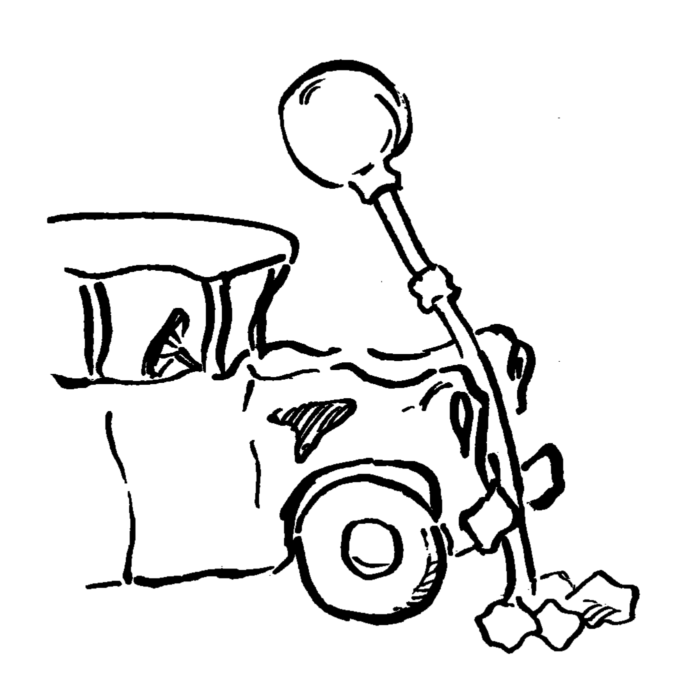
– أبدا ، بس حبيت أقول لك إنى صحيت عطشانة وشربت من الثلاجة والحمد لله ، وإنى ما صحيتك زى كل ليلة !!

كم أزعجنى ما فعلت ، ليس لأنها أيقظتنى فحسب ، ولكن لأنها حرمتنى من لذة أحلامى فى قمة ورديتها ، ولكنى أطفأت غيظى بسكب ما فى الثلاجة فوق رأسها ، وأزعجنى أكثر أنها استجابت :

– يا عمرى الموية باردة على وجهى دحين راح أنام بصحيح ، تصبح على خير .

وغطت فى نوم عميق وسمعت ضحكة ساخرة من أعماق ،إنها نفسى تسخر ، ألم أقل لك ؟؟؟ .





# ٢٤

– يا بو محيسن ، ما انت شايف انك زودتها شويتين ؟؟ لنا أكثر من شهر ما خرجنا مع بعض ولا فسحة ولا حتى خميس وجمعة ، إيش اللى آخدك علينا ؟؟ .

ولعلى كنت فى دوامة السعار فى سبيل إتمام صفقة العمر ، فلم ألحظ نبرة الود ، ولا لهجة الشوق فى صوت أم محيسن خاصة وأننى قضيت الليل أرقا أعيد حساباتى ثم أخلط أوراق ، وكنت ضَيِّقَ الصدر حرجا . فما أن سمعت منها العتاب حتى انفجرت غاضبا – خطأ – :

– تقدرى تقولى إيش ناقصك ؟ والا أنا قصرت معاكم فى إيش ، تأكلون أحسن أكل وتلبسون أفخر لبس ، إيش ناقصكم ؟ أنا ما بألعب ، انا اجاهد واطالب واشقى فى سبيل تأمين طلباتكم ، ايش ناقص ، وعندكم سيارة والسواق . روحوا اتفسحوا . أنا منعتكم ؟؟

– لا ، أبدا ما منعتنا ، ولا قصرت علينا ، بس يعنى ...

ولعلها لاحظت تغيير طبعى وَحِدَّةَ إجابتى فنجحت فى الملاطفة ، ولعلى تعسفت فى استعمال حقى أو لعلى انسقت وراء عصبيتى فلم ألمس لهجة الحنان والاستعطاف منها حين أجبتها مستطردا فى حدة مزاجى :

– أجل ايش بس يعنى ؟؟ ما قصرت معكم فى شيء ولا حرمتكم من شيء . اسمعى ، هاذى عيشتى إن عجبكم تعيشوها معى أهلا وسهلا وإن ما عجبك ، إنت حرة بيت أبوكى مفتوح لك فاهمة ؟؟ .

وشعرت كأننى أطلقت قنبلة حارقة . ولكن تحت ثورة غضبى المفاجئة لم أسترجع . ولعله كبر على أن أعترف بالغلط ، أمام أم محيسن فقد ماتت الكلمات على شفتيها وجمدت فى مكانها كتمثال من البللور . وتفجرت المآقى من عينيها غزيرة

حتى غطت صفحة وجهها وبللت صدر بلوزتها . وظلت جامدة أمامى تسح الدموع ، ولم أستطع مواجهة الموقف فقفلت خارجا وكأننى هارب من جريمة .

أخذت مكانى أمام مقود السيارة وانطلقت بها تطاردنى دموعها المتفجرة ويصرخ فى أذنى صمتها بكاءً يلسعنى بسياط لا ترحم . وتراءت أمام عينى صورتها الباكية . وعادت كلماتى الأخيرة تتردد فى مسمعى « بيت أبوكى مفتوح لك فاهمة » . وأخذت كلماتى تتردد فى مسمعى تباعا ، تضغط على أذنى فى تردد ترتفع حدته متوالية ، وتجسدت هى أمامى كتمثال من البللور . وتراءت دموعها امام ناظرى كأنها وابل تجمع فى شكل طوفان أمواجه تتلاطم . وتلاشت الأشياء من حولى وخيل إلى أننى أوشك أن أغرق فى خضم الدموع تقذف أمواجه بى يمينا وشمالا وفى كل اتجاه ، ورفعت يدىَّ أطلب النجاة من الغرق .

وكان لابد أن يحدث ما حدث ، فقد ارتطمت السيارة بحاجز الطريق الأوسط وقفزت الى الاتجاه المعاكس ثم انقلبت رأسا على عقب ، وأصبحت حبيسا داخل السيارة بين الشعور وعدمه والحس وعدمه . لم أعد أشعر بشىء سوى أصوات تتداعى للنجدة ، وأصوات تنحى باللائمة ، وأصوات ترتفع بالاتهام بالسكر والعربدة واللا أخلاقية ، ثم صوت عربة الإسعاف المميز ، خيل إلى أنه صوت نفير الصور وأننى مسوق إلى آخرتى . ثم انتهى كل شىء ، فقدت الوعى ، ودخلت فى صمت مطبق وظلام دامس .

كم مضى على وأنا كذلك ؟؟ لقد أمضيت فى الغيبوبة ثلاث ليال وأربعة أيام . وأول ما استعــدت من الحس كان الألم الممض ، ألم فى الأطـــراف ، وألم فى الصدر ، وألم فى الضلــوع . ومجمــل القــول كان كلى يؤلمنـــى وتـــأوهت من الالم وأن هى إلا لحظات حتى تداخلت الاصوات لم أتبين معانيها ، ويد حانية لمست يدى فأمسكت بها لشدة ظمئى للعاطفة – حتى وأنا فى حالتى هذه – وابتدأت الاشياء تظهر أمام ناظرى إلا أنها بدت ضبابية . ورويدا ، رويدا وضحت الرؤيا ، أم محيسن بجوارى تضع يدها على جبهتى والطبيب يجرى فحصا سريريا ثانية والممرضة تمسك بذراعى لتضع جهاز قياس الضغط ، وضابط المرور يسأل الطبيب إن كانت حالتى الصحية تسمح بالتحقيق . وخيل إلى – وأنا استعيد الصحو – أن الحجرة تموج بالبشر وأصواتهم . وطلبت رشفة ماء ، ولم تحسن أم محيسن إسناد رأسى وسقيـاى فبـاشرت المهمـة الممـرضة . حتـى إذا ارتـويت رأيت – من باب المجاملــة – أن أربت بيـــدى على يدها أو كتفها ولم تسعفنى ذراعى التى أثقلتها لفافات الجبس حولها ، فانزلقت يدى ملامسة ما دون ذلك فأجفلت وارتـدت لتصطدم بمساعد الطبيب الـذى كان يقـــف

خلفها سواء . فلما شعرت به ارتدت فى اتجاهى لتلامس الجبس الملفلف لذراعى فأجفلت مرة اخرى ثم انسلَّت لتأخذ لها مكانا قصيا فى انتظار أوامر الطبيب .

أكد الطبيب أن الفترة الحرجة والخطرة قد انتهت ، وأن لابد من قضاء أيام بالمستشفى قبل السماح بانتقالى - تحت العلاج والتمريض - الى البيت . ولا أريد أن أحنث فى قسمي ولكن سؤالى كان بريئا حين استوضحت الطبيب عن معنى قوله - تحت العلاج وتحت التمريض - عما إن كان يقصد أن تقوم بتمريضى ممرضة متخصصة - فى مثل حالتى - . وقبل أن يجيب الطبيب ، كان يضحك لسبق أم محيسن بالاعتراض إذ صرخت قائلة :

- ليه ، وأنا فين ؟؟ ممرضة إيه كمان ؟؟ هودا اللى ناقصنا ، إنت إيدك فى الجبس وماقصرت ، تقوم تقول ممرضة ، وفى البيت ؟؟ لا يفتح الله ، وأنا أقوم بكل حاجة .

الله لا يخليِ منك يا أم محيسن ، ولا يحرمنى منك ، بس مين ينتبه للبيت والعيال وانت مشغولة بحالى وتمريضى ؟؟ أنا أقول يعنى ... .

ولم تتركنى أستطرد ، إذ قالت :

- من دى الناحية إطمن ، أمك وأبوك حضروا هنا من ليلة الحادثة ، وهى اللى شايلة البيت ، وأنا هنا جنبك من يوم الحادث . فإذا رجعت بيتك بالسلامة والدتك تقوم ببقية شؤون البيت ، وأنا اتفرغ لشؤونك . وبعد ما تقوم بالسلامة وتسترد عافيتك وصحتك سَوِّى ما بدالك ، علشان أنا رايحة بيت أبويا - حسب أمرك طبعا - وبيت أبويا هو بيت أبو ناصر . هو أبونا وهى أمى .

ابتلعت الإشارة ، ولم أُحرِ جوابا فاستثمرت حالتى الصحية وارتفع صوتى مُتَأَوِّهاً من ألم الصداع المفتعل . وأحسنت الاستثمار فأعطى فائدته ، إذ نسيت أم محيسن ما كان منها وخلصت لمعالجتى .

انقضت أيامى بالمستشفى وانتقلت إلى الدار وسط فرحة الأهل وأمى أطلقت زغرودة طويلة مدوية عند دخولى الدار ، وكانت هالة ممسكة بذراع جدها أما محيسن فكان بلا انفعالات مطلقا كأن الأمر لا يعنيه . وراجعت العلاجات المعطاة لى - من واقع الوصفة العلاجية - مع أم محيسن وأخذت أوضح لها أنواعها وطرائق استعمالها ومواعيد ذلك .

ما برحت الآلام تعاودنى غير مبرحة ، وكنت أستعين عليها بالمسكنات ولكن

الليل كان أقسى على ، حتى لقد قضيت ثلاث ليال لا أعرف النوم طوالها ولايعوض ذلك قليل منه نهارا . وشكوت للطبيب المعالج ذلك فبعث لى بعقار منوم شريطة ألا يستعمل إلا عند الحاجة الملحة . وأكد هو ذلك شخصيا على أم محيسن باعتبارها القائمة على شؤون تمريضى . وأكد ألا مانع من تناول أول جرعة منه مساء عند النوم .

كان الإعياء قد بلغ منى مبلغه ، والحاجة للنوم مداها ، فلم استطع المقاومة حتى إننى لم أدرك العشاء ، فأغفيت مبكرا وغططت فى نوم عميق قبل التاسعة مساءفى حدود ما أذكر .

وأغلب الظن أن أم محيسن أقبلت فرأتنى نائما ، ولكنها أعملت فكرها سريعا وتذكرت أننى لم أتناول الدواء الذى موعده التاسعة ، فراحت توقظنى وتهزنى بعنف حتى بلغ صوتها بقية أفراد العائلة الذين قدموا على صوتها ومحاولتها إيقاظى . وأخيرا أفلحت فى ذلك فتناولت كوبا من الماء قدمته لى لأتناول الدواء .

وسألتها :

– أى دواء هذا ، لقد تناولت كل دواء فى موعده وآخرها ماكان فى الثانية مساء . ولكنها – بفطرتها الذكية – قالت :

الدكتور قال تأخذ الحبوب المنومة قبل النوم ، وانت نمت قبل ما تأخذها . وأنا مسؤوليتى إنى أحرص على الدواء فى مواعيده .

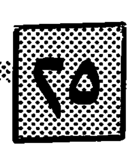
– لأ ، فالحة من يومك ياختى ، تصحى الولد من نومه وهو بقاله ثلاث ليالى ما داق النوم ، علشان تعطيه المنوم !! والله ما حقك إلا إنك تبلعيها ..

وأقبلت والدتى نحوها مندفعة غاضبة ، فأسرعت أم محيسن وابتلعت أقراص الدواء المنوم فارتاحت ، وأراحت .









- اسمع يابو محيسن ، أنا لى عندك طلب بس ياريت ما ترفضه .

قالت ذلك أم محيسن قبل أن أخلع ملابسى عند دخولى ظهرا ، بل وحتى قبل أن أخلع المشلح ، واقتربت تنزعه عن كتفى بيسراها وفى يمينها كوب من عصير الليمون .

- يا بعد روحى يا أم محيسن ، أنا عمرى رفضت لكى طلب ، عسى ما عشت إن رفضت طلبك، أنت طلباتك أوامر .

ولست ادرى ما الذى يشدنى إليها هذا الشد كله ، لعل ذلك راجع إلى طيبة قلبها ، وصفاء نفسها ومساحة حبها لى ، ولعلى وجدت فيها ما لم أجده فى سابق تجاربى الزوجية . لقد كنت صادقا معها - هذه المرة - كل الصدق ، ولعلها لمست حرارة مشاعرى فأطفأتها بقبلة حَرَّى فوق صدرى ولعل فارق الطول بيننا حال أن تأتى القبلة فى موضعها . ثم رفعت رأسها وئيدا وئيدا حتى التصقت نظراتنا ثم قالت :

- لا ، إنت عمرك مارفضت طلباتى بس الطلب هذا يدخل فى عملك ، وأنا عمرى ما طلبت منك حاجة فى شئون عملك علشان كده خفت لا ترفضه ، إيه رأيك مش كلام لاغبار عليه ؟؟ .

وأخذت الدهشة منى مبلغها ، إذ أنىَّ لها أن تقول هذا القول وماكانت تحسن دونه من قبل وقلت :

- عجبا .

- ولا عجب ولا حاجة .

قالتها وهى تلف كلا ذراعيها حول خاصرتى .

– أنا سمعتها كده فى التلفزيون فى برنامج ندوة التلفزيون ، وطبعا اللى فى الندوة كلهم متعلمين تعليم عالى ، قلت لنفسى يابنت يعنى إيه ؟؟ هوا فيه كلام عليه غبار ، وكلام لا غبار عليه ؟؟ طيب كيف يحصل كده ومن فين يجى الغبار ؟؟ جلست أفكر بعمق وبعدين لقيت نفسى فهمتها كده من نفسى .

– كيف فهمتيها كده من نفسك يا ست نفسى أنا ؟؟

وهيأت نفسى لمفاجأة منها ومن فهمها ، فشدتنى إليها وهى تحيط خاصرتى واستطردت قائلة :

– دايما الحاجة لما تترك مدة طويلة ، يغطيها الغبار والتراب صح والا لأ ؟؟ .

فبادلتها شدا وقلت :

– كلام جميل وكلام معقول .

وزادت من ضغط يديها شدا لدرجة الالتحام قائلة :

– وكلام لا غبار عليه ، لازم تقول كده ، أصلها عَاجْبَتْنِى الكلمة دى .

ووافقتها مستسلما ، فأكملت :

– وطبعا لما يتراكم الغبار معناه الحاجة أهملت وما اتمسحت ، والكلام القديم والمتكرر يقولوا عليه ان هذا كلام يغطي بالغبار أو – كلام غبار عليه – ولما يكون الكلام جديد ومبتكر يصبح كلام – لا غبار عليه – يعنى كلام ما سبق قوله ، إيه رأيك فى كلامى دا ؟؟ صح والا لأ ، علشان كده قلت لك إننى فهمتها بنفسى كده ولوحـدى !!

ورأيت مسايرتها فحللت ذراعى من حولها وهى من حولى مستأذنا فى خلع ملابسى ولتأخذ هى فى تهيئة الطعام . وعلى المائدة بدأت الحديث معادا قائلة :

– انت الجماعة جيراننا دول ، اللى قبالتنا ، جيران وناس طيبين ودايما بنتزاور وما شفنا منهم إلا كل طيب ويتعاملوا معانا وكأنهم من أهل البلد ، ما انت عارف لهم سنين هنا فى البلد .

وكنت أصادق على كل كلمة تقولها ، فما قالت إلا حقا ، فاستطردت قائلة : يعنى إنت موافق ؟؟

وصفقت – فرحا – بيديها ونهضت :

– خلينى أكلمهم بالتليفون أقول لهم إنك موافق .

وجذبتها من يدها :

– تعالى هنا ! تكلميهم إيه ؟؟ موافق على إيه ؟؟

فبهتت وتبينت فى وجهها الإحباط ، واقتربت متنمرة :

– انت ما قلت لى إنه صحيح كل اللى قلته عنهم ، يعنى موافق .

– يا بنت الناس !! يا أحب الناس .

وجذبتها نحوى وفوجئت بالجذب واختل توازنها فاستوت على حجرى ، وشعرت بالحرج امام محيسن وهالة ، التى اعجبها الوضع فصفقت فرحة بكلتى يديها ضاحكة من اعماقها وقالت :

– تمام زى برنامج العائلة السعيدة فى التلفزيون .

– واحنا عائلة سعيدة ، وان شاء الله على طول عائلة سعيدة .

قالها محيسن برزانة ابن السابعة عشرة . واسعدنى ذلك فحللت إسار أم محيسن من فوق حجرى . وتوجهت بالسؤال لكل من هالة ومحيسن قائلا :

– الحمد لله ، بس ممكن تقولوا لى إيه مصدر السعادة ، ومين فى رأيكم ؟ وهيأت نفسى لسماع الجواب معتقدا أن لى نصيب الأسد . ولكن خيبة أملى كانت مليئة بالإحباط إذ قالا وفى صوت واحد :

– مصدر السعادة فى بيتنا هى ماما .

ووافقت – عن يقين وتصديق – على ما قالا ، ثم انتظرت نصيبى . وكان الصمت هو الجواب ، وفى هذه الآثناء كانت أم محيسن قد أمسكت بالهاتف تنقل بشرى موافقتى على ما لست أدرى .

وقفزت مسرعا فأجهضت المحادثة التلفونية قائلا :

– يا ست الناس لازم قبل ما أوافق أعرف إيه الطلب ؟؟ مالهم جيراننا ؟؟ طلباتهم إيه ؟؟ .

ليه هو أنا ما قلت لك ؟؟ .

لا ما قلتى .

أقول لك يا سيدى ولا تزعل .

ثم التفت إلى كل من محيسن وهالة وقد انتهيا من تناول الطعام طالبة منهما المغادرة إلى حجرتيهما .

وطلبت من الشغالة أن تهيىء لنا القهوة وتحضرها فى غرفة الجلوس . وهناك أفصحت قائلة :

- الجماعة دول عندهم واحد قريبهم حضر لزيارتهم من حوالى شهر . وهو مهندس ويحب يشتغل هنا فى السعودية بيقولوا إنه شارد من الاضطهاد . طبعا أنا ما حبيت أناقشهم قلت اسمع منهم . وقالوا لى لو تقدر تشغله عندك فى المؤسسة تفعل خير . وجلسوا يمدحون فيه وإنه مؤمن ويخاف الله ويحافظ على فروضه وعلى قول خالته - اللى هيا جارتنا - إنه تقى ومتمشيخ ودقنه لنص صدره . طبعا أنا وعدتهم أكلمك . وبس خلاص ، توته توته فرغت الحدوته قلت إيه ؟؟

- بالعكس ، ما أعتقد إنه فرغت الحدوته . بيتهيأ لى إنها بدأت الحدوته .

ودارت بخلدى أمور كثيرة ، خاصة وأن المؤسسة مقدمة على الدخول فى المشروع إياه فلعلنا نستطيع الاستفادة منه كمهندس . ودار بخلدى أيضا أنه ربما كان من الذين يركبون موجة الدين فلبسوا لذلك لبوسها واتخذوا لها هيئتها مظهريا . وتذكرت حادثة الطبيب التى حدثت عندما كانت أم محيسن مريضة بالديرة . أمور كثيرة طافت بخاطرى . ولعلى أطلت الصمت فإذا أم محيسن تخرجنى مما أنا فيه :

- قلت ايه ؟؟ هيه !! إنت سرحت فين ؟؟ قلت ايه فى الموضوع ؟؟

فطلبت منها أن تطلب إليهم أن يراجعنى فى مكتبى بعد غد ، فقبلت رأسى امتنانا على إجابة طلبهاولكن رفعت رأسى إلى أعلى وإلى الخلف لأخلف مكان قبلة الامتنان فانقلبت الأريكة بى إلى الخلف وأم محيسن بالتالى من فوق فأمسكت بكلتا يدى كتفها خشية أن تصاب ومن فى احشائها بأذى . ولعل صوت الارتطام بلغ مسامع هالة التى اقبلت مسرعة ، فلما رأتنا على هذا الوضع ضحكت قائلة :

- ايه بتلعبوا دوها يادوها ؟؟ .











حسب الموعد المضروب ، فى تمام العاشرة كان يدخل على فى المكتب المهندس ( وليد العبيط ) ، هذا اسمه بالكامل كما قدم نفسه لى . شاب تخطى العقد الثالث من عمره بسنوات ، صبيح الوجه بادى الشباب ، حلو الحديث فارع القامة ، كث اللحية ، كث الشاربين ، فتلهما الى اعلا ، فبدا وكأنه احد فرسان القرن التاسع عشر أو الثامن عشر . إنه ، هو الذى توسطت له أم محيسن وكما أن لها حقا ، فللجار حق ، واستدرجته للحديث فاذا له صوت يحملك على الاقتناع بما يقول ولقد كدت أقتنع بكل ماقاله وكاله من المدح عنى لولا معرفتى الوثيقة بواقعى .

ولقد كان اجتماعنا ينطبق عليه الوصف الذى تطلقه وكالات الأنباء لتصف اجتماعات دهاقين السياسة المختلفة وجهات نظرهم وتصطدم مصالح بلادهم بعضها ببعض ، أعنى انه كان اجتماعا إيجابيا فقد كال وأوفى لى المديح ، وأكد لى أنه ما اختار أن يعمل فى مؤسستى إلا لما تتمتع به المؤسسة من سمعة طيبة وذكر حسن فى أوساط المال والأعمال ، وأن ذلك كله راجع إلى شخصية صاحب المؤسسة ومديرها الذى عرف عنه الورع والتقوى ومخافة الله . وظننت أنه يتحدث عن مؤسسة غير مؤسستنا وعن شخص غير شخصي ، فالذى أعرفه عن نفسى أننى ومؤسستى فى واد ، والورع والتقوى فى واد آخر .

وكلت له وطففت من نفس مورده ، ولكنى أردت أن أسبر غور نفسه ، وقد حدثتنى نفسى — وأصبحت اصدقها بعد تجربة واقعية — حيث قالت لى النفس . « ان غلاف الكتاب لايدل على ما بين دفتيه ، وإن الإطار ينشز عن الصورة » .

وبعد أن وضع الساعى بين أيدينا أكواب القهوة وأغلق الباب خلفه أشعلت المصباح الأحمر على الباب كيلا يدخل علينا أحد ، وبدأته قائلا :

— أستاذ عبيط ...

ولم يتركنى أسترسل قبل أن يصحح لى قائلا :

– وليد ، اسمى وليس عبيطا ، وانما لقب للعائلة من يدرى ربما جدى الأكبر اختاره كذلك سدا للذريعة كما يقول علم الفقه .

وأعجبنى أسلوبه وثقافته العامة خاصة قوله : « ربما اختاره جدى الأكبر سدا للذريعة » وأخذت ذلك تلميحاته أن وراء الأكمة ماوراءها ، ولكن أردت أن أتأكد من صدق إحساسى فقلت له :

– مع احترامى وتقديرى لمديحك المؤسسة ، وعنى شخصيا ، لكن من واقع ممارساتى وجدت أن فى حلبة الصراع المادى والعملى والتجارى ، هذه الأمور التى ذكرتها عن الورع والتقوى وقفت عند مفترق الطرق ، وأصبحت هناك مسميات أخرى تتلاءم مع بيئة الصراع ، أعنى البيئة لم تعد تلائم تلك الأخلاقيات . ومنطق الأشياء يقول إن النبت إذا لم يستطع التكيف مع البيئة يموت . ويزدهر النبت الذى يملك التكيف والتأقلم مع البيئة الجديدة ، ألا توافقنى على ذلك ؟؟ .

وركزت ناظرى فى ناظريه ، فضحك من أعماقه . وأفرزت ضحكته هذه معها من الأعماق بعض مصداق حدسى وظنى . ثم استطرد قائلا :

– سيادتك راجل عملى ، وواقعى ، وتأكد – سيدى – أننى واقعى كل الواقعية ولو أخذت الفرصة فسوف تثبت لك الأيام والعمل أننى من نفس الطينة ونفس الخلطة .

اذا ، لقد صدق حديث النفس ، وصدق حدسى أو فراستى وأنه أحد راكبى الموجة إياها ، وانتشلنى من تفكيرى حين قال :

– سيدى ، إذا تأمر ، أعطنى الفرصة ، وسوف تبدى لك الأيام منى مايسرك .

وهززت رأسى إيجابا ثم رفعته قائلا :

– إذا لقد ألقيت العصا .

فأجاب على الفور :

– وبطل السحر والساحر .

عندئذ اطمأننت إليه على حذر وطلبت منه مراجعة شؤون التوظيف لاستكمال اجراءات تعيينه بعد أن يحضر مؤهلاته . ودفعت إليه بوريقة ترشحه للعمل ووقفت لوداعه ، وقبل أن أفعل كان مدير مكتبى يستاذن لمدير مكتبنا السيد

أبو سامر الذى حضر فجأة ، وأذنت له . فيما يستعد المهندس وليد للمغادرة ، كان أبو سامر قد دخل . وما أن رأى المهندس وليد أمامه حتى أخذه بالأحضان وتبادلا التحية والقبلات ثم طلب اليه الانتظار خارجا « وينك ، بالله ناظرنى بالهول ، لا تروح ها » .

فلما أصبحنا منفردين سألنى :

– بالله ، منين تعرف وليد ؟

– أبدا ، رشحه جيران لنا للعمل كمهندس ، تعرفه أنت ؟؟ قصدى تعرفه معرفة قوية ؟

لم أكد أنتهى من سؤالى حتى انفجر ضاحكا :

– لا ، أعرفه ، أعرفه معرفة صحيحة ، إحنا ولاد حى واحد ، وجيران ، دا مصيبة ، بلوة مسيحة .

– هل هذا مدح أم ذم ؟؟ دا عليه توصية جامدة ، وأنا وعدت الناس ، فإذا كان أخلاقه مشكوك فيها بلاش .

– شو الحكى طال عمرك ؟؟ أعمال زى أعمالنا ماينفع فيها إلا إنسان يكون مشكوك فى أخلاقه ، بس المهم إننا إحنا نكون متأكدين من أن أخلاقه مشكوك فيها .

أحرجتنى صراحتك هذه ، وخيل الى أن ذلك مجابهة حقيقية للواقع ، ووجدتنى أسأله – كتحصيل حاصل :

– تفتكر كدا ؟؟ .

– طبعا عمو أبو محيسن ، لازم كده ، ومن غير كده ماراح يتم شىء ، وبالمناسبة أنا جيت لك من المطار على المكتب بخصوص موضوع المشروع إياه .

– ها ؟؟ عملتوا إيه ؟؟ إن شاء الله اتوفّقتوا وأخذوا موافقة ولو مبدئية ؟؟

– لسه بنحاول ، بس صفقة ضخمة زى دى بدّها وبدّها ..

وأخذ يفرك كلتا راحتيه ويغمز بعينه اليمنى . وعجبت لاشارته وقد تركت تحت تصرفه أكثر من مليون ريال ، ذلك أننى أعتبر حصولى على هذه العملية ، هو صفقة العمر . فطلبت إليه الجلوس وأمرت بقدحى قهوة وطلبت عدم دخول أحد علينا ، ثم سألته :

– قصدك إيه بَدّهاَ وبَدّهاَ ؟ أنا تارك تحت تصرفك لحساب العملية دى ....

– صبرك سيدى صبرك .

قالها مبتسما وبكل هدوء وبساطة . ثم استطرد قائلا :

– ياأبومحيسن ، ركز معايا شوية . إحنا قدامنا منافسين كثيرين ، مؤسسات وشركات عملاقة ، يعنى يقدروا يدفعوا أضعاف ماندفع ، ومستعدين يحرقوا السوق فى سبيل الحصول على الصفقة ، كل الناس عندهم فلوس ، حتى الناس المعنيين واللى فى إيديهم الحل والربط ، عندهم فلوس ، وفلوس كثير ، فاهمنى ؟؟ .

وشعرت كأن أُذُنَىَّ استطالتنا لتشبها بعض مخلوقات الله . وشعرت كأننى نهقت قائلا :

– لا ، لا أفهم !! ممكن توضح قصدك إيه ؟

فاقترب بكرسيه منى وخفض صوته بعض الشىء قائلا :

– قصدى إننا نقدم شىء جديد ، شىء مغرى جداً ، ومرغوب جداً ، وماكل واحد يستطيع تقديمه ، شىء بيكون مغرى لدرجة إن أحد مايستطيع رفضه ، وماكل حدا يستطيع تقديمه ، فهمتنى ؟؟ .

مرة أخرى استولى على الشعور بأن أذنى استطالتا أكثر فأكثر ونهقت ثانية – أو هكذا خيل إلى مسمعى –:

– لا مافاهم حاجة .

وهنا اقترب مني أكثر وأكثر ، ثم سحب حافظة أوراقه السمسونايت ، وأخرج منها مايشبه إضبارة . ما أن فتحها وأخذ يقلب أوراقها حتى فهمت قصده ، ذلك انها حوت الكثير والكثير جداً من بعض مشاهد النشاط الشخصى الذى اصبح يمارس فى رحلات العمل المزعومة فى الشرق الأقصى ، والغرب الأدنى . وشعرت بالدم يغلى فى عروق ، وأنى أكاد أسطو عليه . هل يتصور هذا الرجل أننى أنزل إلى هذا المستوى ، وأقدم هذه البضاعة . ولكنه كان قد أعد لكل شىء عدته كأنما كان يتوقع ثورتى المضرية حين قلبت الأوراق فى وجهه صائحا :

– إنت فاكرنى ممكن أكون ... أو أتعامل بالمعصية والكبائر ؟؟ .

– حلمك على أبو محيسن .

قالها واثقا من انتصار منطقه :

– انت ماراح تشتغل بالمعصية ولا تقدمها ، حضرتك مش بتقول إن غير المسلم مايدخل الجنة ؟ عظيم حضرتك عارف إننى على غير دينك . وما دام راح ادخل النار ، أتركنى أدخلها بثمن يسوى !! أنت مالك أى علاقة ، شو رأيك ؟؟ .

– فى إيه ؟

سألته وأنا فى حالة ذهول من جرأته على الله وعلى الأخلاقيات وبكل بساطة ، وكأنه يتحدث عن بديهية ، أو حقيقة مسلم بها .

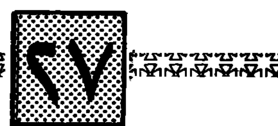
– شو رأيك بهيك أخلاق ؟؟ .

– والطقعة والله بها الأخلاق ، دى أخلاق زى الخمرة .

هكذا أجبته قاصدا أن إثمها أكبر من نفعها . ولكنه من واقع خلفيته الأخلاقية أخذها بمعنى أنها كلما مضى عليها الزمن كانت ألذ طعما وأكثر فعلا .







ارتفع صرير جرس الهاتف ، وكان الوقت ضحى ، وأنا مسترخ فى الدار فى يوم الاجازة ، وكان هذا أول يوم إجازة – عطلة نهاية الأسبوع – أقضيه داخل المنزل على غير العادة ، ولكن حرارة الجو والصيف القائظ جعلانى أفضل الاسترخاء .

كانت أم محيسن تحضر لى فنجان قهوة لنشربها معا مستمتعين بحالة الاسترخاء الاجتماعى والأسرى . وجاءنى صوتها من المطبخ .

– شوف التليفون يابو محيسن .

ولكنى لم أستجب اذ لم أر سببا يبرر قطع الاسترخاء الذى أنا فيه ، خاصة وأنا أرى هالة هوايتها فى الرسم والألوان وهى تفترش – الظل – فى جانب من حديقة الدار . ولكن الهاتف استمر فى رنينه ، فيزعجنى . وأم محيسن من الداخل تصر على ان أجيب عليه ، خشية ان يتوقف الهاتف عن الرنين قبل استكمال الاتصال ، فتظل تضرب أخماسها فى أسداسها من يكون صاحب المكالمة .

وتحت الحاح الطرفين نهضت متخاذلا تاركا الشرفة حيث كنت مسترخيا الى الداخل للإجابة على نداء الهاتف . وعلى الطرف الآخر جاء صوت عجوز متصابية تسأل عن أم محيسن ، فاستمهلتها بعض الشيء لأستدعيها ولكنها قبل أن أفعل سألتنى من أكون بلهجة خيل الى أنها ساخرة :

– وحضرتك مين ؟؟ لا تكون اسم الله عليه أبو محيسن ؟

فلما أكدت لها ذلك ، استطردت :

– ها ، إيش الأخبار إن شاء الله سألت لى على المحل ؟؟ .

– محل إيه ياست ؟؟ إنت مين ؟؟ وطالبة مين ؟؟

أزعجتنى طريقة حديثها وكلماتها الممطوطة ، كأنها تخرج الكلمات من فمهاعلى حلقات . ووددت لو قطعت الحديث لولا أنها استطردت موضحة :

– وى ، إيش بك متصربع ، أنا خالتك أم عزيز صاحبة أم محيسن ، و.... .

وحضرت أم محيسن سائلة عن المتكلم همسا ، فهمست لها لست ادرى لماذا ، ولكن متابعة للهمس أو عدوى ، أن المتحدثة ( ام عزيز ) فأشارت الى أن أصرفها بزعم أن أم محيسن غير موجودة . وهمست لها :

– كيف أقول ، وأين ذهبت ؟

فقالت :

– قل لها إنى رحت الجمعية .

دار بيننا الحديث الهامس بينما كانت الخالة ( أم عزيز ) لاتزال تتحدث فى الهاتف مالم أسمع ولم أفهم ، حتى إذا ما أنهيت حوار الهمس مع أم محيسن ، وجدت ( أم عزيز ) لاتزال تتحدث قائلة :

– وبس ، هادى القصة كلها ، ياترى سألت لى عن المحل والا لا ؟؟

ورأيت أن لابد من إنهاء الحديث فأجبتها حازما :

– ياستى أنا ماعندى فكرة عن الموضوع ولما ترجع ام محيسن ، والا إفتحى لها تلفون على الجمعية ، هى هناك .

وظننت أننى حسمت الموضوع معها – ولكن – وكلهن أم عزيز – لم تعط الفرصة لإنهاء الحديث قائلة :

– اسم الله ، اسم الله ، الراجل فى البيت جالس ، والست خارجة ؟؟ والله عشنا وشفنا ، والله مانى دارية أقول إيه ؟؟ أقول ستات آخر زمن ؟؟ والا أقول رجال خردة ؟؟ نهايته ، مع السلامة ، بس لا تنسى إذا رجعت تقول لها خالتك أم عزيز اتصلت ، مع السلامة ، ترى لا تنسى هه ، ضرورى .

وتنفست الصعداء .. إذ انتهت المكالمة ، وعدت الى الشرفة لأكمل ما انقطع من استرخائى ، فوجدت أم محيسن قد سبقت الى هناك ، وباشرت صب القهوة . واذ أخذت مكانى مسترخيا ، ثم تناولت أول رشفة من القهوة حتى رفعت رأسى متسائلا ، ولقد فهمت سؤالى قبل أن انطق به قائلة :

– ياشيخ سيبك منها ، دى حرمة مخلولة ، قد جدتى ، ومصغرة نفسها كأنها بنت أول أمس ،ومشموتة تبغى تتجوز .

– بس كيف تخليني أكذب عليها ، وهي واعية ولسانها سابقها ؟؟ .

– واعية ايه الله يسهل عليها إنت كمان ، دى لسانها تاعبها وتاعب الناس معاها ، ما تصدق على الله تسمع حكاية ، وهات ، تحط على الحبة قبة ، و ... .

فأكملت لها :

– وتزيد على القرص جنانه ، طيب ولما إنت عَارْفَتْهاَ كده ، ليش تكذبى عليها وأقول أنك فى الجمعية ، تعرفى إيش قالت ؟؟ .

وبدون اهتمام ، وبدلال متعمد قالت ، وقد انحنت تعيد فنجان القهوة الى الصينية على المنضدة :

– يعنى ايش عندها تقول ؟؟ وخليها تقول ، أكبرها قولة انها فاضية وما عندها شغل ، خليها تقول !!

وعجبت لموقفها رغم شهادتها لها بطول اللسان . وتخيلت قالتها وما تقول . ولعلى أطلت السهوم والتفكير فانتشلتنى أم محيسن من أفكارى:

– ايه ؟؟ مالك ؟؟ .

– إنت عارفة قالت إيه خالتك أم عزيز لما عرفت انك فى الجمعية ، وأنا جالس فى البيت ؟؟ ياويلك مما راح تسمعيه !! قالت : والله عشنا وشفنا ، ستات آخر زمن ورجالة خردة ، يعطى الحلق للى مالو أودان .

– نعم نعم نعم !!

قالتها تباعا أم محيسن وقد انتفضت من جلستها :

هى منمرة عليك انت يعنى ، وعزت ربى لأنا ... .

ولم أدعها تكمل فأمسكت بذراعها أجلسها وأهدىء من ثورتها ، ومداعبا :

– يعنى إيه منمرة عليا ؟؟ هو أنا أصبحت محل نظر الستات ؟ طيب دى حاجة تفرح ؟؟ .

ستات مين انت كمان ، دى عمرها يمكن قرب الستين ، بس متشببة ومتصابية . إنت عارف كانت بتسأل على ايه ؟؟

وانفجرت ضاحكة :

– أقول لك هدى ست مخلولة ، تصور قال ايه تبغاك نسأل لها على محلات التقبيل هادى فين ؟؟ .

وعجبت !! ماذا يهمها ؟؟ هل تريد فتح مؤسسة تجارية ، واتجهت لزوجتى أسألها وقبل أن أفعل سألتنى هى :

– لكن صحيح قل لى ، ايه حكاية محلات للتقبيل هادى كثرت الأيام دى ؟؟ لأ ، والمصيبة يعلنوا عنها كان فى الجرايد ؟؟ كيف سمحوا لهم ؟؟

– وفيها ايه ياستى ؟؟ فى جدة وحدها أنا أعرف أكثر من عشرين محل للتقبيل ، فيها ايه ؟؟ .

– نعم !! نعم !! نعم فيها ايه كمان ؟؟ وانت لوحدك تعرف أكثر من عشرين محل للتقبيل ؟؟ وتعرفها ليه ؟؟ وعلشان إيه ؟؟ ياراجل اتق الله ، واذا بليتم فاستتروا .

انطلقت أم محيسن فى ثورة عارمة لا تعرف المهادنة ، وكان فى صوتها نبرة إحباط ، ورنة حزن عميق ، وتقلصت عضلات وجهها ، وأخذ – لشدة الانفعال – صدرها يعلو ويهبط كأنما يستجيب لإيقاع .

– طبعا وفيها ايه يابنت الناس ؟؟ ثم دخلك إنت ، والا أم عزيز دخلكم إيه فى المحلات للتقبيل دى ؟؟ تهمكم فى إيه ؟؟

قابلت ثورتها بأخرى فقالت :

– طبعا إحنا يهمكم ايه ، ؟؟ وانتو يارجال يهمكم طبعا تعرفوها ، وتروحوها .

وفطنت أو تنبهت الى اللبس أو سوء الفهم لسوء التعبير أو خطأ التعبير . وأدركت كل شيء وعرفت سر اهتمام ( أم عزيز ) ولكنى أردت التأكد ، فاقتربت من الحبيبة من خلفها ألف ذراعى حولها ثم أهمس فى أذنها من وراء شعرها المتهدل .

– هو انت فاكرة المحل للتقبيل يعنى بقبيل كده

وهممت بما لم تُمَكِّنِّى منه ، والتفتت تواجهنى :

– أجل إيه يعنى ؟؟ فيها لها معنى تانى غير كده ؟؟ .

– طبعا ياستى .

وشددتها إلى وهى بين يدى :

– محل للتقبيل يعنى محل صاحبه يحب يتركه ويبيعه بجميع مافيه ، فيقبله لو أحد يقبل شراؤه ، فهمتى ياختى ؟؟ .

فضحكت وهى محاصرة بين ذراعى قائلة فى خجل :

– يعنى مو ايش اسمه داكا ؟؟

فأجبتها عمليا :

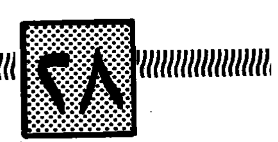
- لا ، إيش اسمه هادا .

وانسلت من بين يدى ضاحكة :

- ياخيبة أملك ياخالتى أم عزيز !! ياخيبة أملك ؟؟ .







بلغ السيل الزبى مع نفسي واياى . أصبحت الأمور بيننا – نفسي وأنا – تكاد تأخذ طابع التحدى ولا أظنكم مُصَدِّقِيَّ لو قلت إنها أصبحت تتجسد أمامى فى مواقف كثيرة ليس آخرها ما حدث عشية هذا اليوم .

جاءت أم محيسن فى رقة ووداعة مريبتين وحشرت نفسها بجوارى حيث جعلت من الأريكة متكأً ومستلقى . ولكنها حشرت نفسها بجوارى حتى إنها لتكاد تحفر لنفسها مكانا داخل جنبى . والذى أثار الريبة أن الموسم ليس موسم طلب الدفء شتاء ، ولا الوقت ربيعا .

وكنت مستغرقا ومنهمكا كل الانهماك وكل الاستغراق فى مشاهدة برنامج المصارعة الحرة بالتليفزيون ، وهذا هو البرنامج الوحيد الذى يروقنى ويستهوينى ولا أسمح لشىء أن يصرفنى عنه . ولكن هذ الشىء الذى يحفر لنفسه أخدودا فى داخلى يكاد يصرفنى إلى مصارعة غير التى بالتليفزيون ، وظللت أسيرَ الشد والجذب بين البرنامجين .

ووجدت من الخُلق – وأنا إنسان أخلاق أحيانا – أن أحاول أن أزاوج بين الممكن وبين المطلوب . فمددت ذراعى بطولها لأربت بكفى على رفيقتى تعبيرا عن الود والرضى . وازدادت قربا لتتيح مساحة أكبر . وخسر برنامج المصارعة الحرة على التليفزيون جولته إذ انصرفت عنه للتفرغ . ولم أكد حتى استوت جالسة بجوارى وفى عينها سؤال حائر ، ثم أفصحت :

– قل لى يابو محيسن !! فيه حاجة أنا عملتها ، بس غير متأكدة إن كانت صح أو غلط !! قصدى إن كانت حلال أم حرام ، يمكن انت أعرف منى بالحلال والحرام .

ولم أفتعل الانتباه ، بل كان حقا . ولم أكد أفعل حتى دوت ضحكة ساخرة بجلجلة سمعتها وكأنها تزلزل سمعى ، وتتردد فى داخلى .وأبصرت نفسى وقد تجسدت أمام ناظرى أبصرها وحدى دون من حولى ، وأسمعها وحدى . ولقد عرفتها حال تجسدها . وكيف لا ، وهى نفسى وأنا أعرف الأشياء بها .

ووجدتنى أحدثها – نفسى – منصرفا عن رفيقتى التى ظنت بقواى العقلية سوءا « إيه ؟؟ بتضحكى من إيه ؟؟ ما أنا فعلا أعرف الحلال من الحرام !! »

وظنت أم محيسن أننى أخاطبها ، إذ قالت :

– أنا ضحكت ؟؟ أنا ؟؟ أنا أسألك . ثم أنا ما كملت كلامى .

فرددت على أم محيسن القول :

– لا أنا ما أقصدك إنت ، أنا أقصدها هى .

– هى مين يابو محيسن ؟؟ أنا إللى باكلمك ، تقول هى ؟؟ .

وجلجلت الضحكة الساخرة مرة ثانية . لأسمع النفس المتجسدة – بينى وبين أم محيسن – تقول : « أنا فاض بىّ ومليت !! إنت تفهم فى الحلال والحرام إنت ؟؟ طيب أنا صبرت واستحملت كل انحرافاتك حتى الشخصية منها ، وأحاول أنبهك ، لحد مالقيتك غرقت فى أوحال الوصولية وآخر مشوارك كانت صفقتك مع ( أبو سامر ) إنت عارف معناها إيه » ؟؟ .. « ايه ؟ معناها إيه يا خبيثة ؟؟ » .

وصرخت أم محيسن ظانة أننى قصدتها بقولى خبيثة ، وتهدج صوتها ، وبان الأسى فى نبراتها :

– أنا خبيثة يابو محيسن ؟؟ أنا باعترف لك واسألك عن اللى عملته ، تقول عنى انى خبيثة وأنا ماكملت الحكاية علشان تعرفها ؟؟ .

وأجهشت بالبكاء ، فقربتها منى نجياً ، كأنما أحاول حمايتها ، أو كأننى أدارأ فيها :

– يا أم محيسن ما قصدى انت ، قصدى هذى الخبيثة اللى قدامى .

وتلفتت أم محيسن حولها فى شبه دائرة كاملة تبحث عمن أقصد . وإذ لم تر شيئا ، صدق حدسها أن خللا ما قد أصاب قواى العقلية أو يوشك أن يحدث . وانسلت من بين يدى إلى الداخل لما لست أدريه من شأن ، وتركتنى ونفسى وجها لوجه .

– انت قصدك إيه يانفس ؟؟ تجننينى ؟؟ والا تظهرينى قدام الناس مختل الشعور ؟

– محصلة بعضها ، المهم شعورك معايا أنا !! نفسك شعورك مع نفسك صادق معها أو كاذب ، ولا تنسى ، أنا صهينت وما شيتك فى كل ألاعيبك . لكن انك تصبح زى ما يقول المغنى عبد المطلب : « بياع الهوى » لأ ، أنا ما أرضاها ولا أقدر اتعايش معاك بهذه الأخلاقيات ، جلاب الهوى ، وبياع الهوى ، يعنى بصراحة تقدر تعتبر دا إنذار وبعد كده أنا من طريق وانت من طريق .

عجبت لقالتها ، هل معنى ذلك أن أصبح انسانا فارغا مجوفا ؟؟ بدون نفس فى داخلى .

ووجدتنى أضحك أو أسخر من تهديدها قائلا : « مع السلامة .. الطريق اللى تودى أحسن من اللى تجيب » . وانصرفت غير ساخطة ، وظننت أننى سأخلو بمفردى وإذا أم محيسن داخلة وفى يدها مبخرة تنطلق منها سحب الدخان حاملة رائحة البخور الجاوى والمجمع . ووضعتها أرضا بعد أن دارت بها حولى سبع مرات متمتمة بالمعوذتين . ثم طلبت منى أن أمر من فوقها – المبخرة – جيئة وذهابا سبع مرات أيضا .

فأمسكت بها من معصمها :

– إيه اللى بتعمليه داه ؟؟ خزعبلات إيه دى ، تعالى قوليلى إنت كنت بتقولى إيه ؟؟ وإيه الغلط اللى بتسألى عنه ؟ .

– الحمد لله .

قالتها بارتياح ان شفيت مما أصابنى بزعمها ، ثم قالت تحكى ما فعلت :

– أصل جارتنا كانت عندى فى الصباح ، وجلسنا ندردش شوية . والكلام جر بعضه وبعدين قالت إن فاتورة الكهرباء جاتهم كبيرة . أكثر من كل مرة . وكان فاتورة التليفون أكثر من ألفين ريال مع أن استهلاكهم فى الكهرباء ما اتغير عن المألوف ولا عندهم مكالمات .

– طيب واحنا دخلنا ايه فى دا كله ؟؟

سألتها مستوضحا ، فاعتدلت فى جلستها شارحة :

– أنا أقول لك دخلنا إيه !! الشهر اللى فات تليفوننا خرب ، وجارتنا كانت عندنا ، ما هان عليها ، حلفت ألف يمين إلا ترسل لنا تليفونها ، لأنه عندهم جهاز غيره ، بينى وبينك أنا جاتنى فكرة ، قلت ما دام تليفونهم ، أهو كل المكالمات تنحسب عليهم ! وعنها فضلت نازلة مكالمات ، لأ وإيه ؟؟ كل صاحباتى صاروا يجوا يتكلموا من عندى – طبعا فى تليفون الجيران – وهادى تكلم ولدها فى أمريكا ، والثانية فى ألمانيا ، والثالثة تكلم بنتها فى استراليا وكله فى تليفونهم ، من عندنا . إيه رأيك ما هى شطارة ؟ .

ولم أحر جوابا ، فقد كنت فى دوامة .. أحسب حساب الفاتورة القادمة وأفكر فى سذاجتها . إذ ظنت أن مجرد استعارتها لجهاز الهاتف من الجيران يجعل المكالمات تسجل على حسابهم . وانتشلتنى من دوامة التفكير لتضيف ( ضغثا على إبّالَة ) قائلة :

– بينى وبينك ، أنا عجبتنى الفكرة ، فكرة اقتصادية ، قلت أعمل زيك واستغل الحكاية . رحت طالبة منهم كمان المكوة الأتوماتيكية الكبيرة ، وصرت أغسل بها الشراشف والكفرتايات حقتنا وحقت الجيران ، وكل من عنده ، وكلهم صاروا يشكرونى . ماهم داريين إنه كله على حساب الجيران ولما اليوم اشتكت جارتنا من فاتورة الكهرباء والتليفون ، ضميرى أنبنى ، وقلت أصارحك بالحقيقة .

– وبعدين ؟

سألتها وأنا مغيظ . فأجابت وقد ارتاح ضميرها :

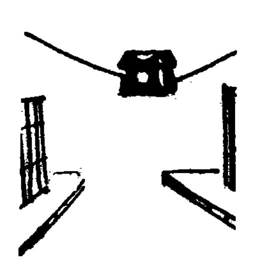
– وبس .

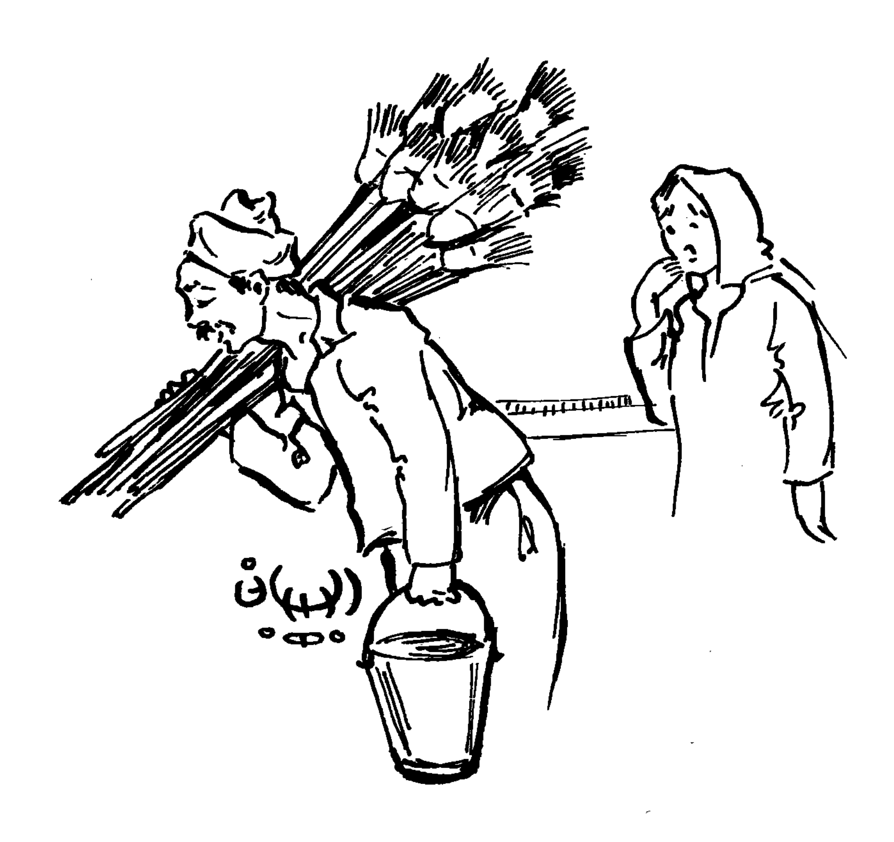
– يعنى قصدك إنك عملتى نفس اللى أنا باعمله ؟؟ فكرة اقتصادية ؟؟ قصدك تقولى انى أنا باضحك على الناس ؟ لكن مع الاسف اللى حصل أن الناس ضحكوا عليكى ، أنا استغليت حاجة الناس ، انما الناس استغلوا سذاجتك .

ولما شرحت لها الأمر واتضح لها ، كالت لجارتها كل صفات الغش والخداع ، كأنها تفعل الخديعة والغش . وانطلقت تبعث لهم بحاجاتهم ثم عادت إلى قائلة :

– الحق عليك ، كان لازم تعطينى دروس فى الغش والخداع .

وابتلعت غيظى لما قالت إذ لست أدرى أكان مدحا أم هجاء ؟!





# ٢٩

العنكبوت نسج بيته ، الحشرات بدأت تتساقط فيه ، العبيط أذكى مما تصورته ، التفاصيل شخصيا .

كان هذا نص التلكس الذى تلقيته من مدير المكتب ( أبو سامر ) حمله الى عامل التلكس بالمؤسسة السيد ( زكى موهوب ) . ولقد ضحكت ساخرا من مفارقات الأسماء إذ يحمل إسم ( زكى وموهوب ) ، وأبدى كامل قلقه حين قدم الرسالة قائلا :

– مشكلة كبيرة يا أستاذ . وسألته :

– فين المشكلة ؟؟ خير إن شاء الله يا أستاذ زكى ؟؟.

– زى ما إنت شايف سعادتك !! العنكبوت نسج بيته والحشرات يعنى إنه هناك إهمال ، – ربما متعمد وربما غير ذلك – والحكاية تحتاج لتحقيق ، لأن هناك تقصير فى أعمال النظافة .

ولم أعجب لسذاجته وأحببت أن أضع لمسات من الدعابة داخل المؤسسة . فأوحيت إليه أن الإهمال له مسبب . وعلى المسبب تقع المسؤولية . ولتحديد المسؤولية لا بد من التحقيق . وذلك يتطلب لجنة للتحقيق . واللجنة لا بد لها من رئيس . وكان الأستاذ ( موهوب ) عند كل مقطع من مقاطع القول يهز رأسه إيماء بالموافقة . حتى إذا رأيته تشبع بالفكرة طلبت إليه أن يرأس بنفسه لجنة التحقيق هذه . وقد أسعده ذلك وطلبت إليه تحضير خطاب أمر إدارى بتكوين هذه اللجنة . وفى أقل من ساعة كانت أمامى مذكرة بتكوين لجنة تحقيق برئاسة – الموهوب – واسميتها لجنة العنكبوت ، وما أن خرج من مكتبى حتى أبلغت مدير الإدارة بأن الأمر كله دعابة . وطلبت منه الاستمرار فى الدعابة مع تفريغها من المضمون ، وقد كان .

فى اليوم التالى كان – الموهوب – قد استحوذ على لقبه الجديد ، إذ وصلتنى عن طريق زملائه بطاقته الجديدة التى أسرع بطبعها طباعة أنيقة يتصدرها إسمه وتحته

كلمة « رئيس لجنة العنكبوت » وكان ذلك محل دعابة أكبر ومصدر أملوحات عديدة .

فى المساء كان ( أبو سامر ) يشرح لى - مبتهجا - أبعاد نجاح مخططه وكيف أن الطعم الذى وفره ، وفر له الكثير من أسرار العمليات والصفقات المنتظرة - من أوثق مصارها - فما لم يحله المال من أسرار ولم يذلله من صعوبات ، حله وذلله ما أتاحته وسائله - بالمال أيضا - . وقدم لى ملفا عن صورة اتفاقية لتوقيع الصفقة ، وملفا آخر عن مشروع توسعة منظورة للمشروع ذاته تعتزم الشركة العالمية تنفيذه ، إذ سيكون المشروع على مستوى المنطقة الاقليمية من حولنا .

اقترحت على ( أبى سامر ) أن يسافر إلى أمريكا مع ملف مشروع التوسع ليضعه أمام المؤسسة التى تمثلها مؤسستنا ليضعوا دراسة مستوفاة عن التوسعة . ولكنه رفض أو اعتذر قائلا :

- لا ، عمو ، أنا راجع لمركزى من شان توطيد نشاطنا الجديد ، وكسب مواقع جديدة ، وتنمية مؤهلات إضافية .

وافقته على ذلك . ولم أكد حتى فتح ملف المهندس - العبيط - وأخذ يشرح لى مؤهلاته ونشاطاته ، وكيف أنه طاقة ، وقدراته ليس لها حدود فى استخلاص الأكثر من الأقل .

- أفهم !! أفهم دى من فضلك ، يعنى ايه استخلاص الأكثر من الأقل ؟؟ بصراحة مانى فاهمها ؟! ممكن توضح وتشرح ؟؟.

أوقفته عند هذه النقطة وأصررت على فهمها ، فضحك ملء شدقيه ثم قال :

- بالمثال يتضح الأشكال ، هيك قالوا بالأمثال .. أضرب لسيادتك مثل ، سيادتك عارف إن المبانى يكون إنشاؤها على بعد ثلاثين كيلو متر من المينا للمخازن الجديدة ، الثلاثين كيلو متر دى لازم تنعمل طريق أسفلت أرضية من المسلح علشان تتحمل الشاحنات ، الطريق دا يكلف الشيء الفلانى ، ملايين وملايين والشركة هى اللى تدفع ، واحنا اللى ننفذ . تصور فى العملية دى ، بفكرة بسيطة من - العبيط - تكسب المؤسسة - بدون أى جهد - أكثر من ثلاثة ملايين !!

وسال لعابى أمام هذه المعلومة ولكنى حذرته من التلاعب فى الانشاءات وأعمال الطرق ، ولكنه أكد لى أن كل الأعمال سوف تنفذ بمنتهى الدقة وحسب المواصفات وتتحدى كل لجنة تفتيش . وكانت لهجة الصدق والثقة تتردد فى كل حرف وكلمة ينطق بها . وعجبت .

– إذا فين مكسب المؤسسة ومن أى بند .

سألته وقد عاد لعابى يسيل للمبلغ فأجاب .

– المسألة بسيطة ، العبيط وضع الخطة وتنفيذها . الطريق الأسفلت عرضه حسب المواصفات ثلاثين مترا ، فلو – على طول الثلاثين كيلو متر – أنقصنا من عرض الطريق سنتيمر واحد على كل من الطرفين ، يكون كسبنا ثلاثة ملايين أو أكثر ، واكتشاف فرق نصف سنتيمتر أو سنتيمتر واحد ، غير وارد .

– برافو على أفكارك أبو سامر :

هكذا هنأته فرحا وأنا أربت على صدره ، ولكنه أردف مصمما :

هذا شرف لا أدعيه لنفسى !! إنها فكرة المهندس وليد العبيط .

هكذا صحح لى معلوماتى . وعدت بذاكرتى لتاريخ لقائى مع – العبيط – وحديثه معى عن الأخلاق والأمانة والشرف . وتذكرت صدق حدسى فى أنه إنما فعل ذلك واتخذ ذلك المظهر ليركب الموجة التى ركبها قبله آخرون ، وسيركبها من بعده الأكثرون .

سارت الأمور خلال الأيام التالية رتيبة ، وأنا أعد لرحلة خاطفة إلى الخارج لاستكمال الإجراءات لتوثيق تمثيلى للشركة المنفذة ، والتى ستكون مؤسستى هى الواجهة الوطنية لها .

حينما عدت مساء اليوم إلى الدار ، وجدت الجو مشحونا ومتوترا كما لم أعهده من قبل ، أم محيسن متوترة ، والمآق تسح من عينيها بطيئة كأنها سائل لزج ينحدر على صفحة وجهها الذى أصبحْ ، لطول الوقت وكثرة ماسَحَّ عليها من دموع وكأنه قد تعرض لعملية شق أخاديد متجاورة .

خشيت أن يكون أمر ذو بال قد حدث لأحد أفراد العائلة ، لهالة أو محيسن أو أحد أبوىَّ ، فاقتربت منها – بريئا – آخذها بين كلتا يدى لأخفف عنها ، فصدتنى عنها ولم تخف على مرارة ما تشعر به ، فقد كانت طريقة صدها لى تحمل طعم المرارة .

– عسى ما شر يا بعد روحى .

وكانت دائما تغلب على اللهجة الأم حين أكون تحت وطأة أى من عوامل الفرحة أو الأسى .

– خير إن شاء الله ؟؟ إيش جرى ؟؟ ليش ها الدموع الغوالى .

واقتربت أعاود الكرة لآخذها إلى أحضانى ، فصدتنى ثانية ولكن بمرارة أقل ، ورفعت رأسها لأبصر بحيرتى دموع فى عينيها . وقالت وقد جاء صوتها كنشيج المكلوم :

– ليه ؟؟ ليه تفضحنى بين الناس ؟؟ أنا بيتى وسخ ؟؟ أنا بيتى مليان صراصير وحشرات ؟؟ أنا بيتى تسرح فيه الدود والعناكب ؟؟ دا بيتى من أنظف بيوت البلد ، دا من نظافته ما بقى فيه إلا إنت وأولادك .

ولعلها لم تقصد الإساءة بجملتها الأخيرة . وأقسمت لها أننى لا أفهم شيئا مما تقول .

– ويش تقولين يا أم محيسن ؟؟ صراصير إيه وعناكب إيه ؟؟ والله الذى لا إله إلا هو ما نى فاهم ، ويش تقولين ؟؟ فهمينى بس إيه الحكاية .

فمسحت دموعها بطرف كم ثوبى الذى كان فى متناول يدها ثم أفرغت بعض محتويات أنفها فيه استطراداً لتجفيف الدمع وأنشأت تقول :

– كل حريم البلد بيقولوا كده ، وإنك كلفت الشركة من قسم النظافة والصيانة تحضر علشان تنظيف البيت . من ثلاثة أيام والناس تتكلم وأنا ما أدرى عن شيء إلا اليوم فى الضحوية جاتنى بعض صاحباتى ، وناس وستات من زمان ما جونى ولا شفتهم . ولما اندهشت لحضورهم والكلام جر بعضه قالوا إنهم سمعوا أنك كلفت الصيانة وقسم النظافة لتنظيف البيت من الحشرات . وطبعا ما تركت الموضوع كده ، وفضلت أسأل من فين سمعوا ، لحد ما عرفت إن الحكاية صحيحة لأن الست ( نبيهة الصالح ) مرات ( زكى موهوب ) هى اللى فصلت الحكاية وأكدت إن جوزها هو رئيس الصيانة اللى تبغى تجى لتنظيف بيتى .

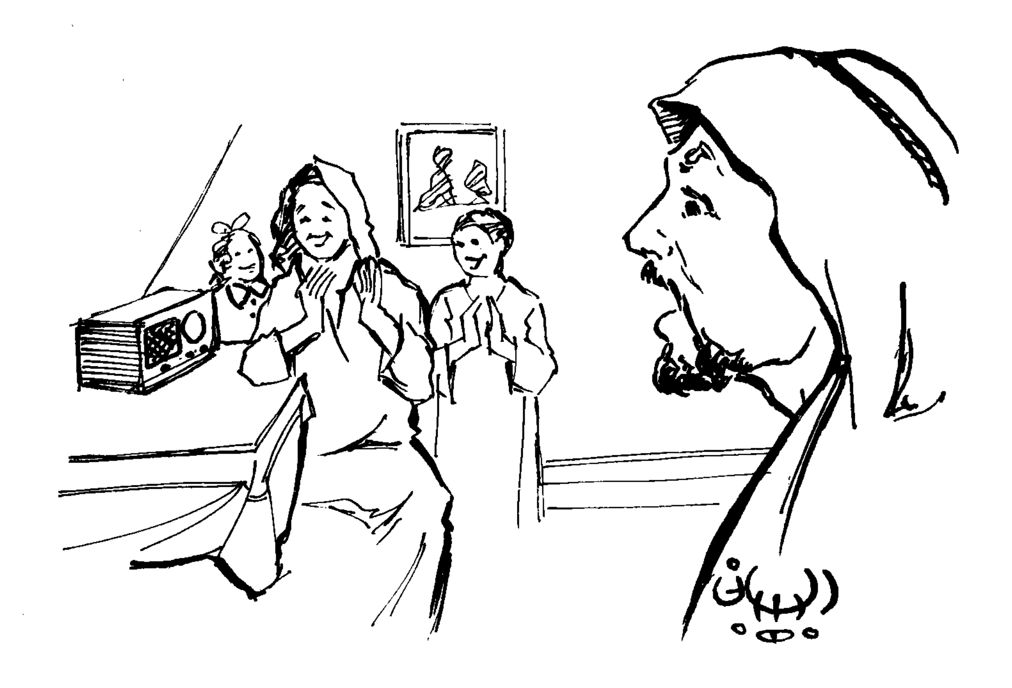
– مين ؟؟ مرات زكى موهوب ؟؟

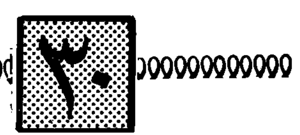
هكذا صرخت سائلا ، فقد أدركت ما حدث ، وقد صدق ظنى ، فالموهوب – فى غمرة زهوه وعجبه – ظن الأمر جدا وليتباهى أمام زوجته ولإثبات ذاته أمامها ، أطلعها على الطبعة الجديدة من بطاقته الخاصة شارحا لها – بذكائه وموهبته – ولعلها نافسته ذكاء وموهبة فنسجت قصتها لتحكيها أمام صديقاتها لتزهو بمنصب زوجها وعلو كعبه . وانتقلت القصة من فم نسائى إلى آخر نسائى ، وتداولت شفاه النساء القصة وكل يضيف زيادة حتى وصلت القصة إلى قمة المأساة داخل بيتى .

وشرحت لأم محيسن الأمر ، وكآية لصدق قولى طلبت على الهاتف السيد ( زكى موهوب ) وأشبعته ملامة وتقريعا .

ولعله عاد بالقارعة على زوجته ، ولسوء حظه أن حماته كانت ضيفة عليه فى داره ، بدليل ما حاق به من حماته وابنتها . إذ جاء صباحاً فى اليوم التالى يحمل آثار تقريعه لزوجته حيث ذاق وبال أمره من حماته وابنتها . وأول شىء عمله أن تقدم لى باستقالته من رئاسة لجنة العنكبوت .







اليوم هذا سوف لا أنساه أبدا ، فقد كان يوم مفاجأة كبرى فى حياتى . مفاجأة كان لها أثرها كنقطة تحول فى حياتى الزوجية ، ولها أثرها فى إجهاض استمرار حديثى عن - زوجتى وأنا - .

كعادتى - ظُهراً - عدت أحمل إرهاق العمل وإرهاق ازدحام المرور ، وإرهاق حر الصيف ، رغم الجو المكيف فى المكتب والسيارة . وكعادتى أيضا كنت أتوق للاحتواء الذى عودتنيه أم محيسن لتمتص منى كل هذا الأرهاق الذى أحمل ، فقد عودتنى أن أجدها فى انتظارى ، البسمة فوق شفتيها ، والفرحة على صفحة وجهها وعصير الليمون أو البرتقال فى يمينها ، والحب فى صوتها ، غير أننى لم أجد شيئا من ذلك ، ولم أجدها هى نفسها ، وكان هذا إرهاقا آخر لِما أحمل من إرهاق .

كل شيىء فى الدار صامت صمت القبور ، إلا صوت الساعة الكبيرة يحصى الثوانى والدقائق فى رتابة ، وبدا لى المكان والصمت ، وصوت الساعة كاننى اشاهد أحد مشاهد الرعب فى أفلام « هيتشكوك » ولعلى ساورنى بعض الخوف فرفعت صوتى انادى :

- هل من أحد بالدار ؟؟ وينك يا محيسن ؟؟ وينك يا هالة ؟؟ يا أم محيسن وينكم فيه ؟؟

وعاد إلىَّ صوتى خاسرا وحسيرا ، إذ لا جواب . ألقيت بلباس رأسى جانبا على أحد الكراسى بالمدخل ، والعباءة - المشلح - أرضا ، وتسارعت دقات قلبى وصعدت درجات السلالم عجلا كل درجتين وثلاث فى خطوة واحدة . وجاءنى صوت المذياع من الغرفة القصوى ، فأسرعت صوبه لأجد الجميع متحلقين حوله ، وهو يردد أسماء متتاليه . وما كدت أرفع الصوت حتى أشار الجميع لى بأيديهم أن اصمت ، وقد فعلت لا اراديا ثم اقتربت هامسا أسال . وما كدت حتى عاود الجميع إشاراتهم - أوامرهم - بالصمت ، وللمفاجأة أمسكت وصمت .

حتى إذا استعدت نفسى من المفاجاة ، أصخت السمع فإذا المذياع يذيع أسماء سيدات ، تبينت – فيما بعد – انها إذاعة لنتائج امتحانات الشهادة الإعدادية . وعجبت للأمر ، أو للاهتمام غير المبرر ، ذلك أن لا هالة أدركت المرحلة ، وأن محيسن قد سبقها منذ عامين ، ففيم الاهتمام .

مرة أخرى حاولت أن أبدى الملاحظة ، ومرة ثالثة أجهضوا محاولاتى بإشارات الصمت من أيديهم ، ولم أجد بدا من الإذعان – مسايرة لا اقتناعا – .

تمهل المذيع ليلتقط أنفاسه وبلل ريقه ، ثم تابع قائلا « نتائج امتحانات الشهادة الإعدادية لطالبات المنازل » .

وشعرت كأنما زادت مؤشرات التوتر ، وأخذ الجميع – غيرى – جلسة المتوثب . وران صمت عميق ، حتى لحدة الصمت أوشكت أن أسمع أنفاسى – وإياهم – وهى تتردد فى تتابع وتسارع ، وصوت المذيع يردد الأسماء تباعا ، معقبا كل إسم برقم جلوس الطالبة .

ومضت دقائق ، كأنها الدهر من ثقل الصمت على شخصيا .. ومن ثقل الانتظار والمتابعة .. على الباقين . وتوقف المذيع – هنيهة – كأنه انتهى من إذاعة أسماء طالبات اللجنة السابقة – وبدت خيبة الأمل على الجميع – إلاى – وأوشكوا على القيام لولا أن شدهم مرة اخرى صوت المذيع « طالبات المنازل اللجنة الثالثة عشرة » .

وهنا عادوا – وإياى – كأنما أصابتنى عدوى الاهتمام على غير وعى منى وازداد الصمت ثقلا لولا يقطعه صوت المذيع يردد الأسماء فى رتابة ، وتريث قليلا ليلتقط أنفاسه . ثم أردف متابعا ذكر الأسماء ، وكلنا متابع الأسماء سماعا . وفجاة ارتفعت أصوات الجميع – غيرى – فرحة ، مهللة ، ويقبل بعضهم بعضا ، ويهنىء بعضهم بعضا .

ولعلى أصبت بشيىء من التبلد حين تعجبت لفرحهم فتساءلت .

– إيه ؟؟ مين شادية اللى فرحتوا لنجاحها ؟؟ صاحبتكم والا قريبتكم يعنى ؟؟ إيه الهبل دا ؟؟

ولعلهم فوجئوا بمقالتى هذه . ولعلهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة لسوء تقديرى للأمور ولمحاولتى إجهاض فرحتهم ولعدم مشاركتى الفرحة – على عدم معرفتى لصاحب العلاقة –..

وظلت أم محيسن تنظر إلى فى ذهول من سؤالى أومن جهلى ، أما هالة فقد تعلقت بوالدتها تقبلها مباركة ، ومحيسن ينظر إلى فى رثاء ويضرب كفا بكف ، فاقتربت منه أضع يدى على رأسه .

– ايه يا محيسن ؟؟ فهمنى يا ابنى ، أنا الظاهر عامل زى الأطرش فى الزفة ؟؟

– يا بويا ، انت ما تعرف واحدة اسمها شادية ؟؟

فأنكرت بشدة قائلا : أنا ؟؟ شادية ؟؟ عمرى ما سمعت بها ، دا أنا ما أعرف فى الستات إلا أمى ، وأمك وبس .

– عظيم !! اسمها إيه ؟؟ قصدى أمى ، وأمك إسمهم إيه ؟؟

– امك اسمها شـ ..

وتملكتنى الدهشة فى نفس الوقت الذى انفجر محيسن ضاحكا ملء شدقيه ثم أردف قائلا :

– انت ايه نسيت اسم امى ؟؟

فأمسكت بذراعه وتلفت تجاه الآخرين :

– أنا ما نسيت اسمها أبدا ، أمك فقدت اسمها فى ذاكرتى ، ماعاد لها اسم عندى إلا الحبيبة أم محيسن .

استدركت ملتفتا لأم محيسن :

– يعنى انت تحصلت الآن على الشهادة الابتدائية ؟؟ مبروك يا روحى .

وأقبلت تجاهها مباركا ومهنئا ومقبلا ، وأقبلت هى نحوى مستجيبة ، كأحلى ما تكون الاستجابة لولا أن حالت ( هالة ) دون ذلك ، إذ وقفت بيننا لتشدنى من طرف الثوب قائلة :

– ابتدائية ؟؟ دى الشهادة الاعدادية يابابا !! ماما شادية اخذت الشهادة الإعدادية يا بابا !! يعنى كده كام سنة والجامعة ان شاء الله .

– الف مبروك ، والعقبى لك يا هالة ياروحى .

ثم التفت إلى أم محيسن متسائلا :

– كيف حدث هذا ؟؟ ومتى ؟؟ متى كانت تدرس ؟؟ ومتى كانت تحضر للامتحان ؟؟ أسئلة كثيرة تدفقت من فمى فى حيرة ، وكان لها جواب واحد من أم محيسن :

– فى الوقت الضائع يا كابتن – فى الوقت اللى كان ضايع علينا منك ، استغليته ودرست فى الجمعية النسائية ، ومن سار على الدرب وصل ، وان شاء الله – قالتها بلهجة تصميم وعزم لم أعهدها من قبل – رايحة أواصل لحد الجامعة وآخد اللسانس .

ونزلت كلماتها الأخيرة وكأنها مطارق هشمت الصورة التى أحتفظ بها لأم محيسن فى حياتى ، هذه السيدة المحدودة فى كل شيء إلا فى أنوثتها وسحرها . ولعلها أدركت بحاستها حالة الإجهاض النفسى الذى أعايشه اللحظة ، فتعلقت بعنقى قائلة :

– لكنى برضه راح أكون لك أم محيسن اللى تعرفها ، الساذجة ، البسيطة ، اللى كنت تعرفها ، المُحبة اللى كنت تعرفها ، الزوجة والأم والأخت و ... والـ ...

وخفضت صوتها لدرجة الهمس لتخفيها عن هالة ومحيسن وتصبها فى سمعى قائلة :

– والحبيبة العاشقة .

وعادت إلى طمأنينتى بعد أن تجسدت لى متاعبى فى تجاربى السابقة مع ذوات الشهادات العالية ، فرددت القبلة بأخرى . إلا أنه شتان بين حرارة ما أخذت ، وصقيع ما رددت لولا أن أيقظنى صوت هالة قائلة :

– أنا إن شاء الله إذا نجحت فى الجامعة وأخذت اللى بتقول عليه ماما ، ليسانس ، تعرف يا بابا رايحة أعمل إيه ؟؟

– ايه ياروحى ؟؟ تعملى ايه ؟؟

وأخذتها بين يدى أرفعها لأقبلها فرحا بها ، فأجهضت فرحتى قائلة :

– رايحة اكتب كتاب عن حياتنا مع بعض وأسميه !! أسميه .. أسميه ايه يا ماما ؟؟

فتصدى للاجابة محيسن قائلا :

– سميه الحياة مع ابى ، أو سميه بابا وأنا .

وأسقط فى يدى ، فسقطت هالة من يدى إلى الأرض واقفة على قدميها . وتجسد أمام ناظرى ماسوف يحتويه مثل ذلك الكتاب لو قدر له أن يصدر . فخجلت – سلفا – ولملمت أوراق ، وطويت صحائفى وجففت قلمى ولففت أم محيسن بذراعى من دون الخاصرة ، لتجهز لنا طعام الغداء .



إصدارات إدارة النشر بتهامة

## سلسلة: الكتاب العربي السعودي

### صدر منها:

- الجبل الذي صار سهلا (نقد) — الأستاذ أحمد قنديل
- من ذكريات مسافر — الأستاذ محمد عمر توفيق
- عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- التنمية قضية (نقد) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نقد) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- الظمأ (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- الدوامة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- غداً أنسى (قصة طويلة) (نقد) — الدكتورة أمل محمد شطا
- موضوعات اقتصادية معاصرة — الدكتور علي بن طلال الجهني
- أزمة الطاقة إلى أين؟ — الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
- نحو تربية إسلامية — الأستاذ أحمد محمد جمال
- إلى ابنتي شيرين — الأستاذ حمزة شحاتة
- رفات عقل — الأستاذ حمزة شحاتة
- شرح قصيدة البردة — الدكتور محمود حسن زيني
- عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نقد) — الدكتورة مريم البغدادي
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (نقد) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- وقفة — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نقد) — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار بلا زمن — الأستاذ عبدالله الحصين
- كتاب في علم إدارة الأفراد — الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
- الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر) — الأستاذ محمد الفهد العيسى
- طه حسين والشيخان — الأستاذ محمد عمر توفيق
- التنمية وجها لوجه — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الحضارة تحد (نقد) — الدكتور محمود محمد سفر
- عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- لحظة ضعف (قصة طويلة) — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
- الرجولة عماد الخلق الفاضل — الأستاذ حمزة شحاتة
- ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
- بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ حمزة بوقري
- أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم) — الأستاذ محمد علي مغربي
- النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
- قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي

- نبض — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر
- السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبدالله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثانية) — الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية) — الأستاذ عبدالله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- خواطر جريئة — الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
- السنيورة (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- جسور إلى القمة (تراجم) — الأستاذ عزيز ضياء
- تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
- الحمى (ديوان شعر) — الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
- قضايا ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير — الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
- الشوق إليك (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
- شيء من الحصاد — الأستاذ حامد حسن مطاوع
- أصداء قلم — الأستاذ محمود عارف
- قضايا سياسية معاصرة — الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
- نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي — الأستاذ بدر أحمد كريم
- الإعلام موقف — الدكتور محمود محمد سفر
- الجنس الناعم في ظل الإسلام — الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
- ألحان مغترب (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- غرام ولادة (مسرحية شعرية) — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- سير وتراجم — الأستاذ عمر عبدالجبار
- الموزون والمخزون — الشيخ أبوتراب الظاهري
- لجام الأقلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- نقاد من الغرب — الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
- حوار.. في الحزن الدافيء — الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
- صحة الأسرة — الدكتور زهير أحمد السباعي
- سباعيات (الجزء الثاني) — الأستاذ أحمد السباعي
- خلافة أبي بكر الصديق — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- البترول والمستقبل العربي — الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة

| الكتاب | | المؤلف |
|---|---|---|
| إليها .. | (ديوان شعر) | الأستاذ حسين عبدالله سراج |
| من حديث الكتب | (ثلاثة أجزاء) | الأستاذ محمد سعيد العامودي |
| أيامي | | الأستاذ أحمد السباعي |
| التعليم في المملكة العربية السعودية | | الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع |
| أحاديث وقضايا إنسانية | | الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة |
| البعث | (مجموعة قصصية) | الأستاذ محمد علي مغربي |
| شمعة ظمأى | (ديوان شعر) | الدكتور أسامة عبدالرحمن |
| الإسلام في نظر أعلام الغرب | | الشيخ حسين عبدالله باسلامة |
| حتى لا نفقد الذاكرة | | الأستاذ سعد البواردي |
| مدارسنا والتربية | | الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع |
| وحي الصحراء | | الأستاذ عبدالله بلخير<br>الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه |
| طيور الأبابيل | (ديوان شعر) | الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي |
| قصص من تاغور | (ترجمة) | الأستاذ عزيز ضياء |
| التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية | | الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ |
| زوجتي وأنا | (قصة طويلة) | الدكتور عصام خوقير |

## تحت الطبع :

| الكتاب | | المؤلف |
|---|---|---|
| معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان | | الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي |
| ماما زبيدة | (مجموعة قصصية) | الأستاذ عزيز ضياء |
| عام ١٩٨٤ لجورج أورويل | (قصة مترجمة) | الأستاذ عزيز ضياء |
| وجيز النقد عند العرب | | الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي |
| هكذا علمني ورد زورث | | الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري |
| الطاقة نظرة شاملة | | الدكتور عبدالهادي طاهر |
| عمر بن أبي ربيعة | | الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي |
| رجالات الحجاز | (تراجم) | الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي |
| لا رق في القرآن | | الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي |
| من مقالات عبدالله عبدالجبار | | الأستاذ عبدالله عبدالجبار |
| دعوى ودفاع | | الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول |
| إليكم شباب الأمة | | الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول |
| لن تلحد | | الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري |
| سرايا الإسلام | | الشيخ أبوتراب الظاهري |
| التنمية قضية | (الطبعة الثانية) | الدكتور محمود محمد سفر |
| قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا | (الطبعة الثانية) | الدكتور سليمان بن محمد الغنام |
| غداً أنسى (قصة طويلة) | (الطبعة الثانية) | الدكتورة أمل محمد شطا |
| تاريخ عمارة المسجد الحرام | (الطبعة الثانية) | الشيخ حسين عبدالله باسلامة |
| خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) | (الطبعة الثانية) | الأستاذ أحمد السباعي |
| الحضارة تحد | (الطبعة الثانية) | الدكتور محمود محمد سفر |
| الجبل الذي صار سهلا | (الطبعة الثانية) | الأستاذ أحمد قنديل |

Nasr Packaging & Printing Co.
Jeddah, —— Saudi Arabia
Tel.: — 6606435 /6606439

NASRPACK

النصـــر للطبـــاعة والتغليفـــ
جدة ـ المملكة العربية السعودية
تليفون ـ ٦٦٠٦٤٣٥ / ٦٦٠٦٤٣٩